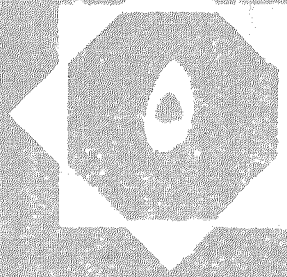


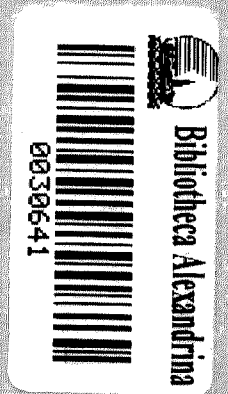
الدين والثورة

فيلم

١٩٥٢ - ١٩٨١



الحركات الدينية المعاصرة



الدين والتثورة

في مصر

١٩٥٢ - ١٩٨١

٥- الحركات الدينية المعاصرة

دكتور حسن حنفي

الناشر
مكتبة مدبولي

المسلمون في آسيا

في مطلع القرن الخامس عشر الهجرى

أولا : مقدمة :

ما زال العالم الاسلامى واقعا بين المطرقة والسندان ، بين الاستعمار الغربى والمهيمنة الشرقية ، وكأنه طائر مقصوص الجناحين ، جناحه الغربى فى افريقيا وجناحه الشرقى فى آسيا ، فأصبح جسم الطائر ذاته فى مصر ، قلب الامة العربية ، ومركز الثقل فى العالم الاسلامى ، لايقوى على الحراك ، يتعثر الخطى ، ولايقدر على النهوض جريحا ينزف دما ، ويظن الاعداء أن روحه تفيض وأن أجله قد حان .
مع أن جندها خير أجناد الارض ، وشعبها مرابط الى يوم القيامة (٢) .

وان كنا قد انشغلنا كثيرا بجناحنا الغربى فى مواجهتنا الحديثة ضد الاستعمار فاننا قد نسينا جناحنا الشرقى مع أن به أكثر من ستمائة مليون مسلم أى أكثر من ثلاثة أرباع المسلمين فى العالم . وقد كان الاستعمار

اليسار الاسلامى ، العدد الاول ، القاهرة ١٩٨١ .

(١) القيت خلاصة هذا البحث كحاضرة فى النشاط الثقافى لمنظمة تضامن الشعوب الاسيوية والافريقية يوم الاربعاء ١٩٨٠/١/٩ فى دار كتاب آسيا و افريقيا « جمعية الادباء » و اثر زيارتى لافغانستان وللجمهوريات الاسلامية بالانحد السوفيتى فى نوفمبر ١٩٧٩ .

(٢) عمر بن يوسف الكندى : فضائل مصر ، تحقيق ابراهيم العدوى ، على محمد عمر ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧١ .

الغربي أيضا في جاوة والفلبين وأندونيسيا لا يقل خطورة وعنفا عن الاستعمار الغربي في المغرب العربي وفي مصر وسوريا والعراق وفلسطين . أما في آسيا فان الاسلام الصامت هناك ، الرابض في قلوب المسلمين جعلنا غير قادرين على سماعه ، وان كنا نشعر به . لم يكن هناك احتلال مباشر للاراضى ولكن كانت هناك هيمنة وضم للامارات الاسلامية في أواسط آسيا بعد نشوب ثورة أكتوبر ١٩١٧ تحت اسماء الثورة الاشتراكية الكبرى .

وقد آن الاوان أن نعيد الى وعينا القومى التوازن في اهتماماتنا بين جناحيننا الغربى والشرقى، وأن نذكر المسلمين في قلب العالم الاسلامى بالمسلمين في آسيا حتى لا نظل فريسة للاستعمار يجذبنا أمامه ، ونتجه بوعينا نحوه ، وأن نغفل توجيه وعينا نحو عالمنا الاسلامى في الشرق .

وقد انتشر الاسلام أول ما انتشر في آسيا . وانطلقت جيوش المسلمين الى فارس في معارك نهاوند والقادسية . وانتصر المسلمون على الفرس مع انتصارهم على الروم في اليرموك وعلى أسوار حصن بابلين . وتم فتح فارس في نفس الوقت الذى تم فيه فتح مصر والشام في عهد عمر . وخرجت الجيوش الاسلامية في عهد عثمان ، ووصلت الى أواسط آسيا ، الى بلاد ما وراء النهر ، خراسان ، وأذربيجان . وهناك استقر الصحابة الاوائل ، واستشهد التابعون . ومازالوا بقبورهم شاهدى عيان على ماآثرهم ، يزورهم المسلمون ويتحسرون على ما مضى ، ويبكون على ما فات .

وفي آسيا ، تكونت امبراطوريات اسلامية ، وفيها انتشر الاسلام حتى الصين . وهناك تراث تيمورلنك وآثاره حيث كان الاسلام بؤرة

ثورية ينتشر منها الاسلام في كل اتجاه ، الزحف شرقا الى الصين ،
أو غربا الى العراق وتركيا أو جنوبا الى الهند وفارس أو شمالا الى
سهول آسيا الوسطى • وفي تاريخنا الحديث قام السلطان « محمود
الغزنوى » في شمال الهند ، وقام السلطان « أكبر » أيضا بتوحيد الامة
الاسلامية في الهند • فاستمرت فتوحات المسلمين في آسيا دون توقف •
ولم تنتوقف الا اهتماماتنا بها •

وقد ارتبطت آسيا بالخلافة الاسلامية ، رمزا لوحدة الامة •
وكانت فجيعة المسلمين هناك خاصة في الهند بقضاء كمال ألتاتورك عليها •
لم يعد لهم مركز جذب في قلب العالم الاسلامى فاجتذبتهم مراكز أخرى
خارجه ، وبدل أن يكونوا أطرافا للدولة العثمانية أصبحوا أطرافا
للجمهوريات السوفيتية الاشتراكية المتحدة • أعطتهم تركيا صورة
الاسلام بلا مضمون ، وأعطتهم الثانية مضمون الاسلام بلا صورة •
وتساءل الناس هنا وهناك : مسلمون بلا اسم في تركيا ، واسلام بلا
مسلمين في الصين والاتحاد السوفيتى •

وقد رسخت عقيدة أهل السنة في أواسط آسيا بوجود الصحابة
مثل « قشيم بن عباس » ، وأئمة مثل « البخارى » و « الترمذى » • فأمن
المسلمون بالاسلام الواضح الجلى ، وتمسكوا بالسنة • وظل الاسلام
في قلوبهم حيا ، يتمسكون بالشعائر ، ويحافظون على هويتهم القومية
الاسلامية حتى ولو عصفت بهم حوادث الزمان ، وضاعت أماراتهم ،
وفر أمراؤهم ، وتبدلت عليهم النظم السياسية ، ونسيهم المسلمون •

وقد كان أهل فارس أهل علم • وعلى يديهم نشأ التراث الاسلامى •
وان كان التعريب لديهم قد تأخر الى حين ، ولم ينتشر قدر انتشاره في

المغرب الاسلامى الا أن اللغة الفارسية بجوار العربية أصبحت لغة العلم • ألفت فيها المسلمون عربيا وعجما • ونشأ في تراثنا أنصار الحكمة الفارسية مثل ابن مسكويه في مقابل أنصار الحكمة اليونانية وعلى رأسهم الفلاسفة وأخوان الصفا • ومن ثم يرجع جزء من تكويننا الذهني الى آسيا • وألف علماء الفرق الاسلامية في التراث الاسيوى ، وتحدثوا عن حضارات الهند والصين وفارس مثل الشهرستاني « الملل والنحل » كما درس علماء المسلمين ومؤرخوهم حضارات آسيا مثل البيروني في كتابه المشهور « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة » •

وقد حاولنا نحن اقتفاء أثر القدماء • فوضعنا في جامعاتنا « الفكر الشرقي القديم » ضمن مقرراتنا ، في محاضرة مقصورة على طلاب يبلغون أقل من أصابع اليد الواحدة ، معتمدين على مراجع تجعل من آسيا مقدمة لاوروبا ، وتتصور الحضارات الشرقية القديمة على أنها مقدمات دينية لاهوتية أخلاقية علمية اسطورية تسلطية للحضارة الغربية قبل بدايتها عند اليونان حيث العلم والمعرفة والنظر والنزاهة والحرية والديمقراطية والتي انتهت الى حضارة الغرب العلمية الغلمانية التي ورثت حرية الفرد وديمقراطية المجتمع * •

وعلى العكس منا، اكتشف فلاسفة التاريخ المعاصرين «رييح الشرق»
East Wind بعد ثورات الصين وفيتنام ونهاية الشوفينية الغربية ،
وضرورة اعادة التوازن في التاريخ العالمى بين حضارة الغرب وحضارة

* أصبحت هاتان الساعتان ضمن مقررات الفرقة الاولى لقسم الفلسفة بجامعة القاهرة وضمن مقررات قسم الفلسفة أيضا في جامعة صنعاء .

الشرق ، وبأنه لا يوجد نموذج واحد للتطور ، وهو النموذج الغربى • ودقت أمريكا باب الصين ، وقامت حرب أكتوبر ، واندلعت الثورة فى إيران ، وقامت الحركات الإسلامية الثورية فى كل أرجاء العالم الإسلامى ، وتحديث الغرب عن يقظة الإسلام ، واكتشف العالم الإسلامى قدراته الخلاقة ، وامكانية تغيير نظمه ، والتحكم فى مصائره ، والسيطرة على مقدراته ، والتحكم فى قدره •

والتراث الثورى الآسيوى ليس ببعيد عنا • فقد ساهم السلطان جاليف والافغانى فى الدعوة الى انشاء جامعة شعوب الشرق ، ومن أجل انشاء جمهوريات اسلامية اشتراكية فى آسيا ثم توحيدها كلها فى حركة عامة ، حركة تحرر شعوب الشرق فى مواجهة الاستعمار الغربى • كما ساهمت الثورات العربية الحديثة بزعامة الزعيم جمال عبد الناصر فى تأسيس مؤتمر باندونج فى ١٩٥٥ ثم حركة دول عدم الانحياز ، ثم منظمة تضامن شعوب آسيا وأفريقيا ، ثم مؤتمر القارات الثلاث ، كل ذلك ليعيد الى وعينا القومى البعد الآسيوى لتاريخنا حتى يمكن أن نتحرر من بقايا الاستعمار فى وعينا القومى وأن نتجه شرقا كما اتجهنا غربا •

ولا يعنى الانفتاح شرقا مجرد التأييد الاقتصادى والعسكرى والدولى فى قضايا القومية المصرية كما حدث أبان الثورات العربية الأخيرة ، أو الاثر الايديولوجى كما حدث فى أحزابنا الماركسية وبالأحرى الدخول فى أحلاف المعسكر الشرقى ومعاهدات صداقة كما حدث فى بعض أنظمتنا العربية ولكن يعنى اكتشاف امتدادنا الطبيعى فى قارة تزخر بامكانياتها البشرية والمادية ، واثراء تراثنا القومى الإسلامى فى دائره حضارته الطبيعية ، الدائرة الآسيوية الافريقية

ولن نقوم باعطاء مادة احصائية عن أحوال المسلمين تعدادا واحصاء للمكانيات البشرية أو للثروات الطبيعية أو لآلواهم الاجتماعى كما

يحدث أحيانا في أجهزة الاعلام الغربية التي تهتم بالتحليل الكمي لمستقبل المنطقة كمنافس لها أو على أقل تقدير كمسترد لثرواتها وأسواقها وشخصيتها وهويتها واستقلالها • فنحن لا نتعامل مع وقائع بل مع « ماهيات » تعتمد على التجارب المباشرة ومعايشة الثورة الاسلامية في ايران ، والاسلام المنبوذ في افغانستان ، والاسلام المكبوت في الجمهوريات الاسلامية في أواسط آسيا • ليس القصد هو اعطاء معلومات كمية كما يفعل المستشرقون الذين يودون حساب القوى والقدرات ولكن يومنا فهم تاريخنا من منظور الامة الاسلامية من أجل سماع ايعاءات التاريخ واعطاء توجيهات للمسلمين للمساهمة في حركته •

وهو مجرد تخطيط عام ، ولفت نظر للجناح الشرقى للامة الاسلامية تعقبه تفاصيل عن أوضاع المسلمين في كل دولة من دول آسيا • ومن ثم نوفي ببعض الدين لامتنا كما يفعل الفقهاء ، حارسو الشرع والمدافعون عن مصالح الامة ، والذابون عن حوضه الاسلام •

لقد حاول الاستعمار ضرب قلب العالم الاسلامى برا في الحروب الصليبية • فلما فشل حاصرها بحرا عن طريق الالتفاف حول سواحلها في افريقيا وآسيا • وقد نجح هذه المرة • والآن قد يتغير مجرى التاريخ عندما يعاصر جيلنا تحرر بلدان افريقيا وآسيا ، ويعود الاستعمار الى موطنه الاصلى حين ينتقلص المغرب ، ويعود الى حجمه الطبيعى • وفى الوقت الذى تدب فيه الحياة من جديد فى افريقيا وآسيا ، تبدأ مرحلة أخرى من مراحل التاريخ كما بدأتها قديما عندما كانت أوروبا مازالت قبائل متنافرة ، تحكمها شريعة الغاب •

وإذا كان قلب العالم الاسلامى الآن قد استيقظ بدون اطرافه فان

الاطراف الآن قد بدأت في الحركة ، ودبت فيها الحياة بعد أن توقف نبض القلب أو بطأت سرعته • وربما تؤدي حياة الاطراف الى احياء القلب من جديد فينهض الجسم كله ، جسم الامة الاسلامية وتتصدر مكانتها في التاريخ •

وهذه الدراسة ليست موجهة ضد أحد أو في صف أحد • ليست ضد الاتحاد السوفيتي في صف الغرب ، أو ضد الغرب في صف الاتحاد السوفيتي بل تحتوى على وصف لاحوال المسلمين في آسيا ، خاصة في ايران وأفغانستان والجمهوريات الاسلامية في الاتحاد السوفيتي من وجهة نظر مشاعر المسلمين ، والامة الام • ليست انحيازاً للمشرق مادامت الامة الاسلامية بتاريخها الطويل مع الاستعمار معادية للغرب ، قدمت له العلم والحضارة أثناء الحروب الصليبية وبعدها فقابلها بعد ذلك بالغزو والاحتلال والسيطرة • علمتهم الامة الاسلامية الرماية فلما اشنت سواعدهم رموها •

يهمنا من فقهاء الامة الاسلامية أن يكملوا ما بهذه الدراسة من نقص أو يصححوا ما بها من أخطاء فهي قضية الامة كلها ، والكل مسئول عنها ، المؤرخ والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والقانوني والمفكر والاصولي والمتكلم والفيلسوف والاديب ، كل علماء الامة • والحكم في النهاية للجمهور •

ثانياً : الهوية الاسلامية (ايران) •

كانت الثورة الاسلامية الكبرى في ايران المؤشر الحقيقي على يقظة المسلمين ، وظهور الاسلام ، هذا المارد العملاق من « القمم » •

فقد اندلعت على غير انتظار وتوقع بعد أن كانت ايران بالنسبة للغرب
واحة أمان ، وبعد أن كان جيشها ثالث أقوى جيش في العالم ، بعد
الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبعد أن كانت ايران واسرائيل
تمثلان ركيزتا الدفاع عن الغرب في آسيا ، وبعد أن تمت أكبر محاولات
« التغريب » في المنطقة واعتبار ايران قطعة من أوروبا كما حاول اسماعيل
ذلك مع مصر في القرن الماضي . أصبحت الثورة أكبر مهدد لمصالح الغرب
في المنطقة ، وأصبحت قوتها في شعبها المسلح الذي ينزل الى الشوارع
بالملايين دفاعا عن الثورة ضد أعنى جيوش العالم ، وأصبحت أكبر
معاد للاستعمار والصهيونية ، تتجاوز في عدائها حتى الانظمة العربية
التي ورثت ثوراتنا العربية الاخيرة . كما أصبحت الثورة أكبر تحد
للغرب ، وأكبر مؤكد للهوية الاسلامية كهوية قومية ، وأكبر مثبت
الاستقلال الوطني ضد سياسة الاحلاف الغربية والانحياز للغرب . وليس
موضوع الرهائن ، في واقع الامر ، الا أحد مظاهر هذا التحدى ، ثورة
اسلامية في مواجهة أعنى قوى الطغيان ، ايران التي حاول الغرب أن
يجعلها جزءا منه في مواجهة الولايات المتحدة الامريكية التي طالما أذات
الشعوب والتي تقف الآن عاجزة أمام دولة صغيرة من دول العالم الثالث ،
فالطغيان يقف مسلوب الارادة أمام الحرية . ثورة تؤكد نفسها بعد أن
حاول الاستعمار الغاء هويتها . ويتحول الاذلال التاريخي للشعوب
المستعمرة الى اذلال تاريخي آخر للدول الاستعمارية . ولن تقبل الثورة
الايرانية بأقل من اعتراف رسمي من الولايات المتحدة بجرائمها ضد
ايران أثناء حكم الشاه بل وضد كل الشعوب التي أرادت الولايات
المتحدة اذلالها . وسيظل التحدى للغرب أحد العناصر الدائمة في الثورة
الايرانية مهما تغيرت صور الحكم . لقد كشفت الثورة الايرانية ، في
موضوع الرهائن ، عجز الغرب ، وعرته عن انسانيته المزيفة عندما ضحت

الولايات المتحدة بحليف الامس ، الشاه في مقابل القوى الثورية الجديدة من أجل احتوائها • وعندما أرادت تقديمه قربانا في مقابل خلاص الرهائن لولا أن فر الشاه بجلده الى حيث الدعة والاستكانة • فالانسانية الغربية تظهر فقط للمغربيين أما الشرقيون فلا انسانية معهم حتى ولو كانوا ملوكا وأباطرة • ان المغزى الحقيقي للثورة الايرانية في موضوع الرهائن هو تحدى الغرب ، وسر عدااء الغرب لها هو تحدى الثورة له ، وتحجيمه وحصاره وكشف عنصريته الدفينة حيث كان يظن أن العالم كله ميدان مفتوح ، يرتع فيه بلا حساب •

كما أظهرت الثورة الاسلامية الكبرى في ايران استقلالها عن الاتحاد السوفيتي الذي كان يعتبر الشاه أيضا صديقه في المنطقة وحليفا لها منافسا الولايات المتحدة في كسب وده و صداقته • والعمل في نهاية الامر لايهمه عميل من ، هذا أو ذاك • و عدااء الاتحاد السوفيتي المكتوم لها طبيعي • اذ أنها يمكن أن تكون محور جذب للمسلمين في الجمهوريات الاسلامية المجاورة في الاتحاد السوفيتي ، تحيي فيهم أمل تحويل الحضارة الاسلامية الى دولة اسلامية مستقلة ، والعواطف الدينية المكتومة التي تظهر في الشعائر والطقوس الى نظم سياسية علنية يجد المسلمون فيها عزتهم وكرامتهم واستقلالهم ، والانقطاع الحضاري الى اتصال تاريخي ، وبالتالي نتحقق الوحدة في شخصيتهم الوطنية ، ويكون ما في القلب على اللسان ، ويصبح ما بالداخل في الخارج ، ويتحول التمني الى واقع • وقد وقفت الثورة الاسلامية في ايران في وجه الغزو السوفيتي لشعب أفغانستان ، وتمد الثوار المسلمين بالسلاح ، بالرغم مما قد يثيره الاتحاد السوفيتي من قلق على الحدود الايرانية • ولكن الخطر المباشر من الاستعمار الغربي كان له مكان الصدارة على الخطر المفوف • وفي المثل ، عدو عاقل خير من صديق جاهل •

وقد استطاعت الثورة الايرانية اسقاط أعتى نظام دكتاتورى عرفه العالم ، وأكثر النظم تسلطا واعتمادا على الشرطة السرية ورجال الجيش وأجهزة المخابرات ، بعد أن أعقد عليهم الشاه من ثروة ايران كى يضمن ولاهم له . وما شهدته ايران فى ٥ يونيو ١٩٦٣ ، يوم الشهداء ، باستشهاد عشرات الآلاف تحت جنازير الدبابات ، وآلاف المعذبين ، ومئات الشهداء ، ودماء الطلاب والاساتذة على جدران الاروقة فى جامعة قم جعل فى قلب كل مسلم فى ايران وخارجه نأرا خاصا بينه وبين الشاه ، لوطنه ولامته ولدينه . ومن هنا أصبح الاسلام مرادفا للحرية ، فالاسلام والطغيان لا يلتقيان ، وتتحقق قولة عمر الذى يقول كثير من الحكام المسلمين أنهم يسيرون على خطاه موجها اياها لابن الاكرمين « لماذا استعبدتهم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

وقد تمثلت عناصر النجاح فى الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران فى ثلاث :

١ - قيادة حاسمة ممثلة فى الائمة بقيادة الامام الخمينى . لا تقبل المساومة أو انصاف الحلول ، وتقف فى مواجهة العروض الحقيقية والزائفة ، وتقاوم كافة الاعراءات . تثق الجماهير الاسلامية بها ، وتلهب خيال الشعوب الاسلامية فى كل مكان . تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ولا تخشى فى الله لومة لائم . وهى على اتصال وثيق بالجماهير الاسلامية فى الشوارع والازقة ، تقود جمافلها ، وتدافع عن مصالحها ، وتتكلم باسمها ، وتستشهد فى سبيلها . تعبر عن مصالح جماهير المسلمين ، ولا تتسكب منها أو تعيش على حسابها أو تخون القضية . تقف فى وجه التسلط والطغيان ، وتندى الطغاة ، وتفضح أفعالهم .

٢ — الاسلام كهوية قومية ، وشخصية وطنية ، وايدولوجية ثورية للشعوب الاسلامية . فالاسلام يعنى تأكيد الانا ضد الآخر ، واثبات الاصاله ضد الاغتراب ، وبلورة الذات ضد ذوبانها في شخصيات الآخرين . لقد استطاع الاسلام أن يحدث أكبر رد فعل على « التغريب » ، وأظهر نفسه وفكره في مقابل أيديولوجيات الغرب من رأسمالية وماركسية وليبرالية وقومية . وفي نفس الوقت يعبر عن تاريخ الامة وحضارتها وفكرها وقيمتها . حتى ولو ظهر الاسلام كلفظ أو شعار أو كهدف بلا مضمون اجتماعى وسياسى واقتصادى واضح فإنه يكون كطوق النجاة بالنسبة للامة الاسلامية في لحظة انتفاضتها ضد التميع والاعتراب . ثم يأتى بعد ذلك دور الفكر المسلم في صياغة الاسلام طبقا لحاجات الثورة وتحقيقا لمصالح الامة ، مع الجرأة في التشريع والثقة بالنفس (٣) .

٣ — الشعب باعتباره رصيد الثورة وقوتها ومادتها ، صاحب المصلحة الحقيقية في الثورة ، والقادر على النزول الى الشوارع والطرق ليس فقط لمدة يومين ، بعد أن تعجز الشرطة ينزل الجيش ، بل لعدة أشهر متتالية حتى استسلم جيش الشاه ، وسقطت شرطته السرية ، وتداعى ملكه من على عرش الطاووس . والشعب بجميع طبقاته وفئاته وعلى اختلاف مستويات تعليمه ، وبجميع اتجاهاته السياسية في جبهة وطنية واحدة تضمنها الثورة الاسلامية المرادفة للثورة الوطنية . والشعب مسلح

(٣) ومن هنا تأتى أهمية الكتابات الثورية لفكرى الثورة الايرانية وعلى رأسهم : على شريعتنى في الفلسفة ، والحسن بنى صدر في الاقتصاد . ومهدى بازركان في السياسة .

بقواه ، وحناجره ، وأبدانه ، وسواعده ، وكتله المتراسة ، وبطلقات
رصاصه يواجه العنف القهري بالعنف الثوري •

وهكذا نجحت الثورة الاسلامية الكبرى في ايران كما نجحت الثورة
الاسلامية الاولى في مواجهة الروم والفرس ، وضد طغيان أشراف مكة
ومشايق القبائل العربية : قيادة مؤمنة وطليلة ثورية ممثلة في الصحابة •
والتوحيد كعقيدة ثورية تحرر وجدان الافراد وتقضى على نظم التسلط
والطغان والمجتمعات الطبقيية من أجل تأسيس مجتمع اسلامى جديد
يقوم على الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية ، وجماهير المؤمنين
الغازية فى سبيل الله لتحقيق رسالة التوحيد والتي لا تعرف لها أسرة
أو محلا أو بقعة الاستشهاد وفى سبيل الله على أرض الله •

والنحمت الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران بحركات التحرر
الوطنى فى العالم الثالث وبالاتجاهات الثورية فى العالم كله ، وأصبحت
باسم الاسلام رصيذا لايتضب للثورة العالمية • لقد جددت شباب الثورة
فى كل مكان خاصة فى آسيا وفى العالم الاسلامى كله بعد أن خفت صوتها
باختفاء زعمائها الاوائل : نهرو ، وناصر ، ونكروما ، وسوكارنو ،
وشوين لاي ، ولومومبا ، وهوشى منه ، وخفت أصوات من تبقى منهم
مثل سكونورى وكاوندا أو انحاز البعض منهم مثل كاسترو وجوموكينياتا •
كما أكدت على الارادة الوطنية المستقلة ، وانضمت الى دول عدم
الانحياز ، وألهبت مشاعر ملايين المسلمين فى آسيا وأفريقيا كما ألهب
ناصر من قبل بتأميم قناة السويس فى ١٩٥٦ مشاعر الجماهير فى مصر
والعالم العربى ، وأصبح بعدها رمزا لحركات التحرر الوطنى ، وكما
ألهبت الوحدة مع سوريا وتكوين أولى محاولة وحدوية فى تاريخ العرب

الحديث « الجمهورية العربية المتحدة » في ١٩٥٨ مشاعر الامة العربية فتصورت انها قاب قوسين أو أدنى من الوحدة العربية الشاملة • كما ألهمت حرب اكتوبر ١٩٧٣ مشاعر الامة العربية في صراعها الابدى مع الصهيونية من أجل تحرير الاراضى العربية المحتلة • كانت الثورة الاسلامية الكبرى في ايران تحقيقا للصورة الوطنية التى بدأها مصدق فى ايران بتأميم البترول فى ١٩٥٣ ، والخمينى ما هو الا مصدق يبعث من جديد •

وقد التحمت الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران بوجه خاص بالثورة الفلسطينية ، واصبح الطريق الى القدس مارا بطهران • « ايران اليوم وغدا فلسطين » • توحدت الثورة الايرانية بقضية العرب الاولى ، وأرسلت متطوعين فى صفوف المقاومة ، وقضت على جحور الصهيونية بايران ، وصفت معابد البهائية التى كانت صهيونية مقنعة فى ثوب اسلامى ، وكرها للرئيسى فى حيفا ! وقد تجاوزت الثورة الايرانية بمراحل مشاريع الانظمة العربية بالنسبة لقضية فلسطين كلها من الصهيونية وعودة اراضى المسلمين الى المسلمين ، فالصراع بين الاسلام والصهيونية صراع عقائدى مبدئى لا مساومة عليه ولا تفريط فيه •

والثورة الايرانية بالنسبة لنا تجديد لشباب الثورات العربية الحديثة وبعث للناصرية على مستوى شعبى اسلامى • وقد كان ناصر على علاقة وثيقة بالخمينى منذ أوائل الستينات يؤيده ماديا ومعنويا • كما كانت المقاومة الفلسطينية على صلة وثيقة بالحركة الثورية الاسلاميه بايران فى السبعينيات • كانت ثورة الضباط الاحرار فى مصر فى يوليو ١٩٥٢ وحكومة مصدق الوطنية فى ١٩٥٣ أحد مظاهر الحركات الوطنية التحريرية فى العالم الثالث • فالثورة الاسلامية كالناصرية كلاهما

معاديان للاستعمار والهيمنة ، مدافعان عن الاستقلال الوطنى للشعوب ،
مناهضان للصهيونية ، يعملان لنيل حقوق شعب فلسطين • ولو لم ينشأ
الصراع على السلطة بين الثورة والاخوان ، ولو لم تنفصل الثورة فى اقامة
حزب طليعى جماهيرى يكون هو الضامن لاستمرار الثورة واييجاد
علاقة عضوية جوهرية بين الزعامة الثورية والجماهير أصحاب المصلحة
الحقيقية فى الثورة ، لما تعثرت ثم انتكست وتراجعت • والعجيب أن
الاستعمار يعلم ذلك ، يعلم أن الثورة الايرانية هى ظهور الثورات
العربية • لذلك حاول الايقاع بين الثورتين كما يحدث بشكل مؤسف بين
الثورة الايرانية وثورة يوليو - تموز ١٩٥٨ فى العراق بدعوى خلاف
على الحدود أو الجزر فى مدخل الخليج أو تسميته بالالفاظ العربى أم
الفارسى ! وكأنه فى كلتا الحالتين لا يقطنه المسلمون ، ولا ينتشر فوقه
الاسلام الذى وحد بين القوميات ، وصهر الشعوب ، وجعل الحسن أبا
للحسين • والحقيقة أن الخلاف بين الثورتين هو فى واقع الامر خلاف
على السلطة بين نظامين • اذ يخشى الحكم فى العراق من معارضة الشيعة
فيه بعد أن تم استقطابها نحو الثورة الايرانية خاصة وأن مشهد
والكوفة والنجف بمدارسها وحوزاتها وجامعاتها وأئمتها وطلابها رصيد
الاسلام فى ايران فيثير القلاقل أمام الثورة الايرانية ، واحدة بواحدة
وكان الاتفاق مع الشاه يصدد مشكلة الاكراد كان أيسر وأسهل من
الاتفاق مع الثورة الايرانية ، وكان الاتفاق على جبهة شمالية شرقية
تضم سوريا والعراق وايران فى مواجهة اسرائيل لايساوى شيئا !
وتخشى الثورات العربية برنامج الثورة الايرانية الذى تجاوز حدودها ،
وتمثل أقصى ما يطمناه المشروع القومى العربى بالنسبة لفلسطين • ولكن
حرصا على السلطة ، وبتأييد من الغرب تصورت الثورات العربية الثورة
الايرانية أنها ثورة قومية شوفينية تحتل الجزر العربية فى مدخل

الخليج ، لها أطماعها في الارض العربية على سواحل الخليج •
والايرانيون في الدول العربية المتاخمة يدينون بالولاء لايران وهم رهن
الاشارة • فكما يؤيد العرب الثورة العربية في عربستان تشير ايران
المقاتل في البلاد العربية حتى يتم تصدير الثورة الاسلامية في ايران في
كل مكان ابتداء من الجار • والحقيقة أن هذا الصراع المقتل بين القومية
العربية والقومية الايرانية من صنع الاستعمار الغربى ، وما نحن الا
ضحاياه عن وعى أو عن غير وعى ، حتى نحيل الانظار بعيدا عن الصراع
بين القومية العربية والصهيونية ، ونتجه بوعينا من الخطر العربى الى
خطر آخر متوهم من الشرق لا يأتى هذه المرة من الماركسية بل من
الاسلام الشيعى والقومية الايرانية ! ومع ذلك تظل الجماهير الاسلامية
في كل مكان خارج اللعبة السياسية • فالجزر هي مدخل الخليج لا هي
عربية ولا ايرانية بل جزر اسلامية • والخليج ليس عربيا أو فارسيا بل
خليج اسلامى • تقطنه شعوب اسلامية على صفتيه • وفي نهاية الامر
لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى • يكفيننا نحن العرب فخرا أن
اللغة العربية أصبحت معممة في جميع المدارس في ايران قبل اللغات
الاوربية • وأنها لغة العلم والدين ، ، يعرفها الائمة ويتخاطب بها
العلماء • ويكفيننا خجلا أن اللغة الفارسية لاتدرس لدينا الا في أقسام
متخصصة بالجامعات ، ولم تعد لغة العلم لدينا كما كانت عند علمائنا
وفلاسفتنا وأئمتنا وفقهائنا القديماء مثل ابن سينا والغزالي والرازى
وغيرهم • وأننا أصبحنا ضحية الاستعمار الغربى ، نعلم اللغات الاوربية
من انجليزية وفرنسية وألمانية وايطالية وأسبانية ولا نعلم لغات الامة
الاسلامية : الفارسية والتركية والاوردية ، ونصرخ كل يوم : تطبيق
الشريعة الاسلامية ، ونناضل كل سنة عندما نصوغ دستورا جديدا فنص
فيه على أن الاسلام هو الدين الرسمى للدولة ! ونُدافع عن الايمان

ونهاجم الكفر ، وندافع عن التراث ، ونهاجم المستورد في الفكر دون
البضاعة ، وندافع عن الاسلام على الطريقة الرأسمالية (٤) .

وقد حاولت أجهزة الاعلام في الغرب تشويه وجه الثورة الايرانية
والذي من منها ، وتطوعنا نحن أيضا للترويج لهذا التشويه على الرغم
منا ، فنحن أيضا ضحايا الاعلام الغربي والنظم الغربية . وبالرغم من
أن بعض هذه الانتقادات قد يكون لها ما يبررها موضوعيا الا أن
الموضوعية في الثورة تتوقف على وجهة نظر أصحاب المصلحة أو من وقع
عليهم الضرر قبل الثورة وبعدها ، ولما كان الغرب هو المضار كانت معظم
هذه الانتقادات من وجهة نظر غربية خالصة سواء من داخل الغرب أو
من النظم الموالية للغرب خارج الغرب . وأهم هذه الانتقادات هي أنها :

١ - ثورة دموية تبغى الانتقام وتقوم أجهزة الاعلام في الغرب
باحصاء القتلى كل يوم بالارقام على نحو تصاعدي وكأنها مباراة رياضية
يحل البشر فيها محل الاهداف . ولم يذكر أحد شهداء الشاه الذين بلغوا
الآلاف ، ولم يذكر أحد معذبي « السافاك » لان ذلك القتل والتعذيب كان
للوطنيين المناهضين للغرب يقبله العرب كجزء من الدفاع عن كيانه ،
مأساة دموية ، قسوة لايعرفها تسامح الاسلام . وهنا يظهر تسامح
الاسلام لانه في صالح الغرب ، ولم يظهر أيام الشاه الذي أمر بقتل
المعذبين أمام أسرهم . بل كانت قسوة الشاه وعنفه محل تأييد من الغرب
بانسم الاسلام أيضا المناهض للشيوعية . والقصاص جزء من الشريعة

(٤) انظر مقالنا : الاسلام على الطريقة الرأسمالية ، روز اليوسف ،

الاسلامية « ولكم فى القصاص حياة يا اولى الالباب » (٢ : ١٧٩)
وأىضا « كتب عليكم القصاص فى القتلى » (٢ : ١٧٨) •

٢ — قضاء غير عادل ، ومحاكمات سريعة تأخذ بالشبهات ، لا تتوفر فيها أدنى حقوق للمتهمين وضمانات المحاكمة العادلة وحق الدفاع عن النفس • وهو تصور غربى خالص لان جرائم القتل قد تظل فى قضاء الغرب عدة سنوات يصدر الحكم بعدها على القتلة بالبراءة نظرا لظروفهم النفسية أو الاجتماعية أو حالتهم العقلية أو رأى المظفين أو أخطاء شكلية فى صياغة القضية أو رشوة القضاء • ولكن القصاص فى الاسلام القائم على الشهداء العدول أو الاعتراف الصريح كما كان يحدث فى حالة رؤساء « السافاك » فى القرى والمدن عندما يتعرف عليهم المعذبون أو أقارب الشهداء أو عندما كانوا يعترفون بما ارتكبوه • القصاص فى الاسلام شريعة « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والانف بالانف ، والاذن بالاذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص » (٥ : ٤٥) • وعقوبة جريمة الفساد فى الارض منصوص عليها فى القرآن ومن أسس الفقه الجعفرى « أنما جزاء الذين يجاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزي فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » (٥ : ٣٣) • ولماذا يكون التعدى على حرمة الله حلالا والثأر لدين الله وتطبيق شريعته حراما ؟ •

٣ — تخلف وتقهقر ، وحجاب للنساء ، ورجم للزانى والزانية ، وتحريم للخمر ، وغلق للملاهى ، وتحريم لنوادى القمار • وهو أىضا منظور غربى خالص • « فالشادور » لباس وطنى مثل قبعة الاوربى ، وطربوش التركى ، وطاقية المصرى ، وعمامة رجل الدين ، وقبعة المكسيكى

والمفيتنمى التى تمثل ثورات الفلاحين هناك • لا يدل « الشادور » اذن على حجاب المرأة بقدر مايدل على وطنيتها • أما الحدود الاسلامية فليس الهدف منها العقوبة والزجر والكبت والتزمت وضيق الافئد بل الهدف منها فى ايران القضاء على مظاهر « التغريب » فى الحياة القومية • فقد كان الاوربيون هم رواد النوادى الليلية واللاعبون على موائد القمار ، والذين يروجون لبضاعة الجنس كما كانت هافانا قبل الثورة الكوبية • أن تأكيد الهوية الاسلامية قد يسهل بالمظاهر والشعائر والحدود ولكن الى حين • ثم تتحول الحدود الى حقوق وولايات ، وتتحول المظاهر الى نظم وأوضاع اجتماعية ومذاهب اقتصادية (ه) •

٤ — حكم الائمة ، ثيوقراطية ، خلط بين الدين والسياسة ، حكم رجال الدين ، سلطة العمائم ، كل ذلك قد عفا عليه الزمن اذ لا يمكن الجمع بين السلطتين الروحية والزمنية • فالدين دين والسياسة سياسة ، ورجال الدين للمعابد والكنائس والمساجد ، ورجال السياسة للوزارة والحكم والمجالس • وهذا أيضا اسقاط من تاريخ الغرب على الامة الاسلامية بعد أن حكمت الكنيسة الغرب فقهرت وتسلطت ، ومنحت صكوك الغفران ، وأقامت محاكم التفتيش ، وأحرقت المفكرين ، وأقامت المذابح للفرق المعارضة حتى انتصر المفكرون والعلماء عليها • وقامت الثورات الشعبية تضع نهاية لحكم الكهنوت ، وتقيم العلمانية فى مقابل الكهنوت • ولكن فى الامة الاسلامية الحكم للشريعة الاسلامية الوضعية وليس لشخص الله أو لمن يتمثله ويدعى أنه ظله فى الارض • والشريعة الاسلامية تقوم على المحافظة على الدين والعقل والنفس والعرض والمال

أى على أسس وضعية للدفاع عن مقومات الحياة المادية والمعنوية .
ويقوم فقهاء الامة بالامانة على تنفيذها ، يأمرون بالمعروف وينهون عن
المنكر . يعزلون الحاكم اذا خالف الشريعة أو اذا ما تهاون في تطبيقها .
ليس فى الاسلام حكم للعوائم بل الحكم للشريعة التى ترعى مصالح
المسلمين .

٥ - تضارب فى السلطات ، حكومة ضعيفة ، أمام يوجه دفعة الحكم
من وراء ستار ، طلبة يسيطرون على الشارع الايرانى ، شعب يخرج
بالآلاف فلا أحد يعرف من بيده الامر . أما تعدد الاتجاهات فى الغرب ،
والصراع حول السلطة من الاحزاب ودور أجهزة الاعلام فى النقد
والمعارضة فذاك فى رأى الغرب مظهر من مظاهر الديمقراطية الغربية التى
ينفرد بها الغرب دون أحد سواه . والحقيقة أن الثورة الاسلامية الكبرى
فى ايران مازالت فى حالة الثورة ولم تتحول بعد الى دولة . وفى أعمار
الثورات ، الفرنسية أو البلشفية ، يعد عام ونصف منذ نجاح الثورة
الايرانية عمر قصير للغاية كى يتم هذا التحول من الوجدان الثورى الى
النظام الثورى . مازال الشعب الايرانى فى حالة ثورة : الطلبة ،
والجامعة ، والجيش ، والائمة ، والشارع . وكلهم قد ساهموا فى الثورة
فالمكل صاحبها ، والمكل ولى الامر عليها ، والمكل يتحدث بأسمها . لذلك
لا توجد سلطة مركزية أو مؤسسات دستورية باستثناء توجيهات قائد
الثورة للوجدان الثورى . قد يستمر ذلك الى حين تتفجر عواطف الجيل
المكبوت أيام حكم الشاه . والوجدان الثورى ليس فوضى قانونية بل
شرط للمخلق والابداع ولابقاء الثورة فى الحياة اليومية وليس فقط فى
الزعامة الثورية فى بحر ساكن من جماهير مستكينه .

٦ - فاذا فعلت الثورة لمشاكل البطالة والفقر ؟ ماذا قررت لتغيير

هيكل النظام الاجتماعي ولاء إعادة بناء الدولة لصالح الاغلبية ؟ ثورة تشغل نفسها بلا شيء باستثناء رذاذ الثورة دون مضمونها ، بذاتية الثورة دون موضوعيتها • ومن ثم لن تأمن خطر الانقلابات والتصفيات ، وتفكك الجبهة الوطنية فيها ، وانحسار التيارات السياسية عنها • والحقيقة أن الثورة مازالت تعطى الاولوية لتأكيد الذات ، واثبات الشخصية ، وأن الاسلام هو ثورة الفقراء والمظلومين (٦) • وما زال هؤلاء يؤكدون ذواتهم سياسيا بالسيطرة على الشارع الايرانى قبل أن يثبتون ذواتهم اقتصاديا بتخطيط الاقتصاد القومى لصالحهم • والاشباع السياسى لدى الطبقات المحرومة يسبق الاشباع الاقتصادى • لذلك كانت الاولوية للسياسة فى البلاد النامية كما حدث فى ثورة الصين • فالحرمان السياسى أتمد وأقصى على الشعوب من الحرمان الاقتصادى • لذلك تسبق الحرية الخبز • وفى مثلنا العامى « لاقينى ولا تغدينى » •

٧ - وقد أزدنا نحن فى أجهزة اعلامنا الحملة على الثورة الايرانية متكاتفين مع أجهزة الاعلام فى المغرب عن علم أو جهل ، عن قصد أو غير قصد ، بحسن نية أو بسوء نية وقلنا : كفر الشيعة ، ألوهية وأمامة ، أمامة ونبوذة ، انتظار وغيبة • لقد جعل الخمينى نفسه المهدي المنتظر ، وادعى أن النبوة ناقصة ، وأن الامامة تكملها ، ونحن نصب النبى والصلاة على النبى ، والرسول خاتم الانبياء والمرسلين • فتأنف الجماهير من الثورة الاسلامية وتكفر دعائها • وكان سلاح التكفير دائما عند القدماء والمحدثين هو أقوى سلاح ضد الخصوم السياسيين لحصار المعارضة وتجريحها أمام جماهير المسلمين • مع أن فكر الامام الخمينى أقرب الى

فكر أهل السنة • فالائمة لديه هم فقهاء الامة وأمناء الرسل ، لا يقول بما تقول به غلاة الشيعة ، ويعلن ظهور الامام الآن ، وينهى الغيبة كما طالب ابن تيمية • وعقائد الشيعة ليست بالجديدة ، قتلها علماء الفرق بحثا ، وموجودة في بطون الكتب كما نقلها علماء أهل السنة • والمحك بالنسبة لنا هو قدرة العقائد على تحريك الجماهير ودفعها الى استرداد حقوقها • وقد تمت صياغة عقائد الشيعة كعقائد للمعارضة في مواجهة عقائد أهل السنة كعقائد للدولة الرسمية • ونحن في عصر تجمع فيه عناصر الامة وتحقق وحدتها • لايهمنا « الفرق بين الفرق » بل « الجمع بين الفرق » • وكل من يبعث الفرقة في الامة يلعب لعبة الاستعمار القديمة « فرق تسد » • « ان هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » (٢١ : ٩٢) •

وهذا لا يعنى أن هناك مخاطر خارجية وداخلية أمام الثورة الاسلامية الكبرى في ايران • ولكن الثورة بعد عام ونصف من نجاحها قادرة على تخطيها ، يكفى صمودها في مواجهة مؤامرات الغرب والشرق • وأهم هذه المخاطر :

١ - مؤامرات الشرق والغرب والصهيونية على الثورة • فقد أتت الثورة لوضع حد للهيمنة الشرقية وللإستعمار الغربى ولتغلغل الصهيونية في العالم الاسلامى • ولن يتركها هذا الاضطبوط المثلث حتى ينهى الثورة • وعملاؤه بالداخل رهن الاشارة ينتظرون البدء للقضاء على الثورة • لن يسمح الاتحاد السوفيتى أن تكون الثورة الاسلامية في ايران نقطة جذب للمسلمين فيه ، ومعادية للماركسية بالداخل • ولن يسمح الإستعمار الغربى بهذا التحدى الدائم الذى تمثله الثورة بالنسبة له ، خاصة وأنه قائم على اسطورة التفوق العنصرى والاقتصادى والحضارى • ولن تسمح الصهيونية بأن تكون الثورة الايرانية ظهيرا

للثورة العربية تقضى على التغلغل الصهيونى فى آسيا وتبعث الامل فى الامة الاسلامية لتحرير فلسطين ، وتضع كل امكانياتها البشرية والمادية تحت تصرف منظمة تحرير فلسطين •

٢ — الاستسلام لمؤتمرات الاستعمار للوقعية بين الثورة الايرانية والثورة العربية سواء فى معارك الحيدود مع العراق أو فى الخلاف فى وجهات النظر مع مصر أو فى خوف أنظمة الخليج من أن تكون الثورة الايرانية مركز جذب للشعوب الاسلامية الايرانية والعربية فى دول الخليج • الثورة الاسلامية واحدة ، ونحن مسلمون • وقد أضرت القوميات بنا حتى تنازع المصرى والشامى ، والعراقى والشامى ، والمصرى والليبي ، والجزائرى والمغربى ، واليمنى والحجازى حتى تفتتت الوحدة الاسلامية بالعودة الى الشعوبية القديمة والجاهلية القبلية والطائفية الجديدة حتى تذهب شوكة الامة الممثلة فى وحدتها وقوتها • وكان الكواكبي فى « أم القرى » كان على علم مسبق بما يحدث الآن • فوصفهم جميعا فى مؤتمر لدراسة أسباب ضياع وحدة المسلمين ووسائل استعادة وحدتهم وقوتهم • يريد الاستعمار تحويل المنطقة كلها الى دويلات طوائف أو الى قوميات وشعوبيات وهو يكتل نفسه فى احواف وشركات ومناطق نفوذ ومعسكرات وكان القرآن لم ينبئه قائلاً « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » (٨ : ٤٦) •

٣ — الصراع على السلطة أو الانفراد بها وضعف المؤسسات ، وتضارب قراراتها • فكل فرد صاحب الثورة لانه شارك فيها وصنعها وبالتالي فهو وريثها • صحيح أن الخلاف بين الائمة رحمة بينهم ولكن صحيح أيضا أن اجماع المسلمين تعبير عن وحدتهم وقوتهم ، والانصياع

الى رأى واحد بعد المشورة يعطى الامة المقدرة على أخذ القرار وتنفيذه *
ويمكن درء هذا الخطر عن طريق الاسراع فى تحويل الثورة الى دولة ،
وبناء المؤسسات ، وبقاء الائمة فى دور الحارسين للثورة ، فقهاء الامة ،
القائمين بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقوم الدولة أى السلطة
التنفيذية باقامة الشريعة ، وتطبيق الحدود ، واعادة تنظيم الدولة ، واقامة
النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى * ان بناء الدولة فى الاسلام
هو تحقيق لخلافة الله فى الارض التى عينها الله لآدم « واذ قال ربك
للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة » (٢ : ٣٠) *

٤ - لقد استطاع الفكر الاسلامى الثورى الذى مثلته الحركة
الثورية الاسلامية فى ايران أن يبرز للعالم أجمع الاسلام كثورة * وكان
فى مقدمة علماء المسلمين الشهيد على شريعته وكتاباته حول « بناء الذات
الثورية » ومحاولات الحسن بنى صدر فى الاقتصاد بالاضافة الى
مجهودات الائمة وعلى رأسهم الامام الخمينى (٧) * ولكن مازال الفكر
الاسلامى الثورى فى حاجة الى مزيد من الاحكام سواء فيما يتعلق بعقائد
الشيعة أو بعقائد السنة * مازال فى حاجة الى جرأة أكثر على إعادة
الصياغة وتخليص العقائد من معاركها القديمة سواء لدى الشيعة بالتنزيه
والتشبيه أو الحلول والاتحاد أو الغيبة والتقية أو لدى أهل السنة فيما
يتعلق بالذات والصفات ، والجبر والاختيار ، والقدم والحدوث ، والنبوة
والمعصية * مازال الفكر الاسلامى الثورى فى حاجة الى الخروج من
نطاق الايمان والانفعال والوجدان الى نطاق الموضوع والمجتمع والدولة،

(٧) د. ابراهيم دسوقي شتا : الثورة الايرانية والجدور الاستراتيجية،

واعادة الربط بين الله والارض كما هو موجود في القرآن الكريم في « الله السموات والارض » ، وبين الايمان والتقدم « لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » (٧٤ : ٣٧) ، واعادة بناء علم العقائد على أنه علم الثورة • فقد انتصر التوحيد كما صاغه القدماء على التشبيهي والتجسيم والشرك والكفر ، وما زال ينتظر انتصارا ثانيا لدى المحدثين على الظلم والتسلط والمطغيان في حياة المسلمين والفساد والاستغلال والاحتكار والسلب والنهب لثروات المسلمين •

٥ - استمرار الوجدان الثوري أطول من اللازم واستغراقه زمنا أطول قبل أن يتحول الى نظام ثوري يجعل الناس في انتظار الانجازات الثورية • فاذا لم تحدث انصرفوا عن الثورة بعد طول انتظار • ولذلك كان السؤال : ماذا حدث بعد الثورة ؟ وهل يكفي تأميم للبنوك ؟ أين قوانين الاصلاح الزراعي ؟ أين ملكية الارض للفلاحين ، والمصانع للعمال ؟ أين سياسة الاجور بحيث يكون العمل وحده مصدر القيمة ؟ أين المجتمع الاسلامي اللاطبقي ، حيث يعيش فيه الناس جميعا سواء أمام الله واحد ؟ أين اعادة توزيع الثروات ؟ ان التحدي الاعظم أمام الثورة الايرانية هو أن يتحول الوجدان الثوري الى واقع ثوري ، في الارض وفي المجتمع : القضاء على الفقر والتخلف والبطالة والامية ، وتعبيد الطرق ، وشق القنوات ، وبناء المصانع والمستشفيات والمدارس أي تحويل الثورة الى دولة كما فعل لينين وعمر بن الخطاب وماوتسي تونج • ان معوقات الثورة لا ينبغي لها أن توقف الثورة أو أن تمنعها عن التقدم • فطريق الثورة ليس الى الخلف بل الى الامام •

٦ - مواجهة قضية القوميات بالعنف والقهر وباستعمال القسوة

المسلحة والصراع بين القومية الكبرى والقوميات الصغرى • وقد حل
الاسلام مشكلة القوميات بأن جعل كل شعب أمة داخل الامة الاسلامية •
فلكل قومية لغتها وآدابها وعاداتها وتقاليدها داخل الامة الاسلامية
الواحدة التي تحكمها شريعة اسلامية واحدة • وقد كان ميثاق المدينة
النموذج الاول لهذه الامة • اليهود أمة ، والنصارى أمة ، والمجوس أمة
عند فقهاء المسلمين ، لكل منهم كتابهم ، يحكمون به ، ويعيشون في أمن
الامة الاسلامية • « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم
شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم
خبير » • (٤٩ : ١٣) • وطالما ظل المسلمون ضحية الاستعمار الثقافي
والنفسى والحضارى والغربى ولم يتخلوا عن أشر النعرات القومية
الغربية فستظل الامة الاسلامية في شعورهم الباطن دون أن تخرج
لتكسر حصار الطوق •

٧ - تأخير العفو العام ، والاستمرار في العقاب • صحيح أن الله
أمرنا بالألا تأخذنا رافة في دين الله « ولا تأخذكم بهما رافة في دين الله »
(٢٤ : ٢) • الا أن حكم الشاه والثورة الاسلامية مثل الجاهلية
والاسلام • فالاسلام يجب ما قبله « عفا الله عما سلف » (٥ : ٩٥) •
ولقد عفا الرسول عن قريش بعد عام الفتح بقوله المشهور « اذهبوا
فأنتم الطلقاء » • ومن ثم أن الاوان للثورة الايرانية باعلان نهاية
القصاص والعفو العام ، بالاضافة الى الحذر الشديد حتى لا تتجمع
الجاهلية من جديد • وعلى هذا النحو يمكن للثورة أن تتوجه بقواها
نحو البناء وأن يتحول أعداء الامس الى أصدقاء اليوم • فنحن في نهاية
الامر جميعا مسلمون فرقتنا الاستعمار وأوقع بيننا العدواة والبغضاء •
وعلى هذا النحو أيضا يخف من أعداء الثورة غلواؤهم ، ولا يجدون

ما يبالغون منها ، وتجلو صورة الثورة في الرأى العام العالمى وتصبح برافة كما كانت بعد انتصارها ، نموذجا للثورات الاسلاميه التقدميه ، تجذب المسلمين من بقاع الارض ولا يرهبها الناس ، وتتال احترام الامم كلها ، وتكون عنوانا للاسلام الكامل ، وتحقيقا لمثلنا المشهور « العفو عند المقدرة » • وتتجه قوى الثورة للتشييد والبناء والى تحقيق مطالب الامة فى القضاء على جميع مظاهر التسلط والتخلف والطغيان واعادة توزيع ثروات الامة ، وتحرير اراضى المسلمين وفى مقدمتها فلسطين •

• ثالثا : النخبة الثورية (أفغانستان) •

لقد فرح المسلمون جميعا منذ عدة سنوات عندما انقلب داوود على ابن عمه الملك ، فالملكية نظام لا اسلامى • ولكن سرعان ما طغى وتكبر وأصبح أكثر ملكية من الملك السابق • اضطود الثوار ، وقتل زعماءهم ، وأرسخ الاقطاع ، ودعم الفقر ، واشتد البلاء بالناس •

وفرح الناس المسلمون مرة أخرى عندما سمعوا بأخبار الثورة ضد داوود والانقلاب عليه بعد عودته من مصر بأيام • وسمعوا عن نور الدين تراقى ثائرا مسلما فى نفس الوقت الذى بدأ العالم أجمع يشعر بنهضة الاسلام وبثورة المسلمين ، وكان دعوة الافغانى لتثوير العالم الاسلامى آتت أكلها بعد مائة عام • ثم سرعان ما تواردت الانباء عن الثوار المسلمين فى الجبال يقاومون النظام الماركسى الجديد فى كابول • وماذا كان الثوار الاوائل اذن الذين انقلبوا على داوود ؟ ألم يكونوا ثوارا مسلمين ؟ واشتدت المعارك ، وتناقلت الانباء أخبار القتال ، ولم يدر المسلمون من الثوار ومن المسلمون ومن الثوار المسلمون ومن المسلمون الثوار ؟

وفرّح المسلمون مرة ثالثة عندما علموا بانقلاب النظام الماركسى بكابول وظنوا أن الثوار المسلمين بالجبال قد استطاعوا القضاء على نظام نور الدين تراقى ، ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل بعد ذلك عندما علموا أنها كانت ثورة قصر ، وأن جناحاً ماركسياً بقيادة حفيظ الله أمين قد قام بانقلاب ضد الجناح الماركسى القائم ، وأنها نخبة ثورية قد قامت ضد نخبة ثورية أخرى ، وأن حزب « خلق » أى حزب الشعب استأثر بالنخبة كلها وتخلّى عن الوحدة الوطنية للثوار التى كان يريدّها تراقى فكان جزاءه الخنق باليدين فى انقلاب القصر •

وأخيراً فهم المسلمون كل شىء أو كادوا بعد الاطاحة بحفيظ الله أمين بعد أن رشق الرصاص جسده متدحرجاً على سلم « قصر الشعب » فانتهى الرفيق ، وتنصيب بابر كاركاميل بديلاً عنه ، واحلال حزب برشام (الراية) محل حزب (خلق) على أسنة الرماح السوفيتية وعلى صوت جنازير دباباتهم ، قادمًا من تشيكوسلوفاكيا ، من سفير الى رئيس جمهورية • وبدأت حرب الابداء ضد الثوار المسلمين ، وبدأ الحكيم السوفيتى المباشر لافغانستان أمام العالم الاسلامى أجمع بين مؤيد للتدخل وهى الاقلية التى تنسى وحدة الامة الاسلامية تاريخاً وحضارة أمام عالمية المذهب السياسى بلا جذور أو تاريخ ، وبين معارض وهى الاغلبية التى تقع أيضاً فى صف المعسكر الغربى وتنسق معه كى تقبض الثمن أو حتى لا تصل اليها الثورات الاشتراكية • وتتم مناهضة التدخل بالفعل عن طريق المساعدات العسكرية للثوار (مصر ، باكستان ، ايران) أو عن طريق مجرد الكلمات والنوايا الطيبة والدعاء بالنصر مثل منظم الدول الاسلامية •

وليس الامر قضية شكلية : هل وقع التدخل السوفيتى بناء على

الدعوة الرسمية من الحكومة الشرعية القائمة ، حكومة حفيظ الله أمين أو أن تلك هي الحجة المقدمة دائما لتبرير التدخل ؟ وكيف تدعو حكومة تدخلها ينتقل عليها ويكون رئيسه أول الضحايا ؟ وكيف تتقلب قنوات الغزو على حكومة بدل أن تناصرهما ؟ وكيف يتم الانقلاب على رئيس دولة حليف لقوات الغزاة ولا يتصور أنه قادر على ادارة دقة البلاد في غيبة السفير السوفيتي مدة خمسة عشر يوما فترة انتقال بين السفير السابق والسفير الملاحق ؟ وماذا نفع اذا دعت النظم العميلة للغرب في عالمنا الاسلامي الدول الغربية للتدخل ضد الثورة الوطنية لشعبها ؟ أكان سماعون اذن على حق دعوته القوات الامريكية للتدخل انقاذا له من الثورة الوطنية في لبنان ؟ أكان حاكم الاردن اذن على حق في دعوته للقوات البريطانية للتدخل في الاردن أثر ثورة تموز في العراق في ١٩٥٨ ؟ أكانت القوات الامريكية على حق اذن في تدخلها في فيتنام وسان دومنجو وتصبح سياسة الاساطيل عبر البحار ، والقواعد العسكرية حينئذ سياسة مشروعة في انتظار اشارة الحكومات بالتدخل لافرق في ذلك بين شرق وغرب ؟ وفي كلتا الحالتين تكون الانظمة قد فقدت شرعيتها الداخلية وتأبيدها الشعبي وتكون عميلة للاجنبي ، موالية له ضد مصالح الشعوب .

وإذا كانت عناصر النجاح في الثورة الايرانية ثلاث : قيادة الائمة ، الاسلام كأيدولوجية ثورية شعبية ، وجماهير مجندة ومسلحة فإن غياب هذه العناصر الثلاث بعينها هي سبب تعثر الثورة الافغانية .

فقد درست النخبة الثورية في الغرب ، وتعلمت الماركسية في أمريكا . وما أسهل أن يتم ذلك في الغرب نظرا لتشويح الكتابات الماركسية ، ووجود الطقات والاحزاب والدوائر الماركسية فأصبحت ثورية على الطريقة الماركسية الغربية . وعادات الى البلاد تنظيم صفوف

المعارضة • ولما كان الخلاف العقائدي أهم ما يميز الماركسية الغربية أو الشرقية كما هو الحال في النزاع الصيني السوفيتي أو النزاع اليوغسلافي السوفيتي أو في الخلاف بين ماركسيات القرن العشرين ، الايطالية والفرنسية والالمانية ، ونظرا للتطلع الى الزعامة في البلاد النامية فقد ظهر هذا الخلاف في النخبة الثورية في أفغانستان بين حزبي « خلق » (الشعب) و « برشام » (البراية) نظر لغياب أية وحدة وطنية بينهما وأي اتفاق على حد أدنى من البرامج الوطنية وانتخاب القيادات انتخابا مباشرا من الشعب • فوُجعت الحرب بينهما كما وقعت أيام الجاهلية الاولى بين القبائل والعشائر ، كل منها يرى أنه أحق بالقيادة الثورية وكأن الثورة ملك لاحد ، وكأنها لصالح احدي فصائل القيادة وليست لصالح مجمرع الشعب • فما كان أسهل من انقلابات القصور • مات الملك يحيى الملك • اذ يكفى عشر دبابات • اثنتان منها تحيطان بقصر الشعب في كابول ، واثنتان منها في حي الوزارات واثنتان على مدخل العاصمة ، واثنتان على مداخل جلال آباد حتى يمكن بها السيطرة على المدن الكبرى •

ولما كانت هذه النخبة الثورية بجميع فصائلها غير نابعة من الشعب ، من تراثه وحضارته وتاريخه ، بحثت عن سند خارجي تجد فيه التأييد ، وفي مقابل ذلك تدين له بالولاء • يدفعها لذلك ثقافتها الماركسية الغربية • فوجدت الاتحاد السوفيتي ، الجار الثوري ، محقق ثورة أكتوبر الاشتراكية • وبدل أن يكون التعامل معه المند للند ، والحليف للحليف ، والصديق للصديق ، بصرف النظر عن ميزان القوى بين الدولتين ، أصبحت الكفتان غير متعادلتين فكانت الصلة بينهما صلة الأمر بالمأمور ، السيد بالعبد ، الدولة الكبرى بالدولة الصغرى ، المركز بالمحور ، الموصى

على الموصى عليه ! (٨) وأصبحت الثورة الافغانية « انقلاب ثور » كما يقول قادتها ، « الابنة الشرعية » لثورة اكتوبر . فضاع الاستقلال الوطنى للبلاد . مع أن الثورة الفيتنامية ذاتها قد قامت على الشعار المحفور تحت تمثال هوشى منه فى مدينة هوشى منه « ليس هناك أعز على الشعوب من الاستقلال الوطنى » . ولا توجد ثورة بنت ثورة أو أخت ثورة أو أم ثورة . بل الثورات كلها على قدم المساواة ، تتبع من الأرادة الوطنية المستقلة للشعوب ، تتقابل على طريق واحد على قدم المساواة ولا تتوالد من ثورة أم . وكان للخبراء السوفيت الذين يقومون ببناء سد خيبر على نهر خيبر مركز الصدارة فى الدعوات ، نجوم فى المدينة ، تفخر بضوئها . ينافسون الأمة الاسلامية فى المساعدة وتقديم العون ، ونحن نشعر بالغيرة ثم بالحصرة على أننا لا نستطيع أن نمد اليهم أيضا نفس العون . أهلنا يعاونهم الغرباء ونحن عاجزون عن معاونة حتى أنفسنا .

وكانت الايديولوجية السائدة الماركسية اللينينية . وكانت الشعارات كلها مستمدة منها تؤكد انتصار البروليتاريا الدولية فى بلد أمى لم يسمع عن البروليتاريا ، ومنعزل لايعرف عن العالم الخارجى شيئا . وكانت الشعارات تؤكد ضرورة الصراع الطبقي لدى شعب لا يوجد

(٨) فى دعوة على الغذاء على مائدة حفيظ الله أمين فى قصر الشعب لاعضاء الهيئة التأسيسية لوضع الدستور وأعضاء وفد منظمة تضامن الشعوب الآسيوية والافريقية سأل حفيظ الله أمين السفير السوفيتى بوزانوف : متى سترحل ؟ فأجاب بعد غد . فسأل أمين من جديد : متى ستهانى السفير الجديد تابيف ؟ فأجاب بعد عشرة أيام . وهنا أنزعج حفيظ الله أمين قائلا : وهل ستتركونا بلا سفير لمدة عشرة أيام !

لديه وعى طبقي • كانت الماركسية لدى القادة بسيطة سطحية مدرسية
ساذجة مثل القرآن المحفوظ بلا فهم بحيث طغى التخلف
على الماركسية وابتعلها ، فاستمر التخلف في ثوب ماركسي •
فالماركسية لديهم ثلاثة أشياء : المادية الجدلية ، والصراع
الطبقي ، ودكتاتورية البروليتاريا ، ولا يكون الانسان
ماركسيا الا اذا آمن بهذه العناصر الثلاث ! وكيف يتم الايمان بالمادية
الجدلية في مجتمع توجهه الاسطورة والرمز ، ويسوده السحر والخرافة ،
ويوجه الدين تصورات العالم ؟ وكيف يتم الايمان بالصراع الطبقي في
مجتمع تغلب عليه فكرة وحدة الامة والعروة الوثقى ؟ وكيف يتم الايمان
بدكتاتورية البروليتاريا والبروليتاريا نفسها لا وجود لها والموجود
هو فقط دكتاتورية النخبة الثورية أو بالاحرى أحد أجنحتها ؟ ولا يدخل
الحزب الا من كان ماركسيا وبالتالي تم استبعاد كل الوطنيين من العمل
السياسي والمشاركة في بناء الدولة والحفاظ على الثورة • حتى أبسط
الامور كانت مستمدة من ماركس ولينين • فاذا ما دعت النخبة الثورية
الشعب الى العمل استشهدت بأقوال « لينين العظيم » وكأن « وقل
اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » (٩ : ١٥) ليست في
وجدان الناس •

• وكانت النخبة الثورية تتصور الدين كالاتي (٩) •

١ - ان الدين تربية شخصية في الاسرة ، ينشأ عليها الفرد ، شاهدا
أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، مصليا ، صائما ، مزكيا ، حاجا
لو استطاع الى ذلك سبيلا • ومن ثم فالنخبة الثورية مسلمة بهذا المعنى ،

(٩) تم ذلك في مناقشات مع حفيظ الله أمين وباقي أعضاء النخبة
الثورية الحاكمة .

م ٣ - الحركات الدينية المعاصرة

ولا حرج بعد ذلك من أن يتبنى الماركسية الغربية كإطار نظري أو كبرنامج للعمل الثوري ، فهو مسلم بالشريعة ، وماركسي بالتكوين • وفي نهاية الأمر الدين لله والوطن للحزب ! وفي ذلك مقتل للإسلام وتحويله إلى مسيحية وكهنوت ، وطقوس وشعائر • والإسلام دين ودولة ، له نظامه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والقانوني • والمسلم الماركسي بهذا المعنى الماركسي المضمون مسلم الشكل •

٢ - ان الدين بأفغانستان بخير • هناك قرآن في الصباح وقرآن في المساء ، في أذاعة كابول ، والبرامج الدينية منتشرة ، والمساجد تسم طلاؤها ، ورفعت مرتبات رجال الدين ، وكأن الدين سلعة تجارية أو متاحف أو طقوس • ولا حرج في أن تبقى الشعوب فقيرة جاهلة ، وأن يكون نظام الدولة علمانيا ، ماركسيا غربيا • فالدين مؤسسة ترعاها الدولة • وفي ذلك أيضا مقتل للإسلام • فالإسلام ليس متحفا للإسلام بل هو حياة الناس ونظامهم ومجتمعهم ودولتهم •

٣ - وأكثر من ذلك ، يكون الدين في رأى النخبة الثورية « أفيون الشعب » كما هو في النظرية المحفوظة ، مخدرا للجماهير ، يتم به خداع الناس • والنخبة الثورية لا تريد خداع الشعب بعد الآن • أما الإسلام كثورة ضد العبودية والاضطهاد وكنظام اجتماعي يقوم على المساواة والعدالة الاجتماعية فذاك غير معروف ، ولم يتبادر إلى الأذهان ، ولم تسمع به النخبة الثورية قبل ذلك ، ولم تدر أن الماركسية اللينينية تد حركت صفوة المجتمع وعزلتهم عن غالبية الشعب الذي ظل تحت أثر الأفيون • وأن الأولى كان تحويل الأفيون إلى منبنة حتى تستيقظ الجماهير وتأخذ مصائرهما بأيديها دون وصاية عليها من النخبة الثورية •

٤ - ان الدين أيديولوجية غير علمية لا تستطيع أن تصمد في

مواجهة التحليل العلمى للواقع والتحليل الاجتماعى لحياة الناس • وهو موقف الماركسية الوضعية فى القرن التاسع عشر الاوروبى والذى تجاوزته ماركسية القرن العشرين ذاتها التى تعتبر الدين حركة ثورية للشعوب المضطهدة وصرخة المضطهدين للطبقات المحرومة • وقد استطاع الدين أن يكون حركات تحرر وطنى فى جنوب افريقيا وفى فيتنام وفى الصين وفى الجزائر وفى أمريكا اللاتينية (١٠) • وماذا عن عقلانية الاسلام التى بدت فى الفلسفة وفى الاعتزال وواقعيتها التى بدت فى علم أصول الفقه ؟ أن الاسلام فى حقيقة الامر دين بمعنى خاص ، وليس بالمعنى الغربى أى مجموعة من الاساطير والخرفات والعقائد التى يصفها العلم وتعوق التقدم • الاسلام دين يقوم على العقل ويهتم على البرهان ، ويعترف بجمتية قوانين الطبيعة ، ويجعل الحس والمشاهدة والتجربة مصادرا للمعرفة بالاضافة الى العقل كمقياس لصدق الوحي • ويؤسس حياة الناس فى نظام اجتماعى محدد على ما هو معروف فى كتب الفقه الاسلامى وفى النظم الاسلامية •

هـ — اذلك هناك فصل بين الدين والدولة • الدين ميدانه المسجد ، والدولة ميدانها النظم السياسية • الدين حياة شخصية للافراد ، والدولة حياة عامة للمجتمعات • وعلى هذا النحو يتم القضاء على الاسلام ويتحول الى مسيحية أو بوذية فى حين أنه لا رهبانية فى الاسلام • يتحول الاسلام الى عبادات فقط دون معاملات ، والى علاقة ميتة بين الانسان وربه وليس علاقة حية بين الانسان ومجتمعه • وهو التصور

(١٠) انظر مثالنا : كاميلوتوريز ، القديس الفائر ، قضايا معاصرة (١) فى فكرنا العربى المعاصر ص ٢٨١ — ٣١٨ دار الفكر العربى ، القاهرة . ١٩٧٦ .

العربى الذى حدث نتيجة للصراع بين الكنيسة والدولة فى الغرب عندما تسلطت الكنيسة فقتضت على حرية الفكر ، وأرسخت نظام الاقطاع فاندفع المفكرون والعلماء والثوار للدفاع عن حرية الفكر والعدالة الاجتماعية وتم حصار الدين فى زاوية العبادات •

٦ - ان تاريخ أفغانستان هو تاريخ البوذية ! وأن المتحف الوطنى هو المتحف البوذى كما أن المتحف الوطنى بالخرطوم فى السودان هو تاريخ المسيحية فى النوبة ووادي النيل ، فنتصدر المدخل صورة السيد المسيح ممدا ذراعيه محتويا البلاد كلها يرعاها ويحميها ، وكأن الشعوب الاسلامية لا تجد تاريخا فى الاسلام الذى انتشر منذ الصحابة ، وكأن الاسلام لا يتمثل فى تاريخ الامة ويصبح رافدها الاساسى كما حدث فى ايران ومصر • وهو تصور غربى للمتاحف كتاريخ للنقوش بصرف النظر عن التراث الحى فى قلوب الناس وتراكم التراث الانسانى حتى يكتمل فى حضارة التوحيد •

٧ - ان الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران لم تفعل شيئا ! بل أنها استبدلت شاه آخر دون أن يحدث تغيير فى البناء الطبقي للمجتمع • مازالت أدوات الانتاج فى أيدي الطبقة الغنية القديمة ، وبالتالي فهي ليست ثورة بل انقلاب ! وكأن الانتقال من التسلط الى الحرية ، ومن التغريب الى الهوية الاسلامية كهوية قومية ، كل ذلك ليس شيئا • فالثورة الماركسية الغربية تغيير لنظم المجتمع ولكن بنقل المجتمع كله الى ثقافة غربية تدعى الشمول والعالمية ، وتترك خصوصية الثقافات المحلية للشعوب • مع أن الثورة الافغانية كان بإمكانها أن تكون امتدادا للثورة الاسلامية بايران ، وأن تكون الثورة الاسلامية بايران ظهيرا للثورة الافغانية كما أنها ظهير للثورة العربية • فنحن جميعا مسلمون ، نجد تأييدنا بين طهرانينا وليس عند الغرباء الاغيار •

٨ - ان أفغانستان دولة مستقلة ذات سيادة لها حدود دولية لا شأن لها بباكستان أو ايران اذا ما تم احترام الحدود • ومن ثم يمكن التعاون بين أفغانستان والدولتين المجاورتين من منطلق الاحترام والسيادة المتبادلتين وكان الامة الاسلامية لا وجود لها ، وكان هذه الحدود المصطنعة في أواسط آسيا مثل تلك التي في المنطقة العربية ليست من صنع الاستعمار ، وكان السيادة في الامة الاسلامية ليست للشرع الاسلامي والنظام الاسلامي ! ان الثورة الافغانية ليست ثورة داخل حدود صنعها الاستعمار بل هي ثورة جزء من الامة الاسلامية، عليها واجب بالنسبة لاجزاء أخرى ، ولو كانت ثورة اسلامية تهدف الى تحرير الامة الاسلامية من الاستعمار والاقطاع والرأسمالية والتسلط والطغيان والى تحقيق الوحدة الاسلامية • وبدلا من أن يستوطن الاستعمار في باكستان لماذا لا تنتشر الثورة الاسلامية في باكستان من ايران أو أفغانستان ؟ وأيها أولى بباكستان الاستعمار أم الاسلام ؟ أمريكا أم ايران وأفغانستان ؟ الصليبيون الجدد أم المسلمون الثوار ؟ •

٩ - لقد قامت النخبة الثورية بعدة اصلاحات في ميدان الدين • فألغت المهور المرتفعة ، وقررت ألا تتعدى المهور خمسا وعشرين قرشاً • وقد كانت المهور المرتفعة مانعا من زواج الشبان • وبالرغم من أهمية هذا الاصلاح الا أنه لا يتم بقرار بل بتغيير عادات الناس وبوعيهم الاسلامي الصحيح • هذا الاصلاح ليس فقط جلبا للمنفعة ودفعاً للضرر ولكنه أيضا عود للاسلام الاول الى قلوب المسلمين • بالاضافة الى أن الاصلاح في ميدان الاحوال الشخصية وهو ميدان المباراة الاول في مصر بين المتطعين ، لا يكفي • الاصلاح يتم أيضا في النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية : لمن الارض ، لمن المصنع ، لمن المتجر ، لمن الجامعة ؟ •

١٠ - أما الثوار المسلمون فهم في رأى النخبة الثورية رجال دين، رؤساء طرق صوفية ، ملاك الارض ، اقطاعيون ، مشعوذون دجالون لصوح ، هربوا بعد قانون الاصلاح الزراعى خوفا من اكتساب استيلائهم على اراضى الفلاحين بلا عقود ، وبلا حق وبغير سند . خافوا النخبة الثورية ، وهربوا الى باكستان فتلقفهم الاستعمار الغربى والاقطاع الباكستانى وأمداهم بالرجال والاموال من أجل استعادة اراضيهم التى وزعها الاصلاح الزراعى على صغار الفلاحين حتى تعود الارض الى أصحابها الشرعيين . فهى حرب مصلحة شخصية وليست حربا وطنية . ولا تكاد النخبة الثورية تذكره علنا بالرغم من اشتداد المعارك على الجبال وعلى حدود باكستان . وبصرف النظر عن صدق هذا التصوير أو كذبه فانه مما لا ريب فيه أن فريقا من رجال الدين ترك البلاد لينظم المقاومة الشعبية للنظام الماركسى من خارجها ، مما سمح للاستعمار وللإقطاع باستخدام لعبة الدين ضد الاحاد ، والاسلام ضد الماركسية .

١١ - أما رجال الدين ، من بقى منهم فى كابل ، هيئة كبار العلماء فانهم يقرأون البخارى ومسلم ، ويبحثون فى الكتب القديمة ، ولهم دار فى الوزارت تم طلاؤها ، ولقياداتهم عربات حكومية فارهة . يتحدثون العربية ، وينظرون الى الازهر . منهم أعضاء فى الهيئة التأسيسية لصياغة الدستور لا يتكلمون فيها ، ويشعرون بالنقص أمام العلمانية والعلم الغربى . يخفون فى قلوبهم مالا يعبرون عنه بألسنتهم ، والرؤوس خاوية . اذا سألتهم كيف برروا حكم الملك المظفر ، ثم حكم داوود ، ثم كيف يبررون النظام الماركسى الآن وأين استقلالهم بالنسبة للدولة ، ودورهم فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وقيادتهم للامة الاسلامية ، وتصديهم للقضايا المصرية التى تعم بها البلوى ؟ قالوا : وماذا عن علماء

الأزهر ، وتبريرهم للنظم السياسية ، مرة اشتراكية ومرة رأسمالية وماذا عن علاقتهم بالدولة ؟ فنحن منوهم وهم منا ، وكلنا في الهوى سواء ! اذا أبديت لهم بعض الانتقادات لما يحدث في أفغانستان سلموا بها ولكنهم لا يبدأون الكلام ولا يأخذون المبادرة • يسرون في الخلف ولا يسرون في المقدمة • علماء الشيعة أكثر جراءة في النقاش في اللجنة التحضيرية لصياغة الدستور • وأمام صمت أهل السنة أو تأييدهم للحكام يصرون علماء الشيعة على أن يذكر في الدستور حماية الفقراء • ولهم يكن من السهل الاتصال برجال الدين • فهم وحدهم في البلاد الإسلامية أساس المعارضة ورصيدها الأول • ولا يمكن الاتصال بهم الا من خلال الدولة وبعلمها وتحت اشرافها حتى لا يتوحد عالم الدين مع ذاته ويعبر عما في قلبه ويكسر نطاق الخوف ويخرج عن الحصار • تمنع رجال الدين في البداية من الحديث والدولة تسمع وترى • ومهما تم تشجيعهم يظلون منزوين في ثقافتهم التحتية في البلاد وفي الأمة الإسلامية •

أما جامعة كابول فهي على العكس من جامعة طهران ، مهد الثورة وكعبتها ، خواء تام باستثناء شعارات الماركسية اللينينية التي يرفعها الحزب في كل مكان والتي لا يلائف حولها أحد ، وطلاب الحزب الذين يملؤون مدرجا ، يجمعهم الحزب في المناسبات الرسمية أشبه بما كان يتم في الثورة المصرية في هيئة التحرير والاتحاد القومي والاتحاد الاشتراكي • وعندما تغيرت القيادة الثورية لم يجد أحد هذه التنظيمات لحماية الثورة ومكتسباتها • والعجيب أن النخبة الثورية كانت تشعر بقيمة ناصر ، وتقدر حسه الشعبي بمشاكل الجماهير ، الفقر والخبز اليومي • وكانت تتمثله في مرحلة اعدادها النضالي • ولكنها كانت تفنقر الى شعبيته كما كانت تشارك معه في افتقار كليهما الى الاعتماد على ثقافة الامة وتراثها

لتنوير الجماهير • فلا الماركسية اللينينية ولا الاشتراكية العربية تمانان
شغاف قلوب الجماهير كما يفعل القرآن والسنة •

كان الشعب في واد والنخبة الثورية في واد خر • اذ يسكن الشعب
في المدن الكبرى وفي سفوح الجبال وجحورها وفي الوديان والسهول •
لا يعرف حدودا في الجبال بين أفغانستان وايران وباكستان • معظمه
من الرعاة والفلاحين ، تتقصد المياه والكهرباء • تسوده الامية ، ويعده
الفقر • ليس به طبقة عاملة تكون حليفة البروليتاريا الدولية ! ليس
لديه مصانع تتكون فيها الطبقة العاملة الا من مصنع تصليح للسيارات
وآخر لحلج القطن واستخراج الزيت من البذرة ، وصنع الصابون من
الزيت ، واستخراج العلف من الكسب ، وكلها كانت موجودة قبل
« انقلاب ثور » الابنة الشرعية لثورة اكتوبر العظمى • هناك « ميليشيا »
الحزب ، تهتف بشعارات الحزب كما كانت تفعل منظمات الشباب لدينا ،
وتمسك بالمدافع الرشاشة ، تعمل للنخبة الثورية ، والشعب طيع تارك
الامر لاولى الامر • ويذهب الى المساجد ، ويقوم بالفرائض الثورية ،
ويتهدد على نور السراج الزيتي ، يبيع العنب والتفاح على الارصفة •
نخبة ثورية وشعب مستكين ! نخبة بيدها السلطة ، وشعب لا سلطة له •

وفي واقع الامر في الامة الاسلامية لا يكون السند الحقيقي للنخبة
الثورية هو الحزب الثوري وحده بل جماهير المسلمين • ولا يكون الفكر
الجزري الذي يربط النخبة الثورية بالشعب الماركسية اللينينية بل تراث
الامة وتاريخها وقيمها ودينها بعد أن يعاد بناؤها ثوريا كما يفعل
ماوتسى تونج في أول الثورة الكونفوشيوسية كمطلق ثوري ، وكما
فعل هوشي منه مع التراث الوطني الفيتنامي ، وكما فعل رهبان البوذية
مع البوذية في فيتنام أثناء حركة التحرر الوطني ، وكما فعل الرهبان

الشبان في أمريكا اللاتينية الكاثوليكية (١١) ، وكما فعل اليجيا محمد مع الاسلام في أمريكا ضد العنصرية البيضاء ، وكما كان الاسلام في الجزائر آبان حرب التحرير (١٢) •

فماذا كانت النتيجة لذلك كله ؟ غزو أجنبي من الاتحاد السوفيتي مادام النظام مواليا له ، وقلب لعميل واحلال لعميل آخر ، وتتنكر للشعب الافغانى المسلم وقتل له ، وقضاء على الاستقلال الوطنى للبلاد ، وتحول بعض علماء الافغان الى صفوف المعارضة ، وانضمام فرق من الجيش الافغانى الى صف الشعب ضد النظام ، وبداية المقاومة الشعبية الفعلبة ضد النخبة الثورية التى تجد سندها فى جيش الاتحاد السوفيتي وليس لدى الشعب الافغانى • كما يجد الاتحاد السوفيتي نفسه وكأنه أمام مجر أو تشيكوسلوفاكيا أخرى • ويكون حظ أفغانستان اذبه أقل من حظ بولندا بعد اضرابات العمال • وهكذا تبدو روسيا القيصرية من جديد ، تجذب أطرافها وتحتل أراضى جيرانها بدعوى المحافظة على النظام • وأى نظام لا يستطيع المحافظة على نفسه يكون غير جدير بالبقاء • وبدعوى التدخل الاستعمارى فى شئون أفغانستان من حدود باكستان يتم التدخل السوفيتي المباشر وكأن الاتحاد السوفيتي ينصب نفسه حاميا للنظم الماركسية فى العالم كما نصبت أمريكا نفسها حامية للنظم الغربية فى العالم هيمنة هنا ، استعمار هنا واستعمار هناك ، لا فرق بين ذلك وذلك •

ان الاستقلال الوطنى للشعوب يسبق نوعية نظامها السياسى

(١١) انظر مقالنا السابق ، كاهيلوتوريز ، القديس الثائر .

(١٢) انظر مقالنا : حركة الاسلام السوداء بأمريكا فى كتابنا « الحوار الدينى والثورة » (بالانجليزية) ص ٢١٣ — ٢٢٤ ، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٧٧ •

والأهمنا في الاحلاف والهيمنة وسياسة المعسكرات ومناطق النفوذ .
ودخلت جميع الشعوب تحت وصايا النظم الشمولية غربية كانت أم
شرقية . والمصالحة الوطنية داخل أفغانستان بين فصائل النخبة الثورية
أو بين النخبة الثورية الماركسية اللينينية وبين المعارضة الوطنية اسلامية
كانت أو ليبرالية تسبق نوعية النظام . وان نظاما ليبراليا قادرا على
تحقيق الوحدة الوطنية لخير من نظام ماركسي يخوم على التجزئة
والتفتت اوحدة الشعب . كما أن وحدة الشعبين المسلمين في أفغانستان
وباكستان تسبق تأييد الاغيار للنخبة الثورية في أفغانستان . وكما هو
في مثلنا الشعبي « أنا وأخويا على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على
الغريب » .

لقد كانت الثورات الكبرى ثورات وطنية وكان الحزب
الماركسي اللينيني عصبها ومحورها وبؤرتها وأكثر الاحزاب فاعلية وقدره
على التحليل واتخاذ القرار . حدث ذلك في الثورة الصينية العظمى ،
والثورة الفيتنامية والثورة الكوبية والثورة الجزائرية ويحدث نفس الامر
في الثورة الفلسطينية . بل أنه في بعض من الاحيان كان الحزب الماركسي
اللينيني تطورا طبيعيا للاحزاب الوطنية ، تاليا عليها وليس سابقا لها .
ولكن يبدو أن النخبة الثورية تضع العربة أمام الحصان .

والعجيب أن تؤيد بعض الانظمة التقدمية في العالم العربي الغزو
السوفيتي لافغانستان وكان وحدة المذهب السياسي تجب الاستقلال
الوطني للشعوب المستقلة وتتجاوز وحدة الامة الاسلامية ومصيرها
المشترك . وأن نقف منه بعض الاحزاب التقدمية في مصر موقفا غامضا
وكان الاستقلال الوطني لاي شعب موضوع مساومة وجزءا من اللعبة
على مسرح السياسة في الساحة الدولية وتوازن القوى العالمية . وقد
أدى هذا الوضع الى أن تنبرى كل القوى الرجعية في العالم الاسلامي الى
أخذ مواقف أكثر تقدما من الاحزاب التقدمية والانظمة الثورية في العالم

العربي • بل أن الاستعمار الغربي نفسه بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية قد نصب نفسه مدافعا عن الاستقلال الوطني للشعوب وأدان التدخل السوفيتي في أفغانستان فأصبح الاصدقاء هم الأعداء ، والأعداء هم الاصدقاء • وعدو عاقل خير من صديق جاهل •

رابعاً : الثقافة التحتية (الاتحاد السوفيتي) •

تنقسم الاتجاهات حول المسلمين في الاتحاد السوفيتي الى نوعين :
الاول يقوم به أصدقاؤه خاصة في الشرق ، لدينا في قلب العالم العربي وداخل الاتحاد السوفيتي لبيان مدى ماأحرزه تحديث مجتمعاتهم من تقدم في العلوم والفنون الصناعات بفضل الثورة الاشتراكية الكبرى التي أعلنت بلسان لينين مؤسس الدولة الاشتراكية مساواة جميع شعوب الاتحاد السوفيتي وقوميته وأجناسه والاعتراف بحرية العبادة لجميع الأديان (١٣) • والثاني يقوم بها أعداء الاتحاد السوفيتي داخل العالم الاسلامي وخارجه لمهاجمته وبيان مدى الاضطهاد الذي يعاني منه المسلمون هناك والذي يبلغ مداه الى حد الشائعات التي تروجها عنه أجهزة الاعلام الغربية وامتداداتها في الوطني العربي والاسلامي من حرق للمصاحف ، وغلق للمساجد ، ومنع الأذان وتحريم الصلاة (١٤) •

(١٣) ومن أمثال هذا النوع كتاب يوسف صديق : المسلمون في الاتحاد السوفيتي وكتب الدعاية السوفيتية عن الجمهوريات الاسلامية التي تصدرها نوفستى •

(١٤) ومثل هذا النوع مقالات الاخوان المسلمين في مجلة « الدعوة » وأيضا كتاب •

Hélène Carrère d'Encausse L'Empire éclaté , Flammarion, Paris, 1978 .

وحقيقة الاوضاع هناك لا مع أولئك ولا مع هؤلاء • مهمتنا وصف
الايوضاع كما هي عليه من وجهة نظر الامة الاسلامية التى تضم جماهير
المسلمين وليس من وجهة نظر الامة أصدقاء الاتحاد السوفيتى أو أعدائه •
لا يهمنى الدفاع عن الاتحاد السوفيتى أو الهجوم عليه بل يهمنى وضع
الحقائق نصب أعين الامة الاسلامية •

ولا يهمنى أيضا نبش الماضى كما تفعل الدراسات المعادية ، واعادة
تذكير الناس بما فعله القيصر للقضاء على الامارات الاسلامية المستقلة
وضمها الى روسيا القيصرية ومدى ما كان يعاينه المسلمون من اضطهاد
وقهر وكان الاستعمار الغربى لم يفعل نفس الشئ فى الجزائر ولا يزال
يفعل فى الفلبين ، فكل القوى الكبرى تجاه المسلمين سواء • ولا يهمنى
أيضا وجهة نظر الاتحاد السوفيتى ذاته من رفع لينين لشتى أنواع
الاضطهاد الدينى والقمع والتسلط عن المسلمين تدعيما للثورة الاشتراكية
الكبرى التى تريد تثبيت قواها وترسيخ قواعدها • كما لا يهمنى أيضا
الاحصائيات الحديثة التى تبين مدى تقدم المسلمين فى التعليم والزراعة
والصناعة والدخل الفردى ، ومدى ما يتمتعون به من حرية لاقامة
الشعائر الدينية • فتلك احصائيات رسمية الهدف منها الدعاية والاعلار •
انما يهمنى حال الاسلام فى قلوب المسلمون ومدى توقفه أو امتداده ،
انعزاله أو انتشاره ، تحوله الى ذاتية ضامرة أو الى موضوعية قائمة •
ولا يهمنى ثالثا الشهادات الواقعية التى يرجع بها الزوار الاجانب من
مشايع الازهر والعلماء والمفكرين والسياح شاكرين بحسن الضيافة
حامدين الله على كل شئ • ولكن الذى يهمنى هو تقديم هذه الحقائق
من منظور تاريخى ، وبمنظرة مستقبلية فى قلوب المسلمين وكيفية تحويلها
الى حركة طبيعية بصرف النظر عن مصالح الدول الكبرى ، هذه أو تلك •

وسنقصر الحديث على حال الاسلام عند المسلمين فى أوزبكستان

كبرى الجمهوريات الاسلامية (١٥) والتي تضم الآن حوالي الخمسين مليوناً من المسلمين في غياب الاحصائيات الرسمية اما عمداً أو اخفاءً لحقيقة تزايد النسل عن المسلمين وكيف انهم سيصبحون في نهاية القرن أكبر من تعداد الروس البيض (الذين يبلغون الآن مائة وعشرين مليوناً) أو عن غير عمد نظراً لعدم وجود احصائيات سكانية في الاتحاد السوفيتي تأخذ الدين في الاعتبار ، ولكنها في أغلب الاحوال تقدر المسلمين بحوالي ثلاثة ملايين من المسلمين أى أقل من تعدادهم بحوالي ست عشرة مرة ! وهو يشابه أيضاً وضع العرب المسلمين في اسرائيل منذ ١٩٤٨ حتى الآن وتزايد عددهم حتى أنهم سيفوقون في الكم عدد سكان اليهود في نهاية هذا القرن أيضاً . وما يصدق على أوضاع المسلمين في أوزبكستان يصدق أيضاً على أوضاعهم في باقي الجمهوريات الاسلامية دون ماتجن أو مغالاة .

كانت الاوضاع في البلاد الاسلامية في آسيا قبل ثورة أكتوبر مثل الاوضاع الغالبة على جميع الشعوب الاسلامية : تسلط الامراء ، طغيان الحكام ، نهب ثروات المسلمين . ويسهل أن يرى الانسان القصر الصيفي والقصر الشتوي لآخر أمراء بخارى الذي هرب من وجه الثورة الاشتراكية . كان أمراء المسلمين يعيشون كالملوك ، وينظرون الى المسلمين كقطيع الاغنام يسوقونه ويحلبونه ويجزرونه كيفما شاءوا . قهروا الفلاحين ونهبوا محصولهم ، واثقلوا كواهلهم بالضرائب لدفع الجزية

(١٥) أوزبكستان وعاصمتها طشقند ، وتركمانستان عشقناد ، أذربيجان — باكو ، طاجكستان — دوشنبه ، قرغيزا — فرونزه ، تترستان — كازان ، باشكيريا — أومفا ، قازقستان — الماتنا ، شعوب القوقاز الشمالي . ولم نتعرض للاسف لاحوال المسلمين في الصين .

لقيصر روسيا ولخزانة الامير . قمعوا الثوار المسلمين ، وقتلوهم
وشردوهم ، هؤلاء الثوار الذين كان بإمكانهم لو انتصروا تغيير وجه
الاسلام في آسيا . كانوا ثوارا باسم الاسلام حتى قبل أن تندلع ثورة
أكتوبر ١٩١٧ ، وكانوا جزءا من الحركة الاصلاحية الثورية الكبرى التي
بدأها الافغانى . شاع اضطهاد العلماء والمفكرين ، ومن بينهم
« ألوغ بك » أكبر عالم فك أنجبته آسيا الوسطى . حولت الثورة
الاشتراكية مرصده الى متحف ، وعلى حائطه لوحة تمثل مقتل الموح بك
وسكين الامير على رقبتيه ، والمناظر المكبرة الى جواره ، وعلى الحائط الآخر
لوحة جداوله التي فيها حساب دورات الافلاك والتي لا تبعد عن
الحسابات الحالية الا بضع ثوان ! وتفخر الثورة الاشتراكية بأنها
حولت هذه الشعوب من الجهل الى العلم ، ومن الارهاب الى الحرية ،
وكان العلوم التي أقامها المسلمون لم تنشأ في ظل الاسلام وبدافع منه .
كانت المرافق العامة لا وجود لها . فالمدن القديمة ببخارى وطشقند
وسمرقند حواري وأزقة ، وسكان يغلب عليهم الفقر والجوع ، وأمىة
بلغت أكثر من ٩٠ ٪ من مجموع السكان . مثل هذا النظام والذي كان
له مايشابهه في أنحاء العالم الاسلامى كان لا يمكن أن يدوم ، وكان
لابد لقوى جديدة أن تزحف وتقتضى عليه « أفلا يرون أننا نأتى الارض
ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون » (٢١ : ٤٤) .

لقد حدث التوسع أيام القيصر منذ القرن الماضى . فاحتل الامارات
الاسلامية في آسيا الوسطى . وكان يكتفى بأن يدفع له الامراء الجزية
السنوية . وكان هناك اتفاق في النظام بين طغيان القيصر وطغيان الامراء
على حساب الشعبين الروسى والاسلامى في آسيا . فلما اندلعت الثورة
الاشتراكية في روسيا أراد لينين أن يحول الثورة الى دولة . أراد أنضما

الابقاء على روسيا القيصرية كأراضى دون الانتقاص منها • وساعده على ذلك ابتداء الثورة فى الامارات الاسلامية تحت أثر الثورة الاشتراكية فى روسيا • وسواء طلب الثوار المسلمون مساعدة لينين أم لم يطلبوا فقد كانت حجة التدخل الاجنبى باستمرار أنه أتى بناء على دعوة رسمية من الحكومة الشرعية للبلاد ! انضمت القوات الثورية الاشتراكية الروسية الحديثة الى الثوار المسلمين وأنهوا حكم الطغيان •

وقد وجه لينين نداء الى « من دمر قياصرة روسيا وظالموها مساجدهم ومعابدهم وداسوا معتقداتهم وعاداتهم » • وجاء فى النداء « بعلن من الآن فصاعدا بأن عقائدكم وعاداتكم ومؤسساتكم القومية والثقافية حرة مقدسة • نظموا حياتكم القومية فى ظل الحرية وانجسوا الخالى من العقبات • لكم الحق فى ذلك • كونوا على بيته من أن حقوقكم شأن جميع حقوق شعوب روسيا تحميها الثورة وهيأتها بكافه قواها •••» (١٦) كما أعاد لينين مصحف عثمان • ففى سنة ١٨٦٨ بعد استيلاء القوات القيصرية على سمرقند بوقت قصير عثر حاكم تركستان العسكرى على هذا المخطوط القديم فى مسجد « خواجه أحرار » وأرسله الى المكتبة الامبراطورية ببيترسبورج • كما تكونت أربع ادارات دينية تنظم شئون المسلمين فى الاتحاد السوفيتى : الاولى للاتحاد السوفيتى الاوروبى وسيبيريا ، والثانية لآسيا الوسطى وكازخستان ، والثالثة للقوقاز الشمالى وداغستان والرابعة لما وراء القوقاز • كما قام الاتحاد

(١٦) حياة المسلمين فى الاتحاد السوفيتى ص ١ صدر عن الادارة الدينية لمسلمى قسم الاتحاد السوفيتى الاوروبى وسيبيريا — أوفنا ، بشكيريا •

السوفيتى بتزميم المساجد والآثار الاسلامية باعتبارها ثروة قومية •
وفى الجمهوريات الاسلامية تقرر أن تكون اللغة العربية احدى اللغات
التي يتعلمها الطلاب مع اللغات الوطنية مثل الاوزبكية بالاضافة الى
اللغة الروسية ، لغة الاتحاد • وتم تشييد مدارس دينية خاصة لتخريج
علماء الدين وخطباء المساجد والائمة مثل مدرسة الامام البخارى
بطشقند ، ومدرسة ميرعرب ببخارى • كما تم نشر مجلة « المسلمون فى
الاتحاد السوفيتى » بالعربية والفرنسية والانجليزية بالاضافة عن عدة
كتب مثل « حياة المسلمين فى الاتحاد السوفيتى » ، « آثار الاسلام
التاريخية فى الاتحاد السوفيتى » • هذا بالاضافة الى الزيارات المتبادلة
بين المسلمين خارج الاتحاد السوفيتى والمسلمين بداخله وحسن الضيافة ،
خاصة فى مواسم الحج وفى المؤتمرات العلمية ، والبعثات العلمية الى
جامعات الشرق الاسلامى خاصة فى مصر وسوريا وتونس والمغرب •

وبالاضافة الى هذا النشاط الدينى الواسع هناك أيضا الرقى المادى
للجمهوريات الاسلامية ، فى الزراعة والصناعة والتجارة • فأوزبكستان
الاسلامية أولى الجمهوريات السوفيتية فى انتاج القطن • أنشأت
المساكن وعبدت الطرقات ، وتم محو الامية التي كانت أكثر من ٩٥ ٪ قبل
الثورة والتي تم القضاء عليها بناتنا بعد الثورة •

أما بالنسبة الى سياسة الدولة ، فانها تتصور المسلمين فى
الجمهورية الاسلامية على أنها كانت امارات متخلفة أيام القيصر نقلتها
الثورة الاشتراكية الى جمهوريات متقدمة ، فالثورة الاشتراكية وريثة
روسيا القيصرية ولملكاتها • كانت تحت القيصر ، يذيقها شتى ألوان
الاضطهاد الدينى والعنصرى ، فأصبحت جمهوريات مستقلة متساوية

في الحقوق مع باقى الجمهوريات السوفيتية فى حرية العبادة لها مجلس شورى مستقل ، ورئيس منتخب ، ولها ممثل فى مجلس السوفينيات الاعلى . للمسلمين حرية اقامة الشعائر الدينية وفى ممارسة الطقوس واقامة الصلاة ، وجمع أموال الزكاة ، وتنظيم وفود الحج ، والاحتفالات بالاعیاد الدينية ، واعداد الائمة فى المدارس الدينية الاهلية ولكن دون تدخل فى سياسة الدولة ، فالدين دين ، والسياسة سياسة . وهذا هو الموت البطيء للإسلام بحصاره وضموره وانعزاله عن الحياة العامة . فالاسلام فى نظر الدولة باعتباره ديناً أحد أسباب التأخر . فالدين أفيون الشعب حسب النظرية المبتسرة المشهورة ، وبالتالي تحل محله الماركسية اللينينية ، وتوضع لافتات الحزب الشيوعى على حوائط المساجد ، وخلاياه داخل الأزقة القديمة وفى غرف المنازل الاثرية . فالجديد يرث القديم . والتعليم الدينى محرم فى مدارس الدولة لان الدولة لا دينية . لذلك اقتصر على المدارس الاهلية بتمويل أهلى والدولة تقطع الارض فحسب . أما التراث الإسلامى فانه تراث فى تاريخ العلم والفن والادب . فمؤلفات ابن سينا والبيرونى والخوارزمى تراث علمى وطنى من تاريخ الاتحاد السوفيتى ، تنشر وترجم الى الروسية وتدرس وتؤثر فى تاريخ العلم أكبر مما هى عند المسلمين خارج الاتحاد السوفيتى . ومدرسة الموع بك ومدافن شاه زنده فى سمرقند ، ولب حوض ومأذنة كلان ببخارى وطشقند كلها تراث فنى من تاريخ الاتحاد السوفيتى وشعبه وثقافته المتنوعة . بل أن الابنية الحديثة فى الجمهوريات الاسلامية تسبلهم الفن القديم مثل متحف لينين ومetro طشقند . أما المسلمون أنفسهم فهم مرتبطون بالاتحاد السوفيتى كأحد شعوبه أو قومياته أكثر من ارتباطهم بجيرانهم فى تركيا وأفغانستان وإيران وباكستان ومثل الكاثوليك م ؤ الحركات الدينية المعاصرة

والبروتستانت والارثوذكس في الاتحاد السوفييتى مع أن الاسلام
أمة والمسلمون أمة سواء في المركز أو الاطراف ومهما تم ضم الاطراف
الى مركز آخر فانها تكون أشبه بزرع أعضاء في جسد غريب ، ولا تصح
على نحو طبيعى الا في جسدها الطبيعى .

والمسلمون هناك بالنسبة للاسلام الحى في شعورهم ثلاثة أنواع :

٢ - الجيل القديم من العجائز الذين تتراوح أعمارهم ما بين
السبعين وما فوق المائة ، وبهم أكثر المعمرين . كثير منهم مقعدون ،
يحملون على الكراسى أو يتوكأون على العصى الى المساجد ، خاصة
أيام الجمعة والعيدين . ييكون ماغات ، تنهمر من أعينهم الدموع اذا
ما رأوا أحدا منا ، من قلب الامة العربية والاسلامية ، من القاهرة مدينة
الازهر الشريف ، يذكرهم بالاسلام أيام وحدة الامة الاسلامية منذ كان
المسلم يجوب أنحاء العالم الاسلامى من المغرب غربا حتى الصين شرقا
لايسأله شرطى عن جواز السفر أو تأشيرة الدخول ، ولا يقوم أحد
بنفتيش حقائبه أو يطالبه بتحويل عملة أو يذكرهم بحال الصحابة الاوائل
الذين ذهبوا غازين في سبيل الله خاصة وأنهم أهل سنة ، انتشر الاسلام
لديهم بفضل الصحابة الاوائل . مشكلة هؤلاء المسلمين هو الحفاظ على
ما ضاع ويرون بصيص أمل في الزوار المسلمين عندما يذكرهم بعزة
الاسلام . هم الجيل المخضرم الذى عاصر الامارات الاسلامية المستقلة
ثم عاصر غزو القيصر وأخيرا عاصر انتصار الثورة الاشتراكية . كان
عزيزا أولا ثم أصبح مقهورا تحت أمراء المسلمين الطغاة ثم ذليلا بانسا
مغتربا ، مهيض الجناح بالرغم مما لديه عن تأمينات ومعاشات ،
ومسكن وملبس ومشرب . عزأؤه المسجد كل يوم ورؤيته للزوار
المسلمين بين الحين والآخر ، ييكي حاله ويرثى نفسه . وفي الحالات الثلاث

كان ايمانه قويا ولكن مبتور الصلة بواقعه ، فلتحول قوة ايمانه الى
الداخل وتتحسر عن الخارج سواء أيام الامارات الاقطاعية حيث كان
مسلماً في نظم تدعى الاسلام كما هو حالنا الآن أو في نظم يفرض عليها
القيصر حمايته أى مسلماً مستعمراً كما كنا منذ عشرات السنوات أو في
أقليات اسلامية محاصرة انزوى الاسلام في قلوبها ، تشعر بغربة عن
علمها ، وتعيش بأرواحها خارج أجسادها وترنو ببصرها باستمرار الى
ما وراء الحدود أو تعيش بوجودها سالف الزمان •

٢ - جيل شاب ، تمثل الثورة الاشتراكية ، وأصبح علمانياً، ينتسب
البعض منه الى الحزب الشيوعي • لا يحتفظ من الاسلام الا باسمه
العربي محمداً وعلياً أو الفارسي جلنار • تمثلوا الحضارة الغربية
الجديدة ، ونظروا الى الاسلام على أنه تاريخ متحفي ، آثارا قديمة
تركها المسلمون الاغيار الذين لا يتحد معهم ولا يجد هويته فيهم • يرى
الاسلام على أنه أحد أسباب التخلف والجهل والطغيان • الامور واضحة
بالنسبة اليه • والتضاد بين الماضي والحاضر ، والدين والعلم ، والمتأخر
والتقدم ، والجهل والمعرفة ، والنوم واليقظة تضاد لا سبيل الى حله
بالمساومة أو المصالحة أو التوسط • وهم سعيون بنجاحهم المهيب
وبنتائجهم وبحاضرهم • ومنهم من له باع كثير في الصناعة أو الزراعة
أو الاختراع • ومع ذلك يتزوجون في الادارة الدينية حرصاً على تقاليد
الاسرة بعد زواجهم المدني في مراكز الدولة • لاصلة لحياتهم المدنية
بالدين ، ولا صلة للدين بحياتهم المدنية ، فلا الاسلام تحول الى أسس
للتقدم ولا التقدم كان تطوراً طبيعياً للاسلام • وهذا هو الجيل الوسيط ،
أبناء المسنين أو أبناء أبنائهم • فما بال الجيل الثالث والرابع الذي قد
لا يسمع عن الاسلام شيئاً ؟

٣ — أئمة المساجد ، ومعلمو المدارس ، وطلبة العلم الدينى الذين يجمعون بين القديم والجديد ولكنهم أقرب الى القديم • يعيشون فى العالم الجديد بحكم مواطنتهم ولا ينتقلون اليه • ولكنهم أقرب الى القدماء يقرؤون الكتب الصغرى ، ويحفظون المتون القديمة ، ويشرحون شرحها ، ويهمشون على الشروح • يعيشون فى المدارس الدينية عيشة اسلامية كاملة ، حياة داخلية ، صلاة ودراسة ، نوم وطعام ، وتجهد وعبادة • وهم مستقبل المسلمين هناك • ولكنهم محدودون يعدون بالعشرات • « ولئن يهدى الله اليك رجلا واحدا خير من الدنيا وما فيها » • لم يحدث فيهم توحيد عضوى داخلى بين الاسلام والتقدم ، وبين الدين والثورة ، وبين التراث والتجديد نظرا لانهم يعيشون فى غربه عن عالمهم • الحضارة مفروضة عليهم ، ولم تنبع منهم • لا يمكنهم نمال الجديد لانهم ليسوا أصحابه ، ولا تطوير القديم لان العالم ليس سكا لهم ، وهم محاصرون فيه •

والاسلام فى قلوب الناس قوى للغاية وكلما زاد الحصار الخارجى قويت الروح الداخلية ، وكلما زادت الغربة الخارجية قويت الالفه مع النفس • فالمسلم فى الاتحاد السوفيتى يشعر بأنه مسلم أوزبكي أو مسلم تركمانى أو مسلم تترى أو مسلم طاجكستانى ولا يشعر على الاطلاق بأنه مسلم روسى ينتسب الى الاتحاد السوفيتى • دينه الاسلام ، ولغته وموسيقاه وتراثه الاوزبكية أو التركمانية أو التترية • ولكن لما كانت روسيا هى القوة المركزية ، وكبرى دول الاتحاد والننى عليها تجميع الاطراف ، ظهرت اللغة الروسية والثقافية الروسية فى أجهزة الاعلام وفى مؤسسات الدولة على أنها اللغة والثقافة الموحدة للشعوب والقوميات والاجناس التى يتكون منها الاتحاد السوفيتى •

ظهرت الثقافة الروسية والموسيقى الروسية كحصارة الدولة الكبرى المسيطرة على باقى الدول الصغرى للاتحاد ، الثقافة الرئيسية فى مقابل الثقافات الفرعية أو الثقافة الرسمية فى مقابل الثقافات المحلية أو الثقافة الشمولية فى مقابل الثقافات الخاصة النوعية للشعوب •

ولسوء الحظ كانت الثقافة الرسمية هى ثقافة الرجل الابيض ، ثقافة الغرب • فروسيا جزء من أوربا ، وثقافتها ثقافة أوربية • ومن ثم ظهرت سيادة ثقافة الغرب على شعوب الشرق ، كما ظهرت سيادة ثقافة الرجل الابيض على الشعوب الملونة • وكان المسلمون يديرون أجهزة « التليفزيون » ليسمعوا تشايكوفسكى أوليروا فيلما عن كاترين قيصرة روسيا ، ولا يسمعون ولا يرون شيئا • كانوا أقرب الى من الروس ، وكان الروس غرباء بالنسبة لهم • وكنت أنا المثقف المطلع على ثقافات الغرب أكثر أدراكا لما أسمع ولما أشاهد •

ولا يقتصر الامر على الثقافة وحدها بل يمتد أيضا الى شئون الحياة العامة • فروسيا هى المسيطرة فى دولة الاتحاد على مراكز الدولة الكبرى ، فى الجيش والشرطة والادارة العليا ، فى المطارات وعلى الحدود ، وفى مراكز الامن والحزب ، وكان الرجل الابيض هو المسيطر ، والمسلمون بسمار بشرتهم تحت سيادة الرجل الابيض • وفى الفنادق الكبرى ، الادارة من الروس البيض ، والاعمال اليدوية للشعوب الاخرى مما يذكرنى بالمستعمر الاوروبى الابيض ، بالفرنسيين فى الجزائر أو بالجزائريين فى فرنسا • بل كانت عادات الشعوب الملونة وتقاليدهم وعبوبهم أقرب التى من عادت الروس البيض وتقاليدهم وعبوبهم • يبصقون فى الطرقات مثلنا • يتنزاورون ويتحابون ويفيض بعضهم على

بعض مثلنا ، أما الجمود والصراعة فللروس البيض • ويذكرنا ذلك بالالمانى عندما يعبر برلين الغربية ويقابل صدفة ألمانيا شرقيا على الحدود ، صديق طفولته ورفيق صباه ولا يستطيع الحديث معه أو الهمس اليه لان « النظام » لايسمح • أن سيطرة روسيا على باقى دول الاتحاد ، وهى تمثل حوالى نصف مجموع السكان تجعل المساواة بين شعوب الجمهوريات فى مناصب الدولة العليا وفى الحياة العامة تتوارى أمام لون البشرة ، الداء الدفين للحضارة الغربية • ويكون السؤال : هل استطاعت شمولية المذهب أن تقضى على خصوصيات الشعوب ؟ •

يمثل الاسلام اذن فى الاتحاد السوفيتى « ثقافة تحتية » Suh-Culture عند المسلمين فى الجمهوريات الاسلامية فى أواسط آسيا ، كما هو الحال عند اليهود فى أوروبا أو ثقافة الاقليات داخل ثقافة الاغلبية •

وبالاضافة الى الثقافة الرسمية للثقافة الاوربية ، ثقافة الرجل الابيض ، كانت هناك ثقافة دعائية أخرى ، الثقافة السياسية الغربية • وهى أيضا ثقافة الرجل الابيض ، أعنى الماركسية اللينينية المنتشرة فى كل مكان فى صيغة شعارات ونداءات ، وتوجيهات ونظريات ، وصور وإعلانات • وكانت تبدو وكأنها تريد أن تحل محل الاسلام عند المسلمين فى الجمهوريات الاسلامية • بدت كمنافس لى تريد أن تكون رؤيتى للعالم ، رؤية بديلة لرؤياى التاريخية • بدت الماركسية اللينينية كأيدىولوجية منافسة للاسلام بالرغم من أن المسلمين لايعلمون عنها شيئا كما أن الماركسيين من شبان المسلمين لا يعلمون عن الاسلام

شيئاً باستثناء صورة الاسلام فى ذهن الدولة ، طقوس وشعائر على مستوى الفرد ، وانعزال على مستوى المجتمع ، وتخالف على مستوى التاريخ ، صور لينين فى كل مكان ، وتمثيله ، واسمه على أهم الشوارع فى المدن الكبرى ، ومتاحفه ، وتاريخه ، ونضاله يتلوه ماركس وانجلز ، ويتلو الجميع حكام الامس أو حكام اليوم طبقاً لمن الحكم اليوم ؟ وكأن حضور هذه الآثار الحسية لابد وأن تولد بالضرورة فى أذهان المسلمين الافكار والعقائد والمذاهب والنظريات الموازية • شعارات الحزب ونداءاته وشعاراته ورموزه على كل الابنية الرسمية بما فيها حوائط الآثار الاسلامية القديمة لتبين للناس أن الحزب هو عصب الدولة ، منبعها ومصبها • لجانها واجتماعاته وهيئاته فى كل مكان بالرغم من عدم انخراط المسلمين فيها • وعلى واجهة جامعة طشقند بالخط الثلث الروسى « اقرأ » على يافطة ، قول لينين وكأنها ليست أو ما أنزل من القرآن الكريم وكأن طلب العلم ليس أمر الهيا قبل أن يكون توجبها لينيانيا • ولماذا تفرض التوجيات من الثقافة الرسمية القومية ولا تنبع من الثقافة المحلية التحتية ؟ لم تنشأ وحدة عضوية بين الاسلام والماركسية باعتبارها نظرية فى التقدم والعدالة الاجتماعية وتحرر المظلومين والطبقات الكادحة ، وباعتبارها نظرية فى العمل والقيمة والملكية العامة والاجور ، وباعتبارها نظرية فى مواجهة الاستعمار والاستغلال والاحتكارات الرأسمالية ؟ والسلطان جاليف ليس رافدا ثقافيا فى شعور المسلمين ، ولا يقبىع فى وعيهم السياسى ، اذا كان يمثل حقاً هذه الوحدة العضوية بين الاسلام والماركسية من حيث الفكر والسلوك والنظام الاجتماعى وليس فقط من حيث ماركسيا لينيانيا فى الفكر والنظام ومسلما اسمه أحمد أو محمد فى العقيدة والشعائر

• الدينية (١٧)

وينتج عن الاسلام كثافة تحتية سلوك وموقف يجعل المسلمين ذوى طبائع وعادات مختلفة وكأنهم لا يعيشون المواطنة السوفيتية الا اسما • لهم حياتهم الخاصة والعامة مختلفة تماما عن حياة الروس البيض الخاصة والعامة • عندما يتقابل المسلمون فى الطرقات يتبادلون التحية بلغاتهم الوطنية ، ويشعر الانسان أن بينهم رابطة أقوى بكثير من رابطة المواطنة السوفيتية • ولم تنجح جميع المحاولات للقضاء على خصوصيات الشعوب مثل التجنيد وانتزاع الافراد من موطنهم الاصلى الى أماكن أخرى لا يعلم عنها أهلهم شيئا • ويتمثل هذا السلوك فى الآتى :

١ - ازدواجية الشخصية بين المسلم القابع بينه وبين نفسه ، الصادق مع نفسه وجيرانه وبين الوطن الروسى فى الخارج ، بينه وبين الدولة ومؤسساتها وثقافتها وحزبها ونظمها وقوانينها • وهو وضع مشابه لوضع اليهود فى أوروبا باستثناء أن المسلمين هم أصحاب الارض وغرباء عليها فى حين أن الروس الالمان والفرنسيين وقوميات أوروبا الشرقية كانوا هم أصحاب الارض واليهود يعيشون بينهم •

٢ - العكوف على الصلوات فى المساجد ، والاحتفالات الدينية فى الاعياد حيث يتجمع آلاف المسلمين فى المساجد المنتشرة فى المدن الاسلامية الرئيسية ، بخارى ، وسمرقند ، وطشقند ، وخبوه .

(١٧) فى الكتاب القادم - تنشر « اليسار الاسلامى » ثلاث نصوص للسلطان جاليف •

وعشقباد ، وأوفا ، وبأكو ، ودوشنبه وغيرها * ولا شأن لهم باحتفالات أكتوبر أو بمراكز الحزب الحزب الشيوعي أو بأعياد العمال والجيش أو بعروض ساحة الكرملين في الميدان الأحمر * يزورون قبر البخاري أكثر من زياراتهم لقبر لينين ، ويقرأون « الفاتحة » أكثر مما يقرأون « البيان الشيوعي » *

٣ — تتم مراسيم الزواج والطلاق طبقا للشريعة الاسلامية في الادارات الدينية * فمزال قانون الاحوال الشخصية هو الحصن المنيع ضد العلمانية والتغريب حتى يصبح الزواج مقبولا من المجتمع الاسلامي لان الزواج المدني في أجهزة الدولة لا يجعل الزواج مقبولا « شعوريا » لدى المسلمين الشبان حتى العلمانيين منهم * والزواج في الادارة الدينية يعادل زيارة العروسين لمقبرة لينين لدى الروس الارثوذكس *

٤ — قراءة القرآن في الافراح والمواسم واعطاء الدروس الدينية في الحفلات الخاصة * فأصبحت الحياة الاجتماعية وسيلة للتعليم الديني، وخروج الثقافة التحتية في المجتمع المحلي واستبعاد جميع ألوان الثقافة الرسمية ، الثقافة الروسية ، من رقص أو غناء أو شعر « أفشنكو » الذي لا يعلم عنه المسلمون شيئا والذي تروج له أجهزة الاعلام في النظم التقدمية العربية *

٥ — الادارات الدينية الاربعة مراكز تجمع للمسلمين ، ومحور نشاطهم ، بها يرتبطون ، ومنها يأخذون توجيهاتهم ، وتصدر نشراتهم ، وتنظم بعثاتهم الى الازهر ، ووفود حجهم * تستقبل الزوار المسلمين ، وتعقد أواصر الصلة بينهم * تجمع تبرعات المسلمين في الاتحاد

السوفيتي ، وتجمع أموال الزكاة • تشرف على المدارس الدينية ، وتجمع الكتب • ولها في حياة المسلمين مكانة الدولة أكثر مما للدولة سواء المحلية أو المركزية • ولكن ليس لها سلطة على الدولة كما لمؤسسات الحزب ولنظمات الصداقة مثل منظمة تضامن الشعوب الآسيوية والأفريقية أو التنظيمات التابعة للحزب مثل تنظيمات الشباب أو المرأة •

٦ - يقوى الإسلام في حياة المسلمين الظاهرة والباطنة حتى في المسكن والمأكل والمشرب • يتبعون السنة ، ويقرأون الأوراد ، ويختمون الصلاة ، ويقرأون القرآن قبلها وبعدها • يعيشون حياة الصحابة الأوائل وحياة أهل العلم والحديث • وبالرغم من وجودهم في أواسط آسيا على حدود أفغانستان وإيران وباكستان إلا أن الإسلام لديهم صاف رائق خال من الأساطير والخزعبلات وتطرف العقائد عند فرق الشيعة أو المغالاة لدى الطرق الصوفية • في حين تغيب لديهم كل الثقافة الرسمية والأيديولوجيات السياسية والعقائد الحزبية ومراسيم الدولة وشعاراتها •

٧ - يشعرون بالامة الإسلامية القريبة منهم مثل إيران وباكستان وأفغانستان وتركيا أو البعيدة عنهم مثل مصر وتونس والمغرب والحجاز • يعيشون بأرواحهم مكة والمدينة والحرم النبوي ، ويتطلعون الى مصر ، كعبة الإسلام ، وكنانة الله في أرضه ، وموطن الأزهر الشريف • مسلمون بقلوبهم وأرواحهم • ومواطنون روس بأبدانهم وبيطاقاتهم • أهلى وعشيرتى وأقربائى وأخوتنى وفي نفس الوقت يعيشون في دولة أخرى وتحت نظام آخر ، تجذبهم خارج المركز الإسلامى قوى أخرى تجعلهم يدورون في محيطها •

ومع ذلك ، فالمستقبل لهم لان التاريخ في مد وجذر ، والاطراف تتبادلها المراكز حسب قوتها وضعفها ، وحسب قوة صمود الاطراف وصلابتها . ومما يوحى بالثقة في هذا المستقبل الآتى :

١ - بالرغم من عدم وجود احصائيات رسمية دقيقة عن تعداد المسلمين في الاتحاد السوفيتى بدعوى عدم جواز اجراء احصائيات طبقا للدين نظرا لما ينص عليه الدستور من حرية الاعتقاد وحرية الدعاية للدين أو صفة الدين مع أنه لايجوز الدعاية ضد الماركسية اللينينية المذهب الرسمي للدولة فان الارقام الواردة في التقديرات الرسمية أقل بكثير من تقديرات المسلمين . فقد تصل في الاحصائيات الرسمية ثلاث ملايين وعند المسلمين خمسين مليونا وعند المحايدىن أربعين مليونا أى مثل شعب مصر . ولما كان متوسط الاسرة لديهم عشرة أشخاص ولايوجد لديهم أى اجراءات لتحديد النسل ، فالاولاد خير وبركة من نعم الله ، ويتزوجون صغار السن منعا للفتنة وسهولة العيش فان تعدادهم سيبلغ في نهاية القرن مثل تعداد الروس البيض الآن الذين لا يتكاثرون ولايزيدون أى حوالى ١٢٠ مليوناً ، وبالتالي يتحول الاتحاد السوفيتى كله الى أغلبية مسلمة ، ويصبح دولة مسلمة ، والاسلام الآن هو الدين الثانى بعد الارثوذكسية ، وهو ما سيحدث للدولة العبرية أيضا في نهاية القرن عندما يفوق تعداد العرب تعداد اليهود . وفي هذه الحالة لايصبح الاسلام ثقافة الاقلية بل ثقافة الاغلبية ، وربما يتحول أيضا من ثقافة تحتية الى ثقافة فوقية .

٢ - قوة الاسلام في قلوب المسلمين تجعله قابلا للانتشار شيئا فشيئا خارج الابدان ، واكتساب أرضية اجتماعية وسياسية واقتصادية خارج قانون الاحوال الشخصية في المواريث وتحريم الربا وأحكام

السوق وربما يمتد ذلك الى أسس النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى للمجتمع كله الذى يغلب عليه المسلمون • وهنا يصح الاسلام ويكتمل ، ويخرج من الحوارى والازقة والزوايا والخائقات الى المدن الكبيرة والعواصم ويتمثل فى النظم والدساتير •

٣ - زيادة ارتباط المسلمين بالعالم الاسلامى واستثمار هذه الرغبة فى النفوس من خلال وفود الحج ، وأرسال البعثات الدينية الى الازهر الشريف والى جامعات العالم الاسلامى ، واعادة ربط الاطراف بالمركز فى مصر وما حولها والتغلب على الصعوبات القائمة من حيث عدد الحجاج المسموح بهم أو عدد الطلاب فى البعثات بصرف النظر عن حاجة المدارس الدينية فى الجمهوريات الاسلامية ، وطلب الكتب والمراجع ، والاموال ، والمساعدات بكافة أنواعها من أخوتهم فى الاسلام فى شتى أنحاء العالم الاسلامى • ودعوة أئمة المسلمين ومفكريهم وعلمائهم حتى يزيد وعيهم بالجناح الشرقى للاسلام •

٤ - استعمال المسلمين لكافة حقوقهم التى يكفلها لهم الدستور ومنها حق الانفصال عن الاتحاد السوفيتى فى أى وقت شاءوا • وقد ثبت هذا الحق عند توحيد الجمهوريات فى الاتحاد السوفيتى فى ١٩٢٢ • كما أن لكل جمهورية الحق فى اقامة علاقات مع الدول الاجنبية وابرام معاهدات معها وتبادل التمثيل الدبلوماسى والقنصلى وكذلك المشاركة فى نشاط الهيئات والمنظمات الدولية (١٨) • وأخذ ذلك فى الاعتبار دائما •

ليس الآن ولكن في المستقبل بعد ما يتغير ميزان القوى الدولية ، وتأخذ دورات التاريخ مجراها ، وتنشأ مراكز جذب جديدة في قلوب العسائم الاسلامى •

٥ - نقد المجتمع الروسى وبيان عيوب النظام الشمولى بالرغم من انجازاته العظيمة فى مجال الاقتصاد والانتاج والخدمات • والمشاركة فى الدعوة للحريات ، وزيادة أصوات المعارضة ، والدفاع عن حق الاجتهاد ، ومناصرة حركة المنشقين السوفيت مناصرة لبدأ حرية الرأى • وبالتالي يتحول الاسلام الى حركة اصلاحية داخل الاتحاد السوفيتى ويكمل أوجه نقصه •

٦ - ظهور الآداب الوطنية مثل الشاعر نوائى فى اوزبكستان وأهمية اللغات القومية ، وتشجيع الابداع المحلى للشعوب الاسلامية مفتتية آثار البيرونى والخوارزمى وغيرهم وتحول التراث المتحفى الى تراث حى فى قلوب الناس ، وارجاع الحقوق التاريخية لاصحابها • فبخارى وسمرقند وترمز كلها تنتسب الى ابداع الحضارة الاسلامية وليس الى الثقافة الروسية •

٧ - دخول الاسلام فى معارك الاشتراكية والتقدم ودخوله فى المعارك الوطنية لمناهضة الاستعمار والاستغلال والاحتكار ، ودخوله فى معارك المسلمين الكبرى مثل تحرير فلسطين من الاحتلال الصهيونى والتحرر من بقايا الاستعمار فى العالم الاسلامى ، والدعوة الى الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية • فالثورة الاشتراكية الكبرى ثورة اسلامية فى أهدافها ، تخرج من الاسلام ولا تكون ضده أو بديلا عنه ، وبالتالي تتحقق وحدة الشخصية القومية عند المسلمين ، فلا يكونون

مسلمين في جانب يعيشون في مجتمع اشتراكي تقدمي مناهض للاستعمار
والرأسمالية وفي جانب آخر لا يعلمون عنه شيئا .

ويكون واجبنا نحن بالنسبة لهم كالاتي :

١ - انفتاح المركز على الاطراف عن طريق ازدياد وعينا بهم
وارسال الاساتذة والمعلمين لهم في اللغة العربية والعلوم الدينية ،
والذهاب اليهم لزيارة الاقارب والجيران ، والاهل والاصدقاء . فبدل
أن ترسل الادارات الدينية طلابا لدينا لايزيدون على أصابع اليد
الواحدة نرسل اليهم بالمنح المالية لارسال المئات حتى يرجع كل منهم
داعيا للاسلام وجاذبا الاطراف نحو المركز من جديد ، ومدهم بالكتب
والمراجع القديمة والحديثة حتى يظل الرباط الفكري قائما وان استحال
رباط الجسد والمصاهرة .

٢ - الاستفادة بالخبراء المسلمين في الزراعة والصناعة . وقد
كان لدينا في مصر ١٧٠٠٠٠ خبيرا روسيا فلماذا لم يكونوا كلهم من
الجمهوريات الاسلامية ؟ يحضر كل منهم عائلته وأطفاله العشر فنرجع
الى الاتحاد السوفيتي ١٧٠٠٠٠ مسلما كاملا ، يتحدثون العربية التي
تعلموها في مدارسنا . لماذا يكون الخبراء السوفيت من الروس البيض ؟
ولماذا لا نطالب بمن يفهموننا ونفهمهم ويكونون بيننا أخوة ، قلوبهم
علينا ، ينفعوننا ولا يضرئوننا . وقد طالبت سوريا بنفس المطلب وتم
لها تحقيق ما أرادت في الزراعة . لماذا لا نطالب نفس الشيء في الجيش
والتدريب العسكري ؟ .

٣ - فتح الحدود بين الجمهوريات الاسلامية في الاتحاد السوفيتي

وجاراتها من الدول الاسلامية باكستان وايران وأفغانستان وتركيا مادامت جمهوريات مستقلة في قدرتها اتخاذ قرارها الخاص • وهنا يزداد ارتباط الاطراف بمناطق أقرب الى المركز والمحور وأكثر تفاهما معها داخل الاسلام الاسيوى خاصة وأن اللغة الفارسية أو الاوردية أو التركية من اللغات القومية المشتركة • فاللغة الاوزبكية نفسها لغة أكبر جمهورية اسلامية في الاتحاد السوفيتى ، احدى اللهجات التركية تجمع بين التركية والفارسية كما تجمع الاوردية بين العربية والفارسية •

٤ — ولماذا نظل نحن على علمنا بالعربية فحسب ، والفارسية والاوردية والتركية من لغات الامة الاسلامية ؟ لقد كنا ضحية الاستعمار اذ علمنا لغاته الفرنسية والانجليزية والالمانية والايطالية والاسبانية حتى يربطنا به لغة وثقافة الى الابد ، وأنسانا جناحنا الشرقى • وقد كان علماءنا يعلمون الفارسية والاوردية والتركية والسنسكريتية ومن ثم على علمائنا ألتقان اللغات الاسيوية حتى لا يتكلم علماء الروس البيض لغات الشعوب الاسلامية ونظل نحن العرب ننتظر من يترجم لنا منهم كى نفهم قومنا وأهلينا !

٥ — أن يقول علماءنا قول الحق ، وألا يقعوا تحت تأثير حسن الضيافة وكرم المئوى أو تحت تأثير الدعاية والاعلان أو تحت تأثير التغريب والاعجاب بالتقدم المادى والروح خاوية • فكثيرا ماعاد الزوار من علمائنا يشيرون بما رأوا ناسين الاسلام فى القلوب ، والحق أحسن أن يتبع • وليس أفضل عند الله من شاهد الحق ، وليس أضل لديه من شاهد الزور • أن أسماء بخارى وسمرقند وترمز لتثير فى نفوس المسلمين أكثر مما تثيره فى نفوس الروس البيض ، تثير فى نفوسنا اسلام ألف وأربعمائة عام وتثير فى نفوسهم مائة عام من القيصرية •

٦ - لقد آن الاوان للامة العربية ، قلب العالم الاسلامى أن تأخذ دورها فى التاريخ كمحور جذب واستقطاب لاطراف الامة الاسلامية ، والامة فى الاطراف تبحث عن هذا الدور فلا تجده • فالعراق جسر للامة الاسلامية فى آسيا خلال ايران وأفغانستان وليس نقيضا لها • كما أن ثورة ايران رصيد للمسلمين فى كل آسيا خاصة فى أفغانستان وباكستان • والمغرب بحفاظه على التراث الاسلامى فى الاندلس محط أنظار المسلمين فى آسيا • وتونس وجامعة الزيتونة أيضا تشخص اليها أبصار المسلمين هناك • ووثورة ليبيا ، ووثورة الجزائر ، كلها تبعث الامل فى قلوبهم • والحجاز له اجلال واكبار فى نفوس المسلمين • ومصر كعبة الاسلام ، وقلب المحور ، وبؤرة المركز تشخص اليها الأنظار ، ويدعون لها بالنهوض بعد الكبوة • وكيف تلتئم الاطراف نحو مركز العالم الاسلامى ، والمركز مغلق على نفسه يحتاج الى من يدق الابواب ؟ •

٧ - فاذا كان مشروع لينين الذى صاغه ابان الثورة الاشتراكية حفاظا على وحدة الدولة القيصيرية يتمثل فى احتواء الشعوب الاسلامية المجزئة داخل الاتحاد السوفيتى وحصارها حفاظا لها من العدوان الخارجى الغربى ، وتمثل ثقافتها داخل الثقافة السياسية الواحدة فان مشروع المسلمين اليوم بعد أن ثبتت الثورة الاشتراكية أقدامها ، وتأسست الدولة ، وأصبحت قوة عظمى ترهب غيرها وتمنعهم من العدوان عليها هو توحيد هذه الشعوب الاسلامية نظرا لما بينها من ارث حضارى مشترك ، وربطها كأطراف بجسد الامة الاسلامية وبمحاورها الاساسية ومركزها فى قلب العالم الاسلامى ، واحياء تراثها ودينها وثقافتها المحلية ، وتحويلها من ثقافة تحتية الى ثقافة قومية توجه حياة الناس الخاصة والعامة • وان أمة اسلامية واحدة مستقلة جناحها الشرفى

في آسيا وجنابها الغربى في افريقيا وقلبها في العالم العربى لخير ضمان
لحرية شعوب المنطقة واستقلالها وحفاظ لها من غزوات الاستعمار
واستغلال الرأسمالية واحتكارها وأطماع الصهيونية • ولا يضير الالتقاء
على الاهداف الاختلاف في الوسائل • ولا خير في أصدقاء لا ينفع بعضهم
بعضا •

خامسا : التجزئة والحصار (الهند وباكستان) •

لقد كان دور الهند في نشر الاسلام وحمل تراثه دورا بارزا بعد
العرب والفرس • فقد انتشر الاسلام من فارس الى الهند برا ، ومن
الجزيرة العربية الى شبه القارة الهندية بحرا • كما انتشر عبر غزوات
التتار والمغول من الشمال الى الجنوب حتى أصبح الاسلام الدين
الثانى في الهند بعد ديانات الهند التقليدية ، الهندوكية والبرهمانية
والبوذية • وقد قام السلطان « أكبر » ، والسلطان « محمود الغزنوى »
بنشر الاسلام وتوحيد الامة الهندية داخل الهند وخارجها ، وتوحيد شبه
القارة الهندية حول التوحيد حتى أصبحت الهند الرصيد البشرى
للمسلمين في افريقيا وآسيا •

ثم أتى الاستعمار وهو يحاصل الاسلام من البحار • فحاصر شبه
القارة الهندية من الجنوب ، وأراد أن يقضى على وحدة شعوب الهند
التي أقامها الاسلام فاتبع سياسة « فرق تسد » ، وأشعل حروب الطوائف
والديانات التي جلبها معه من الغرب بين البروتستانت والكاثوليك • فبدأت
مذابح المسلمين على أيدي الهندوس ، وأذكى التعصب الدينى وجهته
مرادفعا للوطنية عند « الشيخ » ، وجعل تسامح الاسلام وشموليته
مرادفا للغزو الحضارى وثقافة العرب الاغيار •

م • الحركات الدينية المعاصرة

وللخلاص من هذه المذابح أوحى بريطانيا بأن الحل هو التقسيم
كما فعلت في فلسطين في نفس الوقت في ١٩٤٧ بين العرب واليهود .
وكان التقسيم في كلتا الحالتين يعنى تسليم الهند للهندوس ، وطرد
المسلمين ، وتسليم فلسطين لليهود وطرد العرب . فحدثت الهجرات
الجماعية والنزوح البشرى وطفوفان الابدان . بدأ تجمع المسلمين اى
انعزالهم وحصارهم في رقعتين كبيرتين من شبه القارة الهندية في الشمان
لا رابط بينهما فيما يسمى بباكستان الشرقية وباكستان الغربية حتى
يسهل على الاستعمار فيما بعد قضم الدولة الجديدة وتجزئتها كما حدث
فيما بعد في ١٩٧١ بعد انفصال باكستان الشرقية وتكوين بانجلادش .
وهو ما يحاول الاستعمار أن يقوم به الآن في العالم العربى بعد تجزئته
الى دول مصطنعة بعد الحرب العالمية الاولى . وبعد انتشار النفوسية
العربية ومحاولتها توحيد هذه الدول بدأت خطة الاستعمار من جديد
برسم خريطة جديدة للمنطقة وتقسيمها الى دويلات طائفية ابتداء
من لبنان ثم سوريا ثم العراق ثم الجزائر . ومن يدري ماذا يخبى
الاستعمار للمغرب ودول الخليج ؟ أما حيدر أباد الدكن التى كانت دولة
اسلامية مستقلة ترتبط بالخلافة الاسلامية وتحتوى على كنوز التراث
الاسلامى تقوم بنشره وبتعريفه للناس ، مركز النشر الاسلامى فى
جنوب شبه القارة الهندية فقد تم القضاء كلية عليها داخل الهند
الجديدة ، وتم ابتلاعها داخل المحيط الهندى . أما كشمير التى تسكنها
أغلبية من المسلمين والتى كان يمكن أن يربط باكستان الشرقية وباكستان
الغربية وأن تكون حزاما من المسلمين من الشمال مع حزام آخر من
الجنوب فى حيدر أباد الدكن فينتشر الاسلام فيما بينهما وتصبح شبه
القارة كلها اسلامية فى مستقبل التاريخ فقد فصلها الاستعمار عن
باكستان الغربية ووضعها تحت الانتداب أو وصاية الامم المتحدة .

يغازل بها الهند ، ونقوم الهند بسياسة التهجير حتى تحول الاغلبية الاسلامية الى اقلية والاقلية الهندية الى اغلبية ، ثم يتم الاستفتاء فيما بعد حتى تنضم كشمير ، جنة الله على الارض ، التي يقال أن آدم نزل بها ، الى الهند أو على الاقل تظل سببا لاذكاء الصراع بين الهند وباكستان حتى يخشى الهنود الاسلام ويعادونه الى الابد (١٩) .

لم يجد المسلمون مخرجا من هذه المذابح التي أذكاها الاستعمار الا تجميع كتلهم البشرية والبحث عن رقعة متجانسة من الارض واقامة دولة تحميهم . وهكذا نشأت باكستان أملا في قلوب المسلمين في الهند ، ورأى فيها المسلمون تكوين أول دولة اسلامية نشأت على الاسلام ربما تكون عزاء لهم عن ضياع الخلافة في تركيا . وارتبطت بها كل الاتجاهات التحديثية والحركات الاصلاحية في العالم الاسلامي خاصة بعد نضال محمد على جناح ، وصياغة أيديولوجية اسلامية لنهضة المسلمين عند محمد اقبال . ولم يكن المسلمون حينئذ على وعى بما يخطط لهم الاستعمار في الظاهر دفاعا عن المسلمين بانشاء دولة باكستان ، وفي الباطن عزل الاسلام وتجزئته وحصاره وأبعاده عن شبه القارة الهندية . فما ظنه المسلمون خيرا هو في حقيقة الامر شر مستطير .

وكانت النتيجة أن أصبح المسلمون اقلية في الهند لا أثر لهم ،

(١٩) لم نشأ التفصيل في هذا الجزء نظرا لتعرض دراسة « الاسلام والاستعمار لذلك . » كما أنه ليس لدينا تجارب مباشرة عن أحوال المسلمين في الهند وباكستان وأندونيسيا والملايو والفلبين وتركيا . وسنعتد على إعادة بناء الموقف التاريخي للمسلمين ابتداء من الاسلام كتجربة حية في شعور المسلمين ابتداء من العلوم التاريخية .

وبالتالى تم حصار المد الاسلامى فى شبه القارة ، والاسلام بلا انتشار
ضمور وانحسار ، فقوة الاسلام فى انتشاره الطبيعى . كما هاجرت
الاقلية المسلمة من الهند الى مناطق تجميع المسلمين فى باكستان ، فانتهت
مراكز التجميع الاسلامية داخل شبه القارة ، وقضى على هذه البؤر
الاسلامية التى كانت مركز اشعاع حضارى داخل الهند . وتم تجزئة
المسلمين بين باكستان الشرقية وباكستان الغربية ببعدها عن بعضهما
البعض مئات الاميال مع ثقة الاستعمار بأن التخلف قادر على اذكاء روح
الفرقة بين جناحى الدولة الجديدة واثارة النعرات القبلية واللغوية .
وكيف يعيش جناحان بلا قلب نابض أو بلا قلب على الاطلاق ؟ لقد
ظل الاستعمار يغذى روح الانفصال بين المنطقتين ، وكانت الهند فيما
بعد أداة تحقيق هذا الانفصال بالفعل حتى لا تنشأ بجوارها دولة قوية
تكون محور جذب للمسلمين فى شبه القارة على حدودها الشمالية .
وكانت الهند على ثقة من أن سياسة عدم الانحياز ، وما تمثله بالنسبة
الحركات الوطنية فى آسيا وافريقيا ستكون عوناً لها وكسباً للتأييد الدولى
ضد باكستان المتحالفة مع الغرب والتى تمثل نظاماً رأساليا رجعيًا
تعمل كل الشعب المتحررة حديثاً على التخلص منه .

وبعد أن حقق الاستعمار هدفه من « فرق تسد » وفصل باكستان
عن الهند اتبع سياسة الاحتواء فى باكستان نظراً لان الحركة الوطنية
الهندية كانت مناهضة للاستعمار فصعب على الاستعمار احتواءها .
احتوى الاستعمار باكستان ، وجعلها جزءاً من خطته فى المنطقة لحصار
الاتحاد السوفيتى ، ومناهضة حركات التحرر الوطنى فى العالم العربى
والاسلامى . حاول الاستعمار جعل باكستان ركيزته فى آسيا جنوب
الاتحاد السوفيتى وشرق العالم العربى شمال الهند وغرب الصين حتى
تكون بؤرة للعرب فى آسيا . ورسم لها المخطط الآتى :

١ - تركيز الاقطاع كنظام دائم للدولة الجديدة حتى يظل المسلمون تحت لواء الاقطاع ، وحتى يعم الفقر الاغلبية ، ويظل المال بأيدي الاقلية خشية من المساواة والعدالة الاجتماعية في الاسلام والثورة الاشتراكية الاسلامية دون أن يعلم أنه بهذا المخطط يرسخ جذور الثورة ، ويولد حركات المعارضة الاسلامية ، وكأن الاستعمار لا يريد الا الحاضر ، ويرى فيه أمانا من غائلات المستقبل . والحاضر الاسلامي في حقيقة الامر هو « كمون » للمستقبل الاسلامي قد يظهر « طفرة » كما حدث في الثورة الايرانية .

٢ - الابقاء على النظام الرأسمالي ، وذلك من أجل استنزاف اموال أمراء الاقطاع وتوظيفها لصالح الغرب كما هو حادث في عائدات البترول في العالم الآن ، وتكوين حزب اسلامي من أمراء الاقطاع وكبار الرأسمالين موال للرأسمالية الغربية في مقابل حزب المؤتمر الهندي . فالرأسمالية لا وطن لها ، ورأس المال لا يبغي الا صالحه الخاص . وبالتالي تخرج باكستان عن نموذج « الطريق الملائم للتنمية » الذي حاوله العالم الثالث .

٣ - الابقاء على فقر الاغلبية ، وعدم الاسهام في أية مشاريع جادة للتنمية الاقتصادية في الصناعة أو الزراعة فظل الفيضان يحدس بالآلاف سنويا دون أية مشاريع للسيطرة على المياه وتخزينها كما حدث في مصر ، بالاضافة الى انتشار الامية حتى تظل باكستان لعدة أجيال نموذجا للنظم المنقررة في العالم .

٤ - ربط الدولة الجديدة بالاحلاف العسكرية ، ووضعها تحت مناطق النفوذ الغربي في حلف جنوب شرقي آسيا ، حلف بغداد أو الحلف

المركزي • والهدف منها ليس الدفاع عن باكستان ، فقد تركها المغرب فريسة للغزو الهندي لجناحها الشرقى فى ١٩٧١ ولكن للدفاع عن مصالح الغرب فى آسيا ، وتهديد الاتحاد السوفيتى ، واخراجها من القارة الاسيوية ، بعيدا عن جذب مراكزها وبؤرها الثورية فى الاتحاد السوفيتى أو الصين أو فيتنام •

٥ - خلق طبقة من العسكريين وجنرالات الجيش موالين للغرب ، يستعملهم لتدبير انقلابات لصالحه اذا ما حانت لحظة الثورة الشعبية كما يفعل فى أمريكا اللاتينية ، واحتواء العسكريين خشية أن تتحول الى قوى وطنية تعبر عن مصالح الشعوب كما حدث فى الثورات العربية الاخيرة ، على الاقل فى بداياتها ، وخلق التنافس بين الجنرالات حتى يدين الجميع بالطاعة ويتسابقون على الولاء للغرب •

٦ - الاغراء بالسلاح النووى لاستنزاف ثروات البلاد واستثمارها فى صالح الغرب ، واستعمال هذا السلاح كما يشاء الغرب كجزء من دفاعاته ضد الاتحاد السوفيتى وليس ضد الهند أو فى صالح الشعوب العربية والاسلامية فى مقابل تسليح اسرائيل النووى ، وحتى يظل تسليح الجيش فى يد الغرب وتحت سمعه وبصره •

٧ - حصار العالم العربى الذى بدأت فيه الثورات الوطنية مناهضة للاستعمار الغربى ، تقاوم الاحلاف العسكرية ، وتدعو الى ثورة اشتراكية مناهضة للرأسمالية والاقطاع ، وتدافع عن الاستقلال الوطنى للشعوب ، وتكوين اقتصاد وطنى مستقل ، ومناهضته للصهيونية ، ركيزة الغرب فى المنطقة وجسر الاستعمار فيه ، وتوحيد المنطقة كلها تحت لواء

القومية العربية بقيادة الناصرية التي ترى الدائرة الاسلامية أحـد
دوائرها •

٨ — شق الامة الاسلامية الى شقين أعجمى وعربى ، الناطق
بالانجليزية (الاوردية أو التركية) والناطق بالعربية حتى يظهر نموذجان
للمسلمين تحتار بينهما كوريث للنموذج القديم : شيعة وسنة • ثم يدب
المخلاف بين شقى الامة كما فعل الغرب بنفسه بين البروتستانت
والكاثوليك • ويتساءل الغرب أى اسلام ؟ مادام هناك اسلامان فاذا ذكر
الاسلام الثورى ذكر الاسلام الغربى ، واحد بواحد ، وشاهد بشاهد •

٩ — ربط الدولة الجديدة كما ارتبطت الهند من قبل من خلال
اللغة الانجليزية بثقافة الغرب ، واعتبار بريطانيا نموذج التحديث ،
وأسلوب الحياة البريطانى أسلوب الرجل المهذب حتى يتم القضاء
على الروح الاسلامية فى الثقافة وفى السلوك اليومى • وقد حاول
الاستعمار البريطانى نفس الشئ مع مصر والعراق والاردن ، وحاول
الاستعمار الفرنسى ذلك أيضا مع تونس والجزائر والمغرب •

١٠ — اخراج دعوات دينية اصلاحية موالية للغرب مثل القاديانية
والبهائية والاحمدية ، وتقوية المذاهب التقليدية واحتوائها والدفاع عنها
والدعوة لها مثل الاسماعيلية حتى ينفـر المسلمون المستنـيرون من
الاسلام ، وتربية مسلمين مواليين للغرب مثل السيد أحمد خان •

١١ — تغذية القوميين الهنديـة والباكستانية حتى لا يجمع الهند
وباكستان أى رباط آخر فكرى أو دينى أو تاريخى أو حضارى أو ثقافى •
وتحويل معركة باكستان من الغرب مع الاستعمار الى الشرق مع جارتها

الهند • ولما كانت الهند بمواقفها الوطنية ومعاداتها للاستعمار ، —
وتأسيسها حركة عدم الانحياز تحظى بتأييد شعوب العالم الثالث ؛
نشرت هذه الاخيرة من باكستان ، الدولة المسلمة ، وعادت الاسلام في
شخص باكستان •

١٢ — تفتتت دولة باكستان ذاتها في أقرب فرصة حتى يسهل
ابتلاعها كلية من الاستعمار خشية أن تصحوا الدولة يوما بإمكانياتها
البشرية وباستقطابها المسلمين في آسيا ، وبعد نشأة تيارات اصلاحية
أثرت في العالم العربي مثل تيار « الجماعة الاسلامية » التي أسسها
الامام أبو الاعلى المودودي وأثره على الجماعات الاسلامية في العائم
العربي خاصة في مصر عند جماعة « الاخوان المسلمين » (٢٠) •

وحدث الانفصال بالفعل نتيجة للغزو الهندي في أواخر ١٩٧١ بين
باكستان الشرقية وباكستان الغربية كما خطط الاستعمار وتكونت دولة
جديدة بنجلاديش أصبح يضرب بها المثل في الفترة والتخلف والامية
والاقطاع والتسلط تشويها للاسلام ، يصور المسلمين يقتلون بعضهم
بعضا ، قبائل متوحشة لا تأخذ رافة بالانسان بينما صيحات الغرب
الانسانية تدوى في الآفاق رحمة بالفقراء والمعذبين والجرحى باسم
المسيحية ! وكانت النتيجة كالاتى :

١ — ازدياد الفقر ومشاكله التي لا تنتهى حتى أصبح يضرب
بالمسلمين المثل في الفقر في العالم • فالمسلمون يموتون جوعا في وقت

(٢٠) أنظر مقالنا « أثر أبى الاعلى المودودي على الحركات الدينية
المعاصرة » ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ١٩٨٠ •

تتكسد فيه عائدات البترول من باقى المسلمين فى الحجاز والعراق
وشمال افريقيا • بالاضافة الى الامية والتخلف وعدم وجود فنيين
وطنيين قادرين على التخطيط والتنمية •

٢ — العجز أمام الفيضانات التى تؤدى بحياة الآلاف من المسلمين
سنويا وكأن الله لم يسخر الطبيعة للانسان • وبالتالي يموت المسلمون
فى العالم الاسلامى اما من الفيضان فى بنجلاديش أو من المقط فى تشاد
بسبب عجز المسلمين عن السيطرة على قوائين الطبيعة ، وكان الآلاف من
الجثث الادمية التى تعرضها أجهزة الاعلام الغربية يجرفها التيار
لا انسانية لها •

٣ — سيادة الروح القبلية العشائرية ، ونفتيت الامة الاسلامية
أكثر فأكثر طبقا للغة والقبيلة والعادات والعرف والتقاليد بل ولون
البشرة مما يهدد بقايا الوحدة ، ويهدد الامة كلها بتحويلها الى وحدات
صغيرة يسهل على الاستعمار ابتلاعها كما يحدث الآن فى لبنان والشام
فى انشاء دويلات الطوائف وكما حدث فى الاندلس أيام ملوك الطوائف •

٤ — نظرا لضعف الدولة وعدم وجود مقومات للحياة الاقتصادية
فانها تعتمد فى حياتها على الغرب فلا تخرج عن النفوذ الغربى تماما مثل
اسرائيل مع فارق ان اسرائيل فى علاقتها مع الغرب هى السيد فى حين
أن الغرب فى علاقتة مع بنجلاديش هو السيد •

٥ — ثم تأتى المعونات الاقتصادية والاغذية والادوية والاغذية
من الجمعيات الخيرية المسيحية والكنائس العالمية وبالتالي تبدو المسيحية
أكثر رحمة بالبشر من الاسلام خاصة اذا نهب أمراء المسلمين وحكام

المقاطعات الدقيق ، وجددوا البيوت والاثاث من المعونات ، وبنوا القصور بالاموال والهبات • والغرب مسرور لاقناع المسلمين بمزايا المسيحية على الاسلام • هكذا يفعل الاسلام بهم وهكذا تفعل المسيحية بهم ، فيتم تحويل المسلمين الفقراء الى المسيحية أو تربية الاطفال والايتام في دور الكنائس ، وعلى هذا النحو أصبحت بنجلاديش مرتعا للتبشير ، والتبشير مقدمة للاستعمار ومرسخ له •

وفي كلتا الدولتين ، باكستان وبنجلادش أصبح وضع الاسلام كالاتى :

١ — طقوس وشعائر ورسوم لاتغير من الواقع الاجتماعى والسياسى شيئاً ، وبالتالي شارك الاسلام في باكستان الاسلام في السعودية ، ومن هنا نشأ الاتفاق في المزاج والرؤية والوظيفة للدين بين النظامين •

٢ — اقامة الدولة الاسلامية ، وصياغة الدستور الاسلامى . وتأسيس النظام الاسلامى أصبحت كلها شعارات كما هو الحال في الحجاز ومصر وكان الاعلان عن الهدف يكفى لان تكون الدولة كلها اسلامية كما حدث بعد الدعوة الوهابية في الحجاز ، والدعوة الحالية في مصر بعد انحسار الثورة وحاجة المجتمع الى شرعية جديدة • وهى دعوات في حقيقة الامر يخفى ظاهرها غير باطنها وتهدف الى التستر على مايدور في الواقع من نظم لا اسلامية مثل ، الاقطاع ، والرأسمالية ، والدكتاتورية • وطالما استشهد الغرب بالدول الاسلامية في السعودية وباكستان حتى يشوه الاسلام في ذهن الناس وينفر منه المسلمين المستنيرين •

٣ — تحويل الاسلام الى مناقشات فكرية ونظرية نظرا لتغلغل التراث الغربى فى الهند • خرجت مناقشات نظرية عن الاسلام والغرب، والاسلام والتحديث، والنظام الاسلامى، وأصبح الفكر الاسلامى فى باكستان، من الناحية النظرية أكثر تقدما من حيث مجابته لمشاكل العصر بين الفكر الاسلامى فى العالم العربى • وفى نفس الوقت كثرت الدعوات المشبوهة التى يختلط فيها الاسلام كستار بالاهداف الغربية كحقيقة وواقع •

ولكن بدأت ظواهر جديدة فى باكستان تدعو الى الامل منها :

١ — مناصرة الثورة الايرانية من الجماهير الاسلامية بالرغم من تخوف نظم الحكم فيها خاصة فى الصراع بين الثورة الاسلامية فى ايران والاستعمار الأمريكى، وبداية الشعور الاسلامى الشعبى المعادى للغرب ولاريكا بوجه خاص •

٢ — مناصرة الثوار المسلمين فى أفغانستان بصرف النظر عن التقاء المصالح فى الدفاع عن الاستقلال الوطنى لافغانستان بين الامة الاسلامية والغرب، وفتح حدود باكستان لمساعدة الثوار المسلمين بصرف النظر عن استغلال الغرب والنظم الرجعية فى المنطقة هذه المعارضة لصالحه الخاص •

٣ — بداية خروج باكستان من الاحلاف العسكرية الغربية، وحرصها على الاستقلال الوطنى، واقترابها من الهند، ورجوعها الى دول عدم الانحياز، مما يجعلها احدى دول آسيا وأفريقيا وليست نموذجا ممسوخا للغرب فى آسيا •

٤ — ازدياد الارتباط بالوطن العربي ، وضمها الى مركز العالم الاسلامى ، ومناصرتها لشعب فلسطين ، والنزول بثقلها العسكرى فى القضايا العربية بصرف النظر عن النظم القائمة فيها ، وتجاوز الشعور الاسلامى فيها الهوى الغربى .

٥ — ظهور دعوات اسلامية مثل « الجماعة الاسلامية » تعرض الاسلام ككل ، وتدين الواقع بأكمله ، وتريد البداية من جديد كما بدأ الصحابة الاوائل ، وأثر هذه الجماعة على الجماعات المشابهة فى الوطن العربى وامتدادها فى جماعة « الاخوان المسلمين » .

أما عن امكانيات المستقبل فاننا نرصدها على النحو التالى :

١ — أن تتحول مفاهيم اقبال حول الذاتية ، والامة ، والعمل ، والطاقة ، والحركة الى أيديولوجية ثورية لاعداد المسلم لبناء الامة الاسلامية .

٢ — أن يتم التعريب حتى تقترب أطراف العالم الاسلامى من مركزه أكثر وأكثر وأن تنتم لدينا أيضا « أسلمة » لغاتنا الاجنبية حتى نرتبط بجناحنا الشرقى الاسلامى فى آسيا أكثر من ارتباطنا بالغرب .

٣ — أن تبدأ فيها الثورة الاسلامية بعد أن تم حصارها بالثورة الاسلامية فى ايران وبالثوار المسلمين فى أفغانستان ، وأن يولد وجود الثورتين فيها قوى اسلامية ثورية وطنية كما حدث من وجود المقاومة الفلسطينية فى لبنان ، وتفجير الصراع الاجتماعى والوطنى .

٤ — أن تبدأ وحدة المسلمين فى قلب آسيا بباكستان وايران

وأفغانستان كمحور جذب لباقي الاطراف في آسيا للمسلمين في الهند والصين ، وامبراطورية المغول وآثار تيهور لنك ليست بالبعيد •

٥ — أن تكون مركز جذب آخر للمسلمين في الاتحاد السوفيتي حتى يشعر المسلمون هناك بأن الاسلام قد عاد من جديد في ايران وأفغانستان وباكستان ، ولاريب أنه عائد في أذربيجان وتركمانيستان وبلاد ماوراء النهر •

٦ — أن نبدأ بنقد الحضارة الغربية نظرا للاطلاع الواسع على الثقافة العربية فتنشأ لديهم بدايات علم « الاستغراب » في مقابل « الاستشراق » حتى تتخلص من « التخريب » وتبدأ في اكتشاف أصلتها وبعدها التاريخي •

سادسا : التبشيري والاستعمار (أندونيسيا ، الملايو ، الفلبين) •

علاقة التبشير والاستعمار علاقة مزدوجة ومتبادلة أما أن يبدأ الاستعمار أولا كى يمهّد الطريق للمبشرين لتدعيم الاستعمار عن طريق الدين واللغة والثقافة والعادات والتقاليد واما أن يبدأ التبشير ليمهد الطريق بعد ذلك أمام الاستعمار بعد استئناف الناس وتخريب وعيهم وجعلهم لقمة سهلة في فم الاستعمار • وكلما ابتعدنا عن مركز العالم الاسلامى الى أطرافه وأصبح المسلمون أقلية وسط الديانات الاخرى في آسيا تبدأ حملات التبشير بين المسلمين وجميع الديانات غير المسيحية الغربية • فالمبشرون يرون الاسلام كالبوذية والبرهمانية والكونفوشيوسية ديانات غير متطورة أقرب الى الوثنية منها الى الدين الحق الذى يمثله المسيحية •

وتتسند حملات التبشير عندما يكون النظام القائم في دول جنوب شرقى آسيا رجعيا مواليا للغرب فيفسح المجال للنشاط الغربى فى البلاد وعلى رأسه حملات التبشير والاحلاف العسكرية والشركات الاقتصادية المتعددة الجنسيات . وقد حدث ذلك فى أندونيسيا عندما اتسند نشاط الكنائس فى الآونة الاخيرة مما اضطر السلطات لوضع قانون ١٩٧٨ يحد من هذا النشاط بعد حركات المعارضة الاسلامية له .

ولكن الاسلام الشعبى يظهر فى حركتين : الثقافة الوطنية ، والاتجاهات التقدمية الاشتراكية . فبالرغم من محاولة الغرب دفع شعوب شرقى آسيا الى العلمانية وتعدد الاديان الا أن الاسلام ظل متوحدا بالثقافة الوطنية عند الشعوب . أراد باسم العلمانية أن يقضى على الثقافات المحلية وزرع الثقافة الغربية باسم المدنية والعلم والحضارة العالمية التى يشارك فيها الناس جميعا . كما أراد باسم تعدد الاديان القضاء على الاسلام باعتباره ديننا طبيعيا متوحدا مع الثقافات المحلية وافساح المجال لزرع ديانات غربية مثل المسيحية الغربية . ويتضح ذلك فى جاوه أكبر جزر أندونيسيا عندما توحد الاسلام مع الثقافة الوطنية فى جاوه حتى أنه ليصعب التمييز بين الاثنيين . لذلك ظهر الاسلام فى أندونيسيا ثقافيا محليا وليس شعائريا طقوسيا ، اسلام حضارة وليس اسلام عبادة . وكما يتضح ذلك فى الحزبين الاسلاميين الكبيرين : المحمدية ، ونهضة العلماء . يغلب على الاول الدعوة الاسلامية وانتشارها بين الوطنيين ، ويغلب على الثانى النهضة الحضارية الاسلامية .

أما بالنسبة للاتجاهات التقدمية الاشتراكية فقد كان المسلمون يكونون جزءا من الجبهة الوطنية التى أسسها سوكارنو والتى استطاع

بها تحرير أندونيسيا من الاستعمار الهولندي • كان المسلمون والماركسيون والوطنيون يكونون جبهة واحدة مناهضة للاستعمار ، تقدمية اشتراكية • كان الماركسيون مسلمين من حيث المضمون دون الشكل وكان المسلمون مسلمين مضمونا وشكلا • وقد تكرر ذلك من جديد في الجبهة المتحدة التي شكلها حزب « سرقة اسلام » ، والحزب الشيوعي الاندونيسى • وكما اتحد الاسلام من قبل بالثقافات الوطنية فانه اتحد أيضا بالحركات الوطنية التقدمية والاشتراكية والتي ساهمت جميعا في صياغة المبادئ الخمسة التي يقوم عليها الدستور : الايمان بالله ، احترام الانسان ، الوحدة الوطنية ، الديمقراطية ، العدالة الاجتماعية • كما توحد الاسلام مع حركات المعارضة للتسلط الداخلى والاستغلال الخارجى كما هو واضح في « الحركة الطلابية الاسلامية » • وقد وضح لدى الجماهير المسلمة في أندونيسيا أصل الجهاد في الاسلام فنشأت حركة « جهاد » من أجل التعبير عن الاسلام المترجم بالقضايا الوطنية • فالاسلام في أندونيسيا اذن حركة ثقافية وحركة سياسية يمثل ثقافة وطنية وحركة تحرر وطنى لشعب أندونيسيا •

وقبع الاسلام الشعائرى الشكلى ، وانزوى عند بقايا أمراء الاقطاع أو رجالات الجيش • فاصطادهم الاستعمار ، وكانوا فريسة سهلة له ، فقام الانقلاب الغربى الرجعى ضد الحكم الوطنى ، وعاد الاسلام الشكلى الغربى التقليدى الى الظهور ، وظهرت نعمة الغرب الدائمة عند المسلمين : « الاسلام في مواجهة الالحاد » •

وإذا كان المسلمون في أندونيسيا يكونون حوالى ٩٠ ٪ من مجموع السكان فانهم في الملايو يكونون حوالى ١٢٥ مليوناً حوالى ٦٠ ٪ من السكان نظرا لوجود حوالى ٣٠ ٪ من الصينيين بالاضافة الى ١٠ ٪ من

الهنود . وكما اتحد الاسلام بالثقافات الوطنية في الملايو حتى أصبح دخول الناس في الاسلام Islamization مساويا للتأكيد على الهوية الملاوية Malayizition لذلك قام الاستعمار والتبشير بحملات ضخمة من أجل نشر المسيحية الغربية بعد ما انزعج من سرعة انتشار الاسلام بين الوطنيين ، واتحاد الاسلام بالثقافات الوطنية وتوليد حركات تحرر وطني مناهضة للاستعمار ، ولكنه لم ينجح في مهمته . فقد بدا للشعوب أن الاسلام هو الوطنية في الثقافة والسلوك وأن التبشير هو الغرب . الاسلام هو الثقافات المحلية والتبشير هو القضاء على الثقافات الوطنية Acculturation و زرع الثقافة الغربية محلها . الاسلام هو تأكيد الانا والتبشير هو الاغتراب ، ضياع الانا في الآخر . الاسلام هي الطبيعة وحياة الناس ورعاية مصالحهم بما لديه من قدرة على التنوع والتمثل واثبات الخصوصية . ويشترك « حزب الوحدة الملاوية الاسلامية » الآن مع الاتجاهات الوطنية التقدمية الدعوة الى « الاشتراكية الاسلامية » والعودة الى الاصول الاولى .

وفي الفلبين حيث بدأ الاستعمار الاسباني بعد سقوط غرناطة في ١٤٩٣ الالتفاف حول العالم الاسلامي من البحار واحتل جزر الفلبين وسماها في ذلك الوقت « الامة المورية » نسبة للمسلمين في اسبانيا « المور » . وقد بدأت حركة التحرر الوطني لديهم ممثلة في « الجبهة الوطنية للتحرير المورى » منذ عشرات السنوات للتأكيد على هوية المسلمين الذين يتجمعون أساسا في الجنوب في « مندناو » مدافعين عن استقلالهم الذاتي ضد صنوف الارهاب من الحكومة التي ورثت الطغيان الاسباني ثم الياباني ثم الامريكى في النهاية . وقد كلف ذلك المسلمون حتى الآن ٥٠٠٠٠٠٠ قتيل بالاضافة الى ٥٥٠٠٠٠٠ لاجيء . اتحد الاسلام أيضا بالثقافات المحلية ، وأصبحت اللغة العربية هي لغة الثقافة . ويمثل

المسلمون هناك ، وهم حوالى اثنان مليوناً ونصف ، أكبر تجمع اسلام فى جنوب شرق آسيا خارج أندونيسيا والملايو . ويتركز المسيحيون فى الشمال . ويحاول النظام الرجعى العربى فى الشمال القضاء على النزعات الوطنية الاستقلالية عند المسلمين فى الجنوب . ففى كل مكان فى آسيا يصبح الاسلام مرادفاً لحركة الاستقلال الوطنى وتأكيد الهوية القومية .

وفى تايلاند يكثر المسلمون على حدود ماليزيا ، حوالى المليون ، ويصبحون أقلية . يطردون بالآلاف من البلاد وكأنهم عنصر دخيل على الديانات القائمة لان الاسلام يمثل التحدى الحقيقى للنظم السياسية القائمة الموالية للغرب بما للمسلمين من قدرة على المصمود ، ومواصلة النضال والجهاد فى سبيل الله ، والانصهار بالاجناس ، وتمثل الثقافات المحلية .

وفى بورما يبلغ المسلمون أيضاً حوالى المليون على حدود بنجلاديش . قامت، ضدّهم أكبر حملة ارهاب فى ١٩٧٨ فهربوا وهلكوا بالآلاف لانهم يمثلون عنصر جذب للوطنيين ، وبؤرة انتشار وتكاثر . وفى سنغافورة يبلغون حوالى نصف المليون من الملاويين محاصرين بأغلبية من الصينيين . والمسلمون فى كمبوديا وفيتنام أقلية داخل البوذية قد يخرقون الحصار يوماً ما .

سابعاً : نهاية العلمانية والتغريب (تركيا) .

ظهرت بوادر النهضة الاسلامية الجديدة فى تركيا وكأن الرجل المريض الذى كان يضرب به المثل منذ أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن قد دبت فيه الحياة من جديد من خلال أحفاد أصحابه ، يبعثون الامل والحياة فى سلالة الاسرة من جديد .

م ٦ الحركات الدينية المعاصرة

كانت الثورة الكمالية في ١٩٢٣ نتيجة طبيعية لما وصل اليه حال الخلافة الاسلامية ومركزها في استانبول : قهر وطغيان وتسلط ، فقر وتخلف ، جهول وخرافة ، هزائم عسكرية متوالية ، دسائس ومؤامرات ، أطماع شخصية ... الخ . وكان من الطبيعي أمام النموذج الغربي الناجح أن ينشأ « الضباط الاحرار » أو جماعة « الاتحاد والترقي » من أجل القيام بانقلاب لتغيير الاوضاع وتبني النموذج الغربي العلماني في شتى مظاهر الحياة ، في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتشريع بل حتى في اللغة وأسلوب الحياة من لباس وسكن . فوضع التقدم ضد التخلف ، والحرية في مقابل التسلط ، والغرب في مواجهة الاسلام ، والعصرية على النقيض من التراث .

ولكن بعد جيل واحد ومنذ الحرب العالمية الثانية رأى المسلمون

الآتي :

١ — موالاة تركيا في نظامها الجديد للغرب ، والدخول معه في أحلاف عسكرية ، حلف بغداد ، الحلف المركزي ، وجعل أرضها مرتعا للقواعد الاجنبية . ففقدت استقلالها الوطني ، وتغير الحال منذ الخلافة . فبعد أن كانت جيوش تركيا في كل مكان في العالم الاسلامي ، تدافع عن وحدته واستقلاله ضد الحركات الانفصالية والاطماع الغربية أصبحت قوات الجيش الامريكى على أرضها تدافع عن المسكر الغربي الذي كان يطمع في تمزيقها بالامس القريب .

٢ — اقتصاد غربي رأسمالي منهار ، يعيش على معونات أجنبية . بعد أن كانت تركيا الباد الزراعي الصناعي الاول ، وتحويلها الى مجرد تجميع لصناعات الغرب أو أسواق لتصريف منتجاته أو أيدي عاملة في

دولة صناعية • عم الفقر في البلاد ، وتفاوتت الدخول بين الاغنياء والفقراء ، وزاد الفقراء فقرا والاغنياء غنى حتى أصبح يضرب به المثل أيضا كنموذج للبلاد المتخلفة •

٣ — « التغريب » : في الحياة العامة ، وغربة الاجيال عن ماضيها . وانقطاع حاضرها عن ماضيها حتى ساد الغرب الشرق بعد أن كان الشرق يشع على الغرب • أصبحت تركيا « قطعة من أوربا » كما حاول الاستعمار مع مصر أيام اسماعيل ، وأصبح مضيق « البوسفور » معبوا من الغرب الى الشرق بعد أن كان معبرا من الشرق الى الغرب •

٤ — نشأة التيارات السياسية الجذرية مثل الماركسية وجماعات المعارضة واتحادات الطلاب والتنظيمات السرية التي ترفض كل ماهو موجود من تغريب ورأسمالية حتى أصبحت خطرا يهدد النظام القائم مما دفع أمريكا بالاسراع بتدبير الانقلاب لاستيلاء الجيش على السلطة خوفا من اليسار الوطنى أو من الثورة الاسلامية •

٥ — اذكاء روح القومية التركية ، وانفصالها عن الاسلام كوحدة سياسية شاملة ، والثناء على الثورة الكمالية وتأييدها وتشجيعها ، والمشاركة في تصدير النموذج الغربى في القوميات المتصارعة ، وتحديد القومية بالارض والانهار والجبال والوديان والبحار فتنشأ الخلافات على الحدود •

٦ — معاداة القومية العربية ، وقطع لواءى الاسكندرونة وقطن ، من سوريا ، واذكاء التعارض بين القوميتين التركية والعربية بل واقامة معارك على الحدود ، ووصف الاتراك بالمستعمرين ، وحكم الاتراق

بالاستعمار التركي ، والايهام بوقوف الغرب ، انجلترا خاصة ، بجانب العرب ضد الاتراك ، اثر الحرب العالمية الاولى حتى ينقلب العرب على الاتراك ، ويقضى على وحدة الامة الاسلامية :

٧ — الاعتراف باسرائيل ، وضرب العرب في أعز امانيهم القومية ، بل ووضع القواعد العسكرية الامريكية على أراضيها تحت تصرف قوات الغزو على الامة العربية ، فأصبحت تركيا والاستعمار واسرائيل جبهته واحدة ضد الامة العربية عامة وشعب فلسطين خاصة •

٨ — وكرد فعل لمعاداة الاتراك للعرب ، عادى العرب الاتراك وكأنهم ليسوا مسلمين ، فناصر العرب اليونان على الاتراك في قبرص . كما أيدت اليونان العرب ضد الاتراك في فلسطين • ونسى الجميع أنهم كانوا أمة واحدة لمئات السنين حتى الامس القريب •

وهنا تذكر الناس أن الحاضر ليس بأفضل من الماضي وأن هذا الامس القريب لم يكن أسوء حالا من الحاضر • وتذكروا :

١ — حفاظ السلطان عبد الحميد على وحدة الامة ، ومقاومة الحركات الانفصالية للقوميات بالرغم من ادانتهم لوسائل القمع والاضطهاد المتبعة لتحقيق هذا الهدف • فالامة الاسلامية الواحدة لاتنفى تعدد القوميات داخلها على قدم المساواة •

٢ — الحفاظ على فلسطين ، ورفض كل العروض لشرائها أو استئجارها أو استعمالها أو أخذها رهنا مقابل مبلغ من المال كانت الدواة في أشد الحاجة اليه • كما رفض بدايات الهجرة اليهودية الى فلسطين وحددها ، وبالتالي لم تضع فلسطين •

٣ — فتوحات الجيش التركى فى أوربا ، وانتشاره فى دول البلقان بالرغم من ادانتهم لوسائل الاحتلال والقمع والسيطرة التى قام بها الجيش لشعوب البلقان التى تخصصت أجهزة الاعلام الغربية فى تصويرها . فالاسلام يفتح البلاد ، وينشر الحرية والعدالة والمساواة ، ويصاهر المسلمون الشعوب ويختلط دماؤهم بدمائهم ، ويتوحدون بتاريخهم ، ويصبحون جزءا منهم الى أن يتحولوا الى تاريخ البلاد الطبيعى .*

٤ — مقاومة شتى أنواع الاستعمار الغربى فى شمال افريقيا . والصمود أمام القوى الغربية فترة طويلة بالرغم من ضعف الدولة وقوة الغرب . بل ظهرت بطولات الجيش التركى فى المقاومة وركوب البحار وقيادة الاساطيل . كما استطاعت الوقوف أمام مؤامرات الغرب لتفتيت غرى الوحدة والدفاع عن أطراف الامبراطورية العثمانية .*

٥ — الحفاظ على التراث الاسلامى ، وجمعه وتصنيفه ، وشرحه وتمثله حتى أصبحت « الكتبخانة » العثمانية وريثة « خزانات » العراق والشام ومصر والمغرب . وأصبحت مساجد تركيا دورا لحفظ المخطوطات مثل مسجد أحمد الثالث . والحفاظ على التراث لا يقل أهمية عن الحفاظ على الارض والامة . وما تاريخ بنى اسرائيل ببعيد .*

٦ — بدايات التحديث والاصلاح داخل الامبراطورية العثمانية من داخل الاسلام وليس من خارجه ، فقد ظهر المصلحون مثل الافغانى يريدون نهضة تركيا حفاظا على الخلافة ودفاعا عنها ضد أطماع الاستعمار الغربى والهيمنة الشرقية والحركات الانفصالية . والتغيير من

الداخل مع الاتصال أكثر بقاء ودواما من التغيير من الخارج مع
الانقطاع .

ومن ثم أصبح حال الاسلام في قلوب المسلمين اليوم في تركيا
كالآتي :

١ - حنين الى الماضى ، وظهور الاسلام السلفى ، ونفور من
الثورة الكمالية وكأن الاجداد كانوا على حق أكثر من الاحفاد ، ينشرون
التراث ويبحثون الدراسات الاسلامية ، ويفتسبون الى الاسلام
كحضارة وان استحال انتسابهم اليه اليوم كدولة . ويظهر ذلك في
الازدحام على المساجد وعلى الحج وعلى التمسك بشعائر الاسلام
والحرص على الهوية الاسلامية والاعتزاز بكونهم مسلمين أكثر من
اعتزازهم بكونهم أتراك .

٢ - ظهور تيارات الاصلاح ، وحركات الاسلام المستنير النى
ورثت الحركات والتيارات الاصلاحية التى وجدت أثناء الخلافة .
وظهور بوادر جديدة للتغير الاجتماعى من الداخل بتطوير القديم ونقده ،
والعودة الى طبائع الاشياء بدلا من التقدم المزروع من خارج الجسد
القائم على أساس من التقليدية والمحافظة وكما هو الحال فى بولندا بين
المسيحية كأساس والماركسية كغطاء فوقى .

٣ - ظهور التيارات الوطنية التركية التى تدافع عن الوطن ضد
الاستعمار الأمريكى ، وهى الوطنية الاصلية ، فى مقابل القومية على
النموذج الغربى ، وما أيسر أن تتحد هذه الوطنية بتراث الامة وهو
التقليد الشائع فى مصر والمغرب والشام وعند الافغانى واضع شعار

مصر للمصريين ، والحزب الوطني عند مصطفى كامل ، والطهطاوى والكواكبي وكل زعماء الاصلاح .

٤ — بدايات الاسلام الثورى والنهضة الاسلامية النشطة وظهور الاسلام السياسى كتيار أساسى خاصة بعد الثورة الاسلامية فى ايران ، وامكانية هذا التيار فى الجمع بين التيارات الاسلامية الاصلاحية والاتجاهات اليسارية الجزرية والاتجاهات الوطنية ، وبالتالي تتحقق وحدة الامة فى الاسلام والثورة وفى التراث والتجديد .

٥ — رفض التغريب والاحساس المتزايد بسلبيات الثورة التركيه ، واكتشاف مخاطر القومية التى مزقت الدولة وقضت على وحدة الامة . والدفاع عن صورة تركيا الاسلامية التى طالما شوهها الغرب فجعلها مرادفة للتعصب والجهل والخرافة والجنس والحريم والدسائس والمؤامرات والقسوة .

٦ — العودة الى وحدة الامة الاسلامية والتقارب مع العرب وقطع العلاقات مع اسرائيل وتفهم العرب لقضية قبرص التى فتحها المسلمون أيام عمر بن الخطاب والتى كانت اسلامية مئات السنين ، ومازالت لتركيا فى قلوب العرب مكانة خاصة فى حياة الناس اليومية .

ثامنا : خاتمة

ان الاسلام فى مطلع القرن الخامس عشر الهجرى فى قلوب المسلمين ليستأنف دورة جديدة بدأت فى الاصلاح الدينى فى القرن الماضى على يد الافغانى ، دورة بعث جديدة ، يتحول فيها الاسلام من مشاعر تربط الامة الى طاقة مولدة لحركة الجماهير الاسلامية فنتغير

نظمها القائمة بعد أن ظهرت حدود الايديولوجية الغربية العلمانية والقومية الليبرالية . لقد انتشر الاسلام في أوله بين قوتين كبيرتين : الفرس والروم ، وانتصر عليهما واحتواهما ، وافترش أرضهما ، وتمثل ثقافتيهما ، وعرب شعوبهما كقانون للتاريخ . فقد كان الاسلام تحمله طليعه ثورية استطاعت تجنيد الجماهير الاسلامية والتحرك نحو تحقيق رسالة التوحيد بينما كان الفساد والتفكك يدب في عرى القوتين الكبيرتين في ذلك الوقت بقيادة تتمتع بمظاهر الحكم والبذخ تحكم أغلبية مطحونة وبتوجيه من عقائد عنصرية وقومية .

ان امكانيات الامة الاسلامية لا حدود لها سواء في الفكر أو في الواقع . فلديها « التوحيد » كعنصر جامع وعامل موحد ، ينبثق عنه نظام يكفى المسلمين في تنظيم حياتهم . كما أن لديهم ثروات في باطن الارض ، ومواقع جغرافية ، وامكانيات بشرية ، وتاريخا طويلا يؤهلها الى أن تبعث من جديد في دورة ثانية للتاريخ أمام قوتين عظميين : الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة حيث بدأت في الاولى أصوات المعارضة ، والاضطرابات ، والتخلي عن الايديولوجية الثورية الاولى ، وتحكم مصلحة الدولة دون مقتضيات الثورة . وبدأت في الثانية أزمة الرأسمالية في الانتاج والموارد الاولى والتسويق والطلاقة وفي المشروعات القومية والاستراتيجيات الحضارية والمبادئ العامة والقيم . وبدأ المفكرون يحذرون من انهيار الغرب ، وانتحار الغرب ، وأزمة المجتمع الصناعي المتقدم ، ونهاية المجتمع الاستهلاكي . فعاصر المسلمون اليوم بؤادر انهيار القوتين العظميين في نفس الوقت الذي بدت فيه بؤادر نهضة المسلمين الثانية . فأصبح المسلمون اليوم في نقطة تحول في تاريخ البشرية كلها .

ولكن التاريخ لا يتحرك من تلقاء نفسه • ولا يتحرك الا بتدخل
العنصر البشرى فيه من خلال عمل الافراد وحركة الجماهير والآن أصبحت
قوانين حركة التاريخ فارغة بلا مضمون • وقد بدأ المسلمون فى أجيالنا
هذه تحويل امكانياتهم الحضارية والمادية الى عمل وحركة ونشاط
وممارسة ، يدفعون حركة التاريخ ويجعلون أنفسهم مادة قانونه ومضمون
صراعاته •

ان الاسلام قادر على أن يعطى المسلمين الهوية السياسية ، وأن
يمدهم بنظام اجتماعى يجدون فيه خلاصهم مما هم فيه من ضنك وبؤس
وفقر ، ونظام عقائدى يحيلهم من بعد خوفهم أمنا ، وينقلهم من التخلف
الى التقدم ، ومن الثبات الى الحركة ، ومن الوراء الى الامام ، ومن
الخلود الى التاريخ •

ولقد كانت آسيا بالنسبة الى الاسلام ، رصيده البشرى فى بداياته
الاولى • وهى أيضا كذلك فى بداياته الثانية • ففى آسيا يسود التوحيد
الطبيعى ، وتنتشر فكرة « الوحدة » فى جميع دياناتها ، وحيث توجد
الدولة فى شعور الجماهير ، فال مواطن يؤمن بالله ، وينتسب الى دولة ، ويظهر
الزعماء والقادة من أجل تحويل فكرة الواحد الى دولة على الارض بفعل
الجماهير • لذلك كان تراث تيمور وجينكزخان وهولاكو تراثا وطنيا فى
آسيا الوسطى ممثله فى « أوزبكستان » أى الواحد الذى يحرك الجماهير
مرة الى الشرق الى حدود الصين ، ومرة الى الغرب المشرق العربى • كل
ذلك يجعل من آسيا ومما تمثله من روح وطبيعة ، وثقافة وحضارة ،
وتاريخ وتراث قومى فى مقابل أوروبا التى طالما غزت المسلمين فى تاريخها
الحديث •

يستطيع المسلمون فى مطلع القرن الخامس عشر أن ينهض طائرهم
من جديد بجناحهم الاسيوى فى الشرق وجناحهم الافريقى فى الغرب
وجسده فى العالم العربى ، وقلبه فى مركزه • فلربما نهض العالم كله
معهُ ، فيصبح المسلمون كما كانوا صناعا لبشرية جديدة •

نشأة الانجازات المحافظة في وطننا العربي الراهن

أنه ليعز على الانسان حقما مصير الثورة العربية في مصر . فقد بدأ الامل في قلوبنا جميعا منذ حوالى ربع قرن من الزمان ، وتوات انتصاراتنا ، الواحد تلو الآخر ، منذ القضاء على الملكية ، وانسحاب جيوش الاحتلال ، وتأميم قناة السويس ، واندلاع ثورة العراق في تموز / يوليو ، وانشاء أول محاولة وحدوية في تاريخ العرب الحديث ، الجمهورية العربية المتحدة ، ثم قوانين يوليو الاشتراكية في ١٩٦١ ، ثم الوقوف أمام الاحلاف الاستعمارية ، حلف بغداد قديما والحلف الاسلامى حديثا . ولكن اتت هزيمة حزيران / يونيو كأكبر صدمة في تاريخ العرب الحديث بعد ضياع فلسطين ونشأة اسرائيل في أيار / مايو ١٩٤٨ . ووطننا أن شباب الثورة العربية قد عاد بثورة الفاتح من أيلول / سبتمبر ١٩٦٩ في ليبيا . ولكن اختفاء عبد الناصر عن الساحة العربية منذ عشر سنوات تقريبا جعلها تخوض معركة البقاء دون زعامة قادرة على توحيدها واستمرار نضالها .

ثم بدأت المصائب تتوالى ، وذلك ابتداء من القضاء على اليسار الناصرى في مايو ١٩٧١ في الدولة وفي الحرب ، ثم الانفصال عن الحليف التقليدى للثورات العربية بطرد الخبراء السوفييت من مصر في ١٩٧١ ، والوقوع في أزمة التسليح ، ثم عدم استثمار حرب تشرين

الاول / اكتوبر وضياع نتائجها والتلاعب بها على مسرح السياسة الدولية ، ثم بداية الانفتاح الاقتصادي وضياع الانجازات الاشتراكية ، ثم تكوين جسور بين مصر واسرائيل من خلال الاشتراكية الديموقراطية وبمساعدة الاشتراكية الدولية حتى يتم تجاوز التناقض بين القومية العربية والصهيونية من خلال وحدة المذهب السياسى ، ثم زيارة القدس ، واخيرا الصلح مع اسرائيل والاعتراف بوجودها والتسليم بالصهيونية كفكرة وكواقع ، والاراضى العربية مازالت محتلة ، والاطماع التوسعية الصهيونية مازالت قائمة نظرا وعملا ، وحقوق شعب فلسطين مازالت شعارا خافتا * ومن يدري ماذا يخبىء لنا القدر فى السنوات القادمة ، والى أى مدى تنحصر اليه الثورات العربية ؟

ويبدو أن هناك خطة دولية لمعاينة المنطقة وللتكفير عن الناصرية ومعاداتها للاستعمار والرأسمالية والصهيونية والرجعية ومحاولتها تحقيق مشروع قومى يقوم على الحرية والاشتراكية والوحدة ، وكأن المراد هو الايعاز الى شعوب المنطقة بأنه خلال الثورات العربية تحت زعامة ناصر ، خسر الوطن العربى أكثر مما كسب ، واحتلت أراضيه * ولن يكسب الوطن العربى وتنتحرر أراضيه الا بعد التخلي عن مشروعه القومى فيصبح ماليا للاستعمار وحليفا للصهيونية ، وعميلا للرأسمالية الدولية ، تحت زعامة الرجعية العربية * وتبدو لنا الناصرية اليوم التى كنا نعانى أيضا من مثالبها وعلى رأسها غياب الحرية والديمقراطية وكأنها ازهى فترات حياتنا ، وكأنها الآن بالنسبة لنا مطلبا بعيد المنال ، نتمنى تحقيقه من جديد أو الرجوع اليه اذا ما عاد التاريخ الى الوراء *

وتحت السطح تبدو المأساة أعظم * اذ انقلبت هذه الانتكاسات لى

نظم الثورة وأهدافها الى ردة أعظم في أبنية الناس الذهنية ومكوناتها النفسية . فنشأت اتجاهات محافظة في الحياة العامة . وأصبحت هي المسيطرة على أذهان الناس وسلوك الجماهير . تستغلها السلطات السياسية من أجل تدعيم الانتكاسات الثورية وتنظيرها حتى نتساءل . هل تنقلب الثورات العربية بعد ربع قرن من الزمان وبعد الهاب الناصرية لمشاعر ملايين العرب من المحيط الى الخليج الى عكس ما كانت تهدف اليه ؟ صحيح أنه تحدث في الثورات انتكاسات جزئية وردة نسبية ولكن لم تنقلب الثورات الى نقيضها كما انقلبت ثوراتنا . بل انها أصبحت رائدة الثورات المضادة في العالم ، ومناهضة لجميع حركات التحرر التي تولدت من الثورات العربية في بدايتها .

والسؤال الآن : ما هي أصول الاتجاهات المحافظة المسائدة في عالمنا العربي الراهن خاصة في مصر ، وما هي أسبابها ومصادرها ؟ ليس السؤال المطروح هو أيهما اسبق الانتكاسات الثورية في الواقع العملي أم الاتجاهات المحافظة في الابنية النظرية ، أيهما علة وأيها معلول ؟ بل السؤال هو كيف نشأت هذه الاتجاهات المحافظة في وعينا القومي بالرغم من وجوده في ثورة دامت حوالى ربع قرن من الزمان ؟ وإذا كان لا بد من الاجابة على السؤال التقليدي عن العلة والمعلول فاننا نرى ان وجود القوالب الذهنية والمكونات النفسية الموروثة التي لم تتغير بتغير الانظمة الاجتماعية الخارجية هي التي دفعت بالاتجاهات المحافظة للظهور في اللحظة التي اختفت فيها الزعامة الثورية ، وكان ثورية القمة تستلزم بالضرورة ثورة القاعدة ، وكان أخطر ما يهدد أية ثورة هو ثورية السلطة وتقليدية الجماهير .

ويمكن تحديد نشأة الاتجاهات المحافظة في الوطن العربي الراهن وخاصة في مصر بأربعة مصادر ساهمت جميعها متجمعة في نشأة هذه الاتجاهات في حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وفرضت نفسها علينا في حياتنا الخاصة والعامة .

أولاً : المحافظة الدينية :

لا تعنى المحافظة الدينية ان الدين يحتوى على المحافظة بل يعنى نشأة المحافظة بسبب وضع الدين الذهنى والاجتماعى والسياسى وذلك ان الدين فى البلاد النامية هو تراثها الشعبى الذى يمدّها بقيمها ويحدد أنماط سلوكها ، وهو يقوم بنفس الدور الذى تقوم به الايديولوجيات فى البلاد المتقدمة . فالدين هو مورث نفسى عند الجماهير يوجهها ، ويحدد تصوراتها للعالم ، ويعطيها بواعث للسلوك . ولقد اتت الثورة منذ ربع قرن بالمبادئ الستة : القضاء على الاستعمار ، والقضاء على الملكية ، والقضاء على الاقطاع ، واقامة جيش قوى ، واقامة عدالة اجتماعية ، واقامة حياة ديموقراطية سليمة . وظلت هذه المبادئ الستة بلا أساس دينى صريح ، تعبيرا عن الامانى الوطنية لكافة الفئات الاجتماعية . واكتفت مواثيق الثورة وعلى رأسها « الميثاق » ببيان ان الدين فى جوهره حركة تقدمية تهدف صالح الانسان وخير الجماعة دون أن تطور المفاهيم الدينية وتجعلها حاملة لاهداف الثورة . فظل الدين قائما فى وجدان الناس بلا تحديث من الداخل ، وبلا تغيير للقوالب الذهنية التقليدية . فكان من السهل بعد أن يضعف المد الثورى ويبدأ الجزر المضاد للثورة ، بعد ان تنغيب الزعامة الثورية وتحل محلها زعامة مضادة للثورة أن تظهر الاعماق التقليدية بعد غياب السطح الثورى ،

وان تنطلق القوالب الذهنية والمكونات النفسية الدينية الموروثة في غياب الرقيب، الثورى فتظهر المحافظة وتبدو للعيان • فهى لم تنشأ من عدم، ولم تتخلق بفعل اللحظة، ولكنها كانت موجودة بالفعل كتيار تاريخى أساسى سائد منذ أكثر من الف عام منذ انتهاء عصرنا الذهبى القديم واختفاء العقلانية التى مثلها الاعتزال منذ القرن الثالث الهجرى وضياعه بعد المحنة ، وبعد هدم الغزالى للعقل فى القرن الخامس والقضاء عليه قضاء مبرما • ولم تفلح بارقة ابن رشد فى إعادة التيار نظرا لبعده عن قلب العالم الإسلامى فى الاندلس ، ذلك الصقع البعيد ، ونظرا لحصار ابن رشد ذاته من الفقهاء ، وتحريم كتبه • ولم تنتج البارقة الا فى الغرب عند الرشديين اللاتين • نشأ المذهب العقلانى الطبيعى فى العصر الوسطى المتأخر والذى أصبح فيما بعد أحد روافد النهضة الحديثة فى الغرب • لم تنجح الثورة اذن فى معالجة هذه المحافظة الكامنة لانها اسم تحاول على الاطلاق وتركتها راسخة فى نفوس الناس حتى عادت من جديد وبشكل طبيعى فى الظهور بعد انحسار المد الثورى باختفاء الزعامة الثورية وتغييرها بزعامة محافظة ، فظهرت المحافظة الكامنة متفتحة مع المحافظة الظاهرة ، وحدث الوئام بين محافظة القاعدة ومحافظة القمة . وامتدت المصالح بين المحافظة كمكون نفسى عند الناس مع المحافظة فى قمة السلطة السياسية • وهو مايفسر التأييد الشعبى لكل ماتفعله السلطة السياسية بصرف النظر عن نوعية القرار حربا كان أم سلاما ، اشتراكية كان أم رأسمالية ، ثورة كان أم ثورة مضادة •

لم تفعل الثورة أكثر من أنها استخدمت الدين دفاعا عن ذاتها . وتشبيها لاركانها • فقد ذهب عبد الناصر والضباط الاحرار معه بعد اندلاع الثورة الى رجال الازهر طلبا لتأييدهم طبقا لتاريخ مصر منذ

الحملة الفرنسية وتعاون رجال الجيش مع علماء الدين في مواجهه الاحتلال الاجنبي . ثم استعمل عبد الناصر تاريخ الاسلام بعد ذلك أيام الوحدة مع سوريا من أجل بيان أن وحدة مصر وسوريا كانت هي الدرع الحامى لحمى الاسلام أثناء الحروب الصليبية في وقت لم تكن القومية العربية قد تحولت الى ركن رئيسى في ايدولوجية الثورة المصرية . وأخيرا استعمل عبد الناصر رجال الدين بعد قوانين يوليو الاشتراكية سنة ١٩٦١ ، للدفاع عن الاشتراكية باسم الاسلام بعد ان شنت السعودية حملة شعواء على الناصرية التى تمثل بالنسبة لها خطرا على العرش وتهديدا مباشرا للنظام الملكى وبديلا أمام الجماهير العربية فى السعودية وخارجها عن الاقطاع العائلى . قابل عبد الناصر الهجوم على الاشتراكية باسم الدين من خارج مصر بالدفاع عن الاشتراكية باسم الدين من داخل مصر ، وجند لذلك علماء الازهر وائمة المساجد واساتذة الجامعات ورجال الصحافة والاعلام بوجه عام وخرجت عشرات الكتب ومئات المقالات عن الاشتراكية والاسلام . حدث ذلك كله بين ١٩٦١ ، ١٩٦٤ . فلما هدأت الهوجة وتمت المصالحة بين السعودية ومصر ، وبين فيصل وعبد الناصر ، انتهى الجدل . ظلت معركة الاسلام والاشتراكية معركة بين نظامين ، وصراعا بين زعيمين ، كل منهما يستأجر عماله ، يصدرون لهما مايودان من فتاوى . ومجموع الشعب لايهمه الامر فى شىء . فقد كانت معركة احترافية مهنية من أجل الصراع على السلطة والحفاظ على الزعامة ولكن لم تتحول الجماهير فى مصر الى اسلامية اشتراكية ولا فى السعودية الى اسلامية رأسمالية ، وظلت الجماهير فى كلا البلدين محافظة تقليدية بنفس القوالب الذهنية القديمة ، ونفس المكونات النفسية الموروثة . وهو ماسمى فيما بعد ، بعد اختفاء الزعامة الثورية

الاسلام العقائدى الشعائرى الغربى الرأسمالى • والحقيقة أن الامر ليس كذلك • بل ظهر الاسلام التقليدى فى مصر بعد اختفاء الزعامة فى مصر التى مثلها عبد الناصر ، بانتشار الاسلام السعودى فى مصر النورية وتقبله مع الاسلام التقليدى فى السعودية وفى ارجاء اخرى من العالم الاسلامى قبل اندلاع الثورة الاسلامية التقدمية فى ايران •

بل ان الثورة قد اصطدمت مع الاتجاهات الدينية التحديثية مثل الاخوان المسلمين بسبب الصراع على السلطة وليس بسبب اختلافهما فى تفسير الدين • فقد كان هناك اتصال وثيق بين الضباط الاحرار والاعوان المسلمين قبل الثورة ، وكان الاعوان على علم بالثورة قبل وقوعها ، وكان الاتفاق ان يقوم الاعوان بحراسة المباني والمنشآت العامة والسفارات والمصالح الحكومية ليلة الثورة وبعدها ، وان يقدموا للثورة بعد نجاحها كل عون شعبى ممكن • بل كان نصف مجلس قيادة الثورة الاثنى عشر ممن كان له صلة مباشرة أو غير مباشرة بالاعوان • وكان الاعوان يتلقون التدريب العسكرى على يد الضباط الاحرار ، والضباط الاحرار يتلقون المشورة الوطنية من الاعوان • ولكن كان الصراع على السلطة هو المقتل الذى فرقهما وأدى بهما الى الصراع قبل اندلاع الثورة عندما اراد الاعوان ضم الضباط الاحرار وجعلهم شعبة عسكرية للجماعة • ورفض عبد الناصر ذلك واعتبره وصاية على تنظيمه المستقل • ثم نشأ الصراع بعد الثورة عندما اراد الضباط الاحرار الاستئثار بالحكم والانفراد بالسلطة • فلما قاوم الاعوان معاهدة الجلاء سنة ١٩٥٤ التى كانت تعطى لبريطانيا حق العودة الى منطقة قناة السويس واستعمال المطارات المصرية فى حالة الحرب حدث الصدام • وعاد الصدام فى ١٩٦٥ ، واستشهد سيد قطب م ٧ الحركات الدينية المعاصرة

كما استشهد من قبل عبد القادر عودة • وكان كلاهما يناط به التحديث •
التحديث الفكرى والاجتماعى عند سيد قطب خاصة فيما يتعلق بالعدالة
الاجتماعية فى الاسلام ، والاسلام بين الرأسمالية والاشتراكية ،
والاسلام والسلام العالمى ، والتحديث القانونى التشريعى عند
عبد القادر عودة خاصة فيما يتعلق بالتشريع الجنائى فى الاسلام •
انتهت امكانية التحديث عند الاخوان بالقضاء على الامامين المذكورين ،
واستحالة تطوير الدعوة سواء عند الرائدین أو عند تلاميذهما ونشأة
يسار اسلامى داخل الدعوة • وظلت الدعوة على مدى ربع قرن ، وهو
عمر الثورة ، اسيرة الجدران ، ينمو فكرها فى ظلمات السجون ،
فتحجر وتعصب وتصلب وحقد ، وانزوى وانطوى وكفر كل مخالفه •
وأصبح بينه وبين الناصرية ثأر شخصى تستحيل معه المصالحة أو
المغفرة • ومن ثم قويت المحافظة الدينية بهجوم الثورة عليها ، وأصبح
بين الدين والثورة عداً مستحكماً وثأر لا يمحوه الا الثأر بانقراض
الدين على الثورة كما انقضت الثورة على الدين •

وقد سمحت خلافة عبد الناصر بهذا الانقراض نظراً لتشابك
المصالح بين هذه الخلافة والاخوان ، فكلاهما يود محو الناصرية ، ومن
ثم ظهر الاخوان واستأنفوا نشاطهم العلنى • وتغاضت السلطة عن
الامر مادام فى عداً كليهما للناصرية صالح مشترك ، بسل واستعملت
السلطة الدعوة الاسلامية على يد الجماعة الاسلامية ، الشكل التنظيمى
الجديد للاخوان لضرب الناصرية وجميع الاتجاهات التقدمية • ونجحت
فى ذلك فى الجامعات وبين الشباب ، دون ان تعى الجماعة الاسلامية
دروس الماضى ورفض الاخوان الدخول فى جبهة وطنية أثناء لجنة
الطلبة والعمال فى ١٩٤٧ ضد القصر والانجليز بل عادى الاخوان هذه

الجبهة فتفتتت الوحدة الوطنية • ولو أن محاولات الجبهة قد عادت لفترة قصيرة أثناء أزمة مارس / آذار ١٩٥٤ ولكن الثورة سارعت بالانقراض على الفريقين اليسار الماركسي واليمين الديني حتى تخلو لها الساحة الوطنية • وقد تم لها ذلك بالفعل حتى انتفاضة اليسار الماركسي من جديد في ١٩٥٩ أثناء معركة عبد الناصر وخروتشيف وانتفاضة اليمين الديني في ١٩٦٥ • ولما تم للنظام الجديد في مصر بعد عبد الناصر ضرب اليسار باستعمال الجماعة الاسلامية حتى كادت أن تختفى الناصرية والتقدمية بين الشباب بعد أن كانت مزدهرة في أوائل السبعينات ، وبعد توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل ، وبعد ثورة ايران ، شعرت السلطة بخطورة الجماعة الاسلامية فتوجهت اليها بالتحريم والقمع ، وأصبح أصدقاء الامس أعداء اليوم ، وعاد الامر كما بدأ في أول الثورة تحريم الاتجاهات الاسلامية المناوئة للنظام القائم •

ونظرا لعدم رغبة الجماعة الاسلامية في الدخول في معارك مبكرة مع النظام القائم بعد تعلمها الدرس من حكم عبد الناصر ودخول الاخوان معه في معركة مبكرة اطاحت بالدعوة أكثر من ربع قرن فقد ركزت الجماعة على الدين الشعائري • الصلاة والصيام والزكاة والحج ، والمطالبة بمصليات بالجامعات وبالزى الاسلامي واطالة اللحي ، وآذان الصلوات ، والصلوات الجماعية حتى ولو أثناء المحاضرات ، وتحرير مجالات الحائط واليافطات الاسلامية ، واقامة معارض الكتب الاسلامية أو دعوة بعض المحاضرين من أئمة الاخوان السابقين أو من المشايخ المعاصرين لالقاء بعض المحاضرات عن الاسلام • فالمحافظة الدينية هنا ، وان كانت هي الاساس الفكرى للاتجاهات الاسلامية ، أصبحت أيضا خطة مقصودة من أجل موالاتها للسلطة وموالاته السلطة لها •

هذا بالإضافة الى أن الاسلام المظهري أكثر جذبا للانظار ولجذب الشباب الذي تستهويه المظاهر من أجل الاعلان عن الذات وتأكيدا في غياب أية ايدولوجية أخرى مطروحة بعد حصار الناصرية والتقدمية في الجامعات ، وبدأت الاتجاهات الاسلامية مسيطرة على الشباب نظرا لنشاط الصفوة منها ونظرا لعدم وجود أى بديل آخر مطروح ، ومع ذلك ظلت دائرة منعزلة لاتحظى بتأييد جماهيري وان بدت أكثر مما هي عليه في واقع الامر .

وفي هذا الجو الذي تغيب فيه الممارسة السياسية السوية للجميع ، وتنقصه روح الديموقراطية والتعبير عن الرأى الحر ، وفي غياب أية ايدولوجية تقدمية بدأت المزايدة في الايمان وظهرت الجماعات الدينية المتطرفة ، تستعمل نفس السلاح الذي تستعمله السلطة وهو تكفير فرق المعارضة ، والدعوة الى تطبيق الشريعة الاسلامية ، والتركيز على الايمان ضد الالحاد ، والاكثار من مظاهر الهوس الدينى في أجهزة الاعلام . خرجت جماعة « التكفير والهجرة » كجناح يمينى للجماعة الاسلامية التى هي فى أصلها الجناح اليمينى لجماعة الاخوان لتتقسم المجتمع الى قسمين مجتمع الايمان ومجتمع الكفر ، وتطالب بتكوين مجتمع المؤمنين خارج مجتمع الكفار ، وتحرم تعامل الاول مع الثانى ، وتكون جماعة مغلقة تدين بالطاعة المطلقة لامير الجماعة ولا ترى حرجا فى التصفيات الجسدية للخصوم ، وتطبق شريعة المجتمع المغلق ، فى أحكام المصاهرة والمعاملات المدنية .

توقف التحديث الدينى فى عمر الثورة على مدى ربع قرن ، ولم يستمر الاصلاح الدينى أو ينطور منذ مائتى عام ، وانقطع ماأراده حسن البنا من استمرار لجريدة المنار بعد وفاة مؤسسها رشيد رضا

في سنة ١٩٣٥ • وبعد ان ارتفع قوس الاصلاح الدينى على يد الافغانى ومحمد عبده والكواكبي هبط من جديد على يد رشيد رضا وحسن البنا والجماعة الاسلامية • بل اننا تراجعنا عن مكتسبات الاصلاح ، فعدنا اشعرية في التوحيد والعدل بعد ان استطاع الاصلاح ان يكون معتزليا في العدل مثبتا قدرة العقل على الوصول الى حقائق الامور ، والتميز بين الحسن والقبيح ، ومثبتا القدرة على الافعال ، والاختيار الحر ، ومؤكدا قانون الاستحقاق • تراجعنا عن ربط الافغانى العقائد بحياة الشعوب ، ومحاولته اعادة بناء العقائد بحيث يستطيع بها مواجهة الاستعمار والتخلف والطغيان وتحقيق رقى الشعوب وتقدمها • وتراجعنا عما بدأه الكواكبي من رفض للفتور عند المسلمين والوقوف امام الاستبداد والاستعباد • وعادت المرأة متحجبة ، وعناد الصراخ الى الحكم الدينى بعد ان قطعنا شوطا طويلا من الليبرالية والاتجاهات العقلانية ، والدعوة الى اقامة الدولة الحديثة على الحرية والديمقراطية ، والدستور والحياة النيابية • وتركنا الوطنية بعد ان خرجت الوطنية من جبة الافغانى فهو الذى وضع شعار « مصر للمصريين » ، وبعد ان خرجت ايضا من عمامة الطهطاوى وهو واضع شعار « حب الوطن من الايمان » • رجعنا الى الجماعة الدينية التى تلفظ الوطنية والقومية وتعتبرها هرطقات وكفرا وتبعية للغرب •

أما المؤسسات الدينية فانها ظلت على ماهى عليه منذ انتهاء الخلافة الاسلامية وبداية الدولة الاموية • يقطنها رجال الدين ويأتمرون بأمر السلطان رهبة أو رغبة ، خوفا أو طمعا حتى تحولوا أيام المماليك الى موظفين رسمين فى الدولة ففقدوا استقلالهم كلية ، وفقدوا شروط الاجتهاد والاستفتاء • ولم تنفع المحاولات الفردية للرفض والطاعة للنظام

فما جزاء هؤلاء الا الفصل أو التعذيب • وبالتالي فقد رجال الدين قدرتهم على التحديث • ولما كان فاقداً الشيء لا يعطيه فقد بشروا بالاسلام العقائدى الشعائرى ، فانتشر الاسلام المظهورى لدى الناس ، وانحسر الدين عن حركة الشارع • وقد تبنت السلطة أخيراً هذا الموقف رسمياً فأعلنت انه لاشأن للدين بالسياسة أو السياسة بالدين ، فالدين للعبادة والسياسة لرجال السياسة ، وعلى أكثر تقدير يكون الدين عقيدة أى فلسفة نظرية لاشأن له بالممارسات العملية • فإذا انحسر الدين عن الحياة مات واندثر ، وتحولت المحافظة الى تخلف والى مجرد مآمن متحفى • وجاء التحذير لرجال الدين اياكم أن يظهر فيكم خمينى ! وانتشر خبر فى الصحف عن نية الحكومة رفع مرتبات رجال الدين بعد انتصار الثورة الايرانية فى ايران حتى لو فكر أحدهم فى حذو المثل أعيد شراؤه واستيعابه داخل المؤسسة الدينية • كما تقوم هذه المؤسسة بادائه كل من يخرج على النظام سواء باسم الدين أو باسم الشعب ، وتنتقى من التاريخ الاسلامى الشواهد التى تؤيد قرارات السلطة السياسية ، وتستخرج من القرآن والحديث مبررات لكل مايفعله النظام السياسى خاصة اذا ماكان فى حاجة الى مثل هذه المبررات حين يبدأ الهجوم عليه من الخارج كما حدث بعد زيارة القدس ، ومعاهدة كامب دافيد ، وأخيراً معاهدة السلام بين مصر واسرائيل • فبالرغم من ان الصلح مع اسرائيل محرم شرعاً نظراً لاحتلالها اراضى المسلمين الا ان رجال الدين سرعان ما أخرجوا « وان جنحوا للسلم فاجنح لها » دون حتى معرفة بمعنى الشرط ، واسقاطه ، وجعل السلم بلا قيد أو شرط • وبالرغم من أن المؤسسة

الدينية لاتحظى بأية ثقة شعبية ، يتهكم الناس عليها ويتندرون برجالها نفاقا وتخلفا وفسادا الا انها ظلت سلاحا تستعمله الاتجاهات المحافظة سواء في السلطة أو خارجها ضد كل الاتجاهات التقدمية المعارضة .

ثانيا : المحافظة العلمانية :

تعنى المحافظة العلمانية المحافظة التي نشأت بسبب انتشار العلمانية في ثقافتنا المعاصرة وعدم استجابة وعينا القومي لها استجابة كاملة ، في نفس الوقت التي تحاصرها فيه أجهزة الاعلام ، وتندد بها السلطة ، وتنتهما بالكفر والاحاد ، وتعتبرها افكارا مستوردة لاتعبر عن قيمنا وترايبنا وأرضنا وتاريخنا وتراثنا . فقد حدث أن انتشرت افكار الحرية والديموقراطية والاشتراكية منذ بداية التيار العلماني الغربي في فكرنا الحديث على يد شبلي شميل وفرح انطون وأديب اسحق ونقولا حداد ويعقوب صروف وولى الدين يكن واسماعيل مظهر وسلامة موسى . ومن الاحياء د . زكى نجيب محمود وفؤاد زكريا وجميع ممثلى روافد الفكر الغربى في حياتنا المعاصرة الذين استطاعوا الانتشار خارج الجامعات واحداث تأثير على الشعوب والترويج لهذه التيارات الغربية باعتبارها تمثل حركات اصلاحية تحديثية مثل العلمية (د . فؤاد زكريا) والوضعية المنطقية (د . زكى نجيب محمود) والوضعية الاجتماعية (عبد العزيز عزت) والماركسية (د . الطيب تيزيني ، د . صادق جلال العظم) والوجودية (د . عبد الرحمن بدوى وزكريا ابراهيم) والشخصانية (د . الاحبابى ، حبشى) وفلسفة الظواهر (أدونيس) . . . الخ . لهم تستطع كلها أن تؤثر على الجماهير بنفس الدرجة ، ولم تستطع كلها ان تتحول الى فكر شعبى بنفس القوة ، وظل اشهر التيارات ، العلمية الوضعية والماركسية . أما المثالية الغربية فلم

يحدث رد فعل عليها نظرا لانها تقوم على الدين والايمان وتؤمن بما وراء الطبيعة وخلود النفس ، وتنحو نحو صوفيا حدسيا اشراقيا بما يتفق وعقائد الجماهير وتراثهم الشعبي . ولكن الاشكال كان مع التيار العلمى الوضعى ، والتيار الماركسى .

يبدو اذن أن التحديث من الخارج عن طريق مذاهب منقولة عن الغرب يسبب سرعة حصارها وتشويهها والقضاء عليها بعد تحديد أثرها واتهامها بالكفر والالحاد أو الشيوعية . صحيح ان الحضارات تتفاعل فيما بينها . وقد أخذنا قديما وأعطينا من الحضارات المعاصرة لنا واليها . بل ان الاخذ هو شرط العطاء . فلولا المصياغات العقلية اليونانية لعقلينا الاسلامية القديمة ما استطعنا ان نعطي للغرب عقلانيتنا المتميزة فينهض وينتحرر من عصره الوسيط الایمانى . ولولا أخذنا من الهند الحساب والاعداد لما استطعنا أن نعطي للغرب الجبر وحساب المعادلات . ولولا أخذنا من أبوقراط وجالينوس الطب لما استطاع أن يعطي ابن سينا وابن رشد للغرب الطب العربى . ولكن القدماء كانوا يعيشون فى مجتمع متقدم ، وكانوا على ثقة بحضارتهم وبأنفسهم وبانتصارهم ، فلم يتورعوا عن الانفتاح الثقافى على الحضارات الاخرى ، وتمثلوا ، وخلقوا . ولكن الامر يختلف اليوم . فنحن نعيش فى مجتمع متخلف مهزوم ، فاقد الثقة بنفسه ، يأخذ أكثر مما يعطى ، وينقل أكثر مما يخلق ، فكان من الطبيعى ان تقوم المحافظة الاساسية فى وجدان الشعب المستمرة منذ أكثر من ألف عام بأن تلفظ هذه الاجسام الغربية المنقولة قسرا ، دفاعا عن الارحام ، وجرصا على الاصله ، وتأكيدا على النقاء والشمول . وكما زاد المنقول وظهر أثره اشتدت حركة الرفض له ، وزادت المحافظة قوة وعمقا .

ولما كانت هذه المذاهب المنقولة محصورة في فئات المثقفين فانها لم تتحول الى تيارات شعبية وحركات جماهيرية واتجاهات وطنية . وقد قوى من هذا الحصار عزلة المثقفين الطبيعية ، وعدم وجود ثقة مشتركة بينهم وبين الجماهير ، سواء فيما يتعلق بالالفاظ مثل المادية الجدلية ، وقرانين الكيف والكم ، وقوانين الحركة والطاقة أو فيما يتعلق بالمصادر التاريخية مثل هيجل وماركس أو نيوتن وبيكون وأينشتاين . وقد قوى من ذلك أيضا نظرة الجماهير الى طبقة الافندية الذين يمثلون بالنسبة لها الطبقة الحاكمة المسيطرة على أجهزة الاعلام أو على الأقل القرية من الحكام والتي تستعمل لغتهم والتي تستفيد أيضا من اتصالها بالسلطة فيما يتعلق باللباس المهندم ، والمسكن النظيف ، والمرتب المرتفع وربما العربية الكبيرة وكل مظاهر الوجاهة الاجتماعية . قد تشعر الجماهير بالنسبة لطبقة الافندية بعقيدة نقص لا شعورية تمنع من أن تستمع اليها ، حتى ولو كان فيما تقول صالحها . كما قد يعطى المثقفون الجماهير سواء عن قصد أو غير قصد احساسا بمركب العظمة ، فهم أصحاب الياقات البيضاء ، وأهل العلم ، واصحاب الخطوة لدى السلطات ، وعن طريقهم تقضى المصالح ، وتتحقق الوسائط ، ويبلغ المراد . وبالتالي نشأت أزمة ثقة بين الافندية والجماهير حتى انه ليصعب أن تنشأ الزعامة بينها . فأصبح الافندية زعماء بلا جمهور ، والجماهير شعبا بلا زعامة .

فاذا ما أحست السلطة بخطر البعض الذين استطاعوا أحداث اثر على انصاف المتعلمين أو على طبقات العمال وبالتالي اتسعت دائرة المثقفين خاصة في الجامعات التي مازالت محور الحركة الوطنية في البلاد النامية سهل استئصالهم بالقبض عليهم . وزجهم بالسجون واتهامهم بالكفر والاحاد والترويج للمبادئ الهدامة المخالفة لتقاليد البلاد وميراثها

التاريخى . فلا تتحرك الجماهير ، وكأن الامر كان صراعاً على السلطة بين الزمرة الحاكمة والافندية الذين يودون مشاركتهم فى الغنيمة . وبعد مدة من الزمن يدرك المثقفون انه لا حيلة لهم امام السلطة القائمة بشروطها الا العمل من داخل النظام مما يؤكد للجماهير ان المثقفين والحكومة شىء واحد وان اختلفا مؤقتاً على اقتسام الغنيمة . أو الهجرة والعمل من الخارج ضد النظام مما يؤكد انعدام الاثر على الجماهير التى لا تقرأ الصحف الاجنبية اما لعدم معرفتها بالقراءة أو لمصادرتها أو لصعوبة الحصول عليها ، وما اسهل حصار هؤلاء ايضاً واتهامهم بالعمل ضد الوطن بالتعاون مع جهات اجنبية معادية فيتم عزلهم تماماً عن الجماهير . أو العيش فى صمت ، يكتب المرء ويعود الى اكاديميته الاولى التى لا يتجاوز أثرها أفراداً معدومين . أو العيش فى سلام داخل البلاد وخارجها يعيش ويدخر ، ويترك النضال للشبان ، ويكتفى هو باجترار الذكريات أو اعطاء النصح لهم اذا ما طلب منه ذلك .

وبعد فشل التحديث من الخارج أمام الجماهير تبقى الساحة الفكرية خالية أمام المخزون الفنى الكامن عند الجماهير . فتطهر المحافظة الكامنة على السطح ، ويبدأ رفض كل هذه المحاولات أما تلقائياً أو بتحريك من السلطة . ولكن ينتفجر الغضب الشعبى ضدها وبالتالي يستحيل على المثقفين التأثير أو القيادة ، وتصبح المحافظة التقليدية هى الاختيار الوحيد أمام الجماهير ، الصامد أمام جميع المذاهب الوافدة حتى ولو استغلت السلطة هذا المخزون القديم ، وبالتالي تتقرب السلطة للشعب ويتقرب الشعب للسلطة ضد التحديث من الخارج أولاً وضد التحديث ككل ثانياً ، فالتناقض بين الشعب والسلطة تناقض ثانوى فى حين ان

التناقض بين الشعب والسلطة من ناحية وبين المثقفين من ناحية
أخرى تناقض أساسى •

ان السبب فى سيادة المحافظة هنا يرجع الى فشل التحديث العلمانى حيث انه كان مجتث الجذور عن تراث الشعب وان كان ما يحمل من أهداف مثل العلمية والاشتراكية يعبر بصدق عن مطالب الامة واحتياجاتها • ولكن هناك فرق بين ان تأتى هذه الاهداف من الخارج وبين ان تتبع من الداخل • فمثلا اذا أردنا أن ندعو شعوبنا الى تمثيل النظرة العلمية فى الحياة العامة ، وتفسير الظواهر تفسيراً موضوعياً للقضاء على نظرتنا الاسطورية للعالم التى تعتمد على الوهم والخرافة، فانه يصعب الدعوة لذلك عن طريق نيوتن وبيكون واينشتاين وذلك لان هؤلاء لايقبعون فى المخزون النفسى عند الجماهير ولكن يسهل ذلك عن طريق احياء التيارات الماثلة فى تراثنا القديم مثل التيار العقلانى عند المعتزلة ، والتيار الطبيعى عند اصحاب الطبائع ، كما يمكن بعث نظرات علمائنا القدامى فى الرياضة والطبيعة وتحليل رؤيتهم للعالم • كما يمكن اللجوء الى القرآن مباشرة باعتباره المصدر الاول لوعينا القومى فى دعوته الى العقل والنظر فى الطبيعة وتسخيرها للانسان • بذلك يتم التحديث ، وتتحول المحافظة الكامنة فى نفوس الناس والموروثه منذ أكثر من الف عام الى تحقيق طبيعى لمطالب الجماهير ، فتتطور من تلقاء نفسها ، ومن داخلها • فتتبخر ، وتتحول الى تقدمية فى العلم وفى المجتمع ، وتصبح المحافظة المتطورة أساس النظرة العلمية ودعامة البناء الاشتراكى • وبالتالي تتحقق أهداف العلميين والماركسيين ولكن بوسائل مختلفة • فبدل أن يتم التحديث عن طريق نقل المذاهب الغربية يتم عن طريق احياء هذه المذاهب الكامنة فى شعورنا القومى فتصبح بديلاً

آخر عن المحافظة الموروثة ، ففتتصارع البدائل حتى ينتصر البديل الجديد باعتباره أكثر تحقيقا لمطالب الامة وأكثر دفاعا عن مصالحها .

ان خطورة التحديث العلمانى من الخارج هو انكار المرحلة التاريخية التى تمر بها مجتمعاتنا واسقاط المذاهب الغربية عليها طبعا للمزاج والهوى الشخصى للافراد أو للفئات حتى أصبح واقعنا الثقافى ساحة متضاربة لجميع أنواع المذاهب الادبية والفنية والسياسية والاجتماعية ، وجعلنا من مثقفينا وأدبائنا وفنانيين وكلاء حضاريين لغيرنا . ويظن المحدثون ان الترويج لآخر المذاهب وأحدث الصيحات يجعلهم أكثر تحديثا من غيرهم فينشأ لدينا الفن التجريدى والابوسيقى الالكترونية ، كما تزوج لدينا البنائية ومسرح العبث . الخ . ويصبح كل مثقف لدينا متخصصا فى مذهب ، يدعى الى أجهزة الاعلام كمرجع متخصص ، ويكون كمن يفتتح دكانا ويرفض أية منافسة أخرى من دكان يريد أن يبيع نفس الصنف . قد تكون مجتمعاتنا فى حاجة الى عصر احياء الذى مر به الوعى الاوروبى فى القرن الرابع عشر والذى مررنا به نحن فى القرن الماضى . قد تكون مجتمعاتنا فى حاجة الى اصلاح دينى مرت به أوروبا فى القرن الخامس عشر والذى بدأناه نحن فى القرن الماضى دون ان نكمل الشوط الى نهايته ودون ان نستثمر الاصلاح الى اقصى حدوده . قد نكون فى حاجة الى عصر نهضة مرت به أوروبا فى القرن السادس عشر من أجل التأكيد على حرية الانسان فى البحث وحقه فى نقد الموروث وعدم التسليم بسلطة القدماء والاعتزاز بجسد الانسان وبتحليل الطبيعة وهو ما لم نجربه حتى الآن ولو أننا حاولنا ، على استحياء منذ القرن الماضى واختفت المحاولة أثر المد المحافظ فى الآونة الاخيرة . لذلك يستتبك البعض التاريخ عندما يروجون للمذاهب

العقلية المثالية الدينية في القرن السابع عشر الاوربي خاصة الديكارتية
التي ان هي الا حصيلة جهد طويل قبلها استغرق اكثر من ثلاثمائة عام .
كما يستتب البعض الاحداث عندما يريدون تأسيس فلسفة تنوير شاملة
كتلك التي حدثت في القرن الثامن عشر في الغرب ، وذلك لانها أيضا
حصيلة جهد طويل وصراع من أجل حرية الفكر دام أكثر من اربعة
قرون . وقد يحاول البعض ان يستتب التاريخ ويروج الى المسادبة
التاريخية والجدلية والاشتراكية العلمية التي ظهرت فقط في القرن
التاسع عشر الاوربي والتي كانت نهاية المطاف بالنسبة لتطور الوعي
الاوربي على أكثر من خمسة قرون . ان فشل التحديث العلماني انما
يرجع الى عدم الوعي بالمراحل التاريخية ونقل المذاهب الغربية وكأنها
نشأت في فراغ واعادة زرعها في تربة قد تكون غير صالحة المناخ والطين .

وأخيرا ، ان عملية التحديث لا يمكن ان تتم على نحو انتقائي
جزئي نسبي بل هي عملية تطوير شامل في حياة المجتمعات . قد يحدث
التحديث الانتقائي الخارجى بعض الاثر في بعض نواحي الحياة مثل
أقامة معركة عسكرية على أساس من التخطيط العلمى السليم ولكنه
لا يحدث أثرا مشابها في كل نواحي الحياة الاجتماعية . هذا التحديث
الشامل لا يتأتى الا عن طريق تطوير المخزون النفسى عند الجماهير
الذى يمددها بالمحافظة كتيار تاريخى مستمر ، ومعين لا ينضب .
ان التحديث الجزئى سرعان ما تعصف به المحافظة الكامنة فتمحو
أثره أو تسيء تأويله كما حدث في تفسير عبور القناة بالمعجزات أو
بمساعدة الملائكة من السماء . كذلك ستظل المحافظة كامنة في النفوس
 طالما أنها لا تتحول برمتها في عملية التحديث الى شىء آخر حتى تتخارج
وتعيش في ميدان الوعي اليقظ المتطور تطورا طبيعيا ، ومن ثم نأمن
من الردة ، ولا نقع من جديد في هوة الماضى السحيق .

ثالثا : المحافظة السياسية :

نعنى المحافظة السياسية المحافظة التي نشأت بسبب فشل التحديث السياسى ابان الثورات العربية الاخيرة . لم تنشأ المحافظة من السياسة مباشرة بل نشأت كرد فعل على عملية التحديث السياسى التي لم تمس جذور الشعب ووجدانه التاريخى . فلم تتجاوز المبادئ السنتة فى ١٩٥٢ التي قامت الثورة لاعلانها مستوى الخطابة السياسية . كما كانت الاشتراكية الديموقراطية التعاونية فى ١٩٥٧ كلمات فضفاضة لم ترتبط بجذورها فى وجدان الشعب وتراثه الطويل . ثم جاءت الاشتراكية فى ١٩٦١ وكأنها ايديولوجية الحكومة تحدد الملكية ، وتحدد ساعات العمل ، وتحدد الحد الأدنى للاجرة ، وترسى قواعد انتفاع العام . ولكن كان ذلك كان تلبيات لحاجات الجماهير الوقتية دون أن تتأصل فى وجدانهم ودون أن تتحول الى ايديولوجية سياسية للجماهير . صحيح حاولت منظمات الشباب ، والمعاهد الاشتراكية ، والصحافة الحزبية ، وأمانات الدعوة والفكر ، وترجمات امهات الكتب عن الاشتراكية عرض المذاهب الاشتراكية عرضا مفصلا ولكنها لم تتجاوز بعض المبادئ التي يتلقاها الشباب ويكررها والتي تقف فيها جماهير الشعب على الحياد التام . لذلك لم تدافع الجماهير عن ايديولوجية الثورة أى عن الاشتراكية العربية فى الوقت الذى اختفت فيه الزعامة الثورية وحلت محلها زعامة الثورة المضادة وكأن الامر لا يعينها . لم تتحول ايديولوجية الثورة الى عقيدة ثورية عند الجماهير متصلة بحياتها ومتأصلة جذورها فى تاريخها . فظلت الجماهير مسالمة من جانب تسمع خطبا فى الاشتراكية من جانب آخر دون أن يحدث تأويل لعقيدتها الدينية بحيث تكون الاشتراكية مضمونا لها ودون ان تتحول الاشتراكية

الى مضمون لعقيديتها • بقى التوحيد فارغا بلا مضمون الا من تشخيص
الله الحى الرزاق ، وبقيت الاشتراكية خطبة حماسية تلوب مشاعر
الناس وتنتظرها بين الحين والآخر فتخفف من سلواها وأحزنها حتى
موعد الخطبة القادم أو بقت ايدولوجية الطبقة الحاكمة توزع مكاسب
الاشتراكية فيما بين افرادها أو اشتراكية القول والكلام دون الفعل
والممارسة •

لقد حاولت الثورة تطوير الدين من الناحية الشرعية ولكنها لم
تعد تفسيره على نحو جماهيرى بحيث تتحول عقيدة الجماهير الى
ايدولوجية ثورية • ألغت المحاكم الشرعية ، وحاولت اعادة صياغة
قانون للاحوال الشخصية عدة مرات ، ألغت الوقف ، ونظمت الطرق
الصوفية ، وأصدرت قانون تطوير الازهر ، وأنشأت المجلس الاعلى
للتئون الاسلامية ، وركزت على أهمية التربية الدينية فى المدارس ،
وأقامت برامج دينية جديدة فى أجهزة الاعلام ، ومحطة مستقلة للقرآن
الكريم ، وأكثرت من بناء المساجد والمعاهد الدينية لتحفيظ القرآن
الكريم • ولكن كل ذلك لم يمس قضية اعادة ربط العقيدة بالمساواة والله
بالارض ، ولم يستثمر كل طاقات العقيدة الدينية كحامل أو مد لمشروع
الثورة القومى فى معاداة الاستعمار والصهيونية والرأسمالية والرجعية •
كانت كل هذه الاصلاحات التشريعية تهدف الى تحقيق مصلحة عامة ،
فكانت تحدينا للقانون الدينى ، ولكنها لم تمس العقيدة الدينية ذاتها التى
ظلت على ماهى عليه تقليدية سنية اشعرية صوفية تقوم على سلطوية
التصور ، وحرفية التفسير ، واطلاق الارادة الالهية ، وفناء العالم، وتبعية
الجسد • وما ان اختفت الزعامة الثورية حتى بقت المحافظة الدينية
الاساسية • ولم تستطع الخطب الحماسية والاقوال والشعارات الابقاء

على شيء من المكاسب الاشتراكية . بل انه حتى بعد السلام مع اسرائيل والاعتراف بالدولة الصهيونية لم تتحرك الجماهير ولم تعارض وذلك لان العداء للصهيونية كان عداء سياسيا خالصا ولم يرتبط بالعقيدة الدينية التي ظلت على تقليديتها مصافقا اليها خطابة سياسية لا ثقلا لها .

كانت هناك زعامة ثورية ولكن لم تكن هناك عقيدة ثورية أو جماهير ثورية ، وهو ما حاولت الثورة الايرانية تلافيه فيما بعد . مما دعا البعض الى القول بأن الثورات العربية ذاتها لم تكن جادة في تحقيق مشروعها القومي في معاداة الاستعمار والصهيونية والرأسمالية والرجعية . فمعاداة الاستعمار تقتضى ربط الله بالارض ، والعقيدة بالحرر ، والايمان بالمقاومة ، وتبرز الجهاد كأول واجب على المسلم . ومعاداة الصهيونية تقتضى رفض عقيدة شعب الله المختار ، والوقوف امام التوسع والعنصرية . وتقتضى ايضا الكشف عن تغلغل الفكر الرأسمالى في تصورنا للعالم بل وفي ايماننا بعقائدنا على النحو الموروث ، والربط بين التوحيد والمساواة في المجتمع الاسلامى اللاطبقى ، واظهار المالكية لله ، واستخلاف الانسان ، وحق الدولة في التأميم والمصادرة ، وملكية الوسائل العامة للانتاج ، ونقد تكديس المال بين حفنة من الاغنياء ، ونقد المجتمع الرأسمالى بوجه عام . كما تقتضى تنفيذ النظم الرجعية المتخلفة والكشف عن وضع رجال الدين فيها وكيف يأترون بأوامر الحكام ، وكيف يفسر الدين لتثبيت الوضع القائم ، وكيف تنهم في مثل هذه المجتمعات ممارسة الشعائر الدينية نفاقا وتستترا على مظاهر السرقة والنهب والتسلط والطغيان . ولكن ترك هذا التحديت الجوهري للعقيدة الدينية والاكتفاء بالتحديت السياسى الذى ساهم في غياب النقض النظرى في الثورات العربية وجعلها متعثرة ذات طابع تجزييى خالص ،

تسير وفقا للظروف وتصدر قراراتها طبقا للاحداث مما جعلها تسير من اليمين الى اليسار مرة ومن اليسار الى اليمين مرة أخرى ، وكل ذلك بدعوى الوسط .

وكان من جراء ذلك التحديث السياسى دون المساس بعقائد الجماهير، عدم تأصيل التجربة الثورية على المستوى النظرى . والقدر النظرى الذى وجد غلب عليه طابع النقل والتجميع . ولكن الذى كان غالبا على مستوى تصورات العالم ورؤى القيادات والجماهير للكون هو التصور الغربى للعالم الناتج عن الرأسمالية الغربية والتي سرعان ماتجرت وظهرت بعد اختفاء زعامة عبد الناصر الثورية . لم يحدث نقد للثقافة الغربية يمكن تحرر اذهاننا منها . فأدرنا القطاع العام بعقلية القطاع الخاص ، وطبقنا الاشتراكية بعقلية الرأسمالية . وكما قيل فى نكاتنا الشعبية اعطينا الاشارة يسارا واتجهنا يمينا .

وكان من شأن الطابع الاوتقراطى للنظام القضاء على كل محاولة لتأصيل الاشتراكية وتطويرها وأخذ المشروع القومى العربى مأخذا أكثر جدية وذلك بتجنيد الجماهير له . ولما كانت القيادات كلها من تكوين ثقافى غربى فان معظم القرارات قد صدرت لترسيخ البناء الرأسمالى للمجتمع خاصة فى أولويات الخطة . وعندما يقوم البناء الرأسمالى فى مجتمع متخلف فانه يصبح اشبه بالاقطاع الطبقي منه الى الرأسمالية المستنيرة الى تقوم على التراث الليبرالى . ومن ثم تتأكد المحافظة على الرغم من التحديث السياسى بل وتتأصل المحافظة نظرا لقوتها الكامنة وقدرتها على التأثير فى الجماهير وتقديمها تبريرا للنظم القائمة . وأصبح الوضع هو تحديث على السطح ومحافظة فى الاعماق، وما أسهل أن يتبدل م ١٣ - الحركات الدينية المعاصرة

السطح وتبقى الاعماق . وكان ثوراتنا العربية الاخيرة ، بالرغم من كل انجازاتها الخارجية كرست المحافظة التقليدية حتى بدت مجتمعاتنا قبل الثورة أكثر تقدما نظرا للتراث الليبرالي الذي كان ثابتا فيها منذ القرن الماضي . وقد كان لغياب حرية الفكر ، وعدم مساهمة المثقفين في عملية التحديث بعد أن تركوا دورهم لاجهزة الاعلام ، ونقص الجدية في تحقيق مشروعنا القومي نظرا لاتساع الهوة بين الاهداف المعلنة والقرارات الصادرة كان لذلك كله أثر في ترسيخ المحافظة نتيجة لعملية التحديث في النظم الخارجية وترك القوالب الذهنية والمكونات النفسية الموروثة ابان الالف عام الاخيرة دون تغيير أو تعديل .

رابعا : المحافظة الاجتماعية :

تعنى المحافظة الاجتماعية تلك التي نشأت بسبب البناء الاجتماعى الذى تكون ابان الثورات العربية الاخيرة . فبعد ضرب طبقة الاقطاع وكبار الملاك فى الريف ، انتقلت القيادة السياسية من الطبقة العليا الى الطبقة المتوسطة . وقد ورثت هذه الطبقة بعض امتيازات الطبقة العليا وذلك لحاجة رجال الثورة للتعاون مع بعض الفئات يحكمون من خلالها ويعتمدون على خبرتها . حدث صعود اجتماعى سريع للطبقة المتوسطة ابان الثورة حتى أصبحت تسمى فى منتصف الستينات الطبقة الجديدة وفى أوائل السبعينات القطط السمان أو مليونيرات مصر الجدد أو الاقطاع الجديد فى الريف أو الرأسمالية الوطنية بالرغم من التفرقة فيما بعد بين غير المستغلة ، والمستغلة منها . ولما كانت لكل طبقة قيمها ، فقد ساعدت قيم الطبقة المسيطرة بتحالفها مع الطبقة المتوسطة وقيمتها على الدفاع عن الوضع القائم وترسيخ قيم الطبقة الدنيا والدفاع عنها . ولا تعنى الطبقة هنا معناها الضيق الدقيق أعنى المعنى الاقتصادى فحسب بل

تعنى اساسا المعنى السياسى ، أى نسبة كل طبقة من الحكم ، ومدى مساهمتها فى صنع القرار السياسى ، وموقعها من السلطة . وحتى اذا كانت السياسة تعبيرا عن الوضع الاقتصادى فان الحكم تعبير عن البناء الاجتماعى . وقد ظهرت المحافظة الاجتماعية ابتداء من السبعينات وبعد اختفاء زعامة عبد الناصر الثورية وظهور تحكم البناء الاجتماعى والاقتصادى فى اصدار القرارات السياسية ، وسيطرة الطبقة الجديدة على الحكم بعد أن بانّت مخاطرها . وكانت هناك محاولات لتحديد أثر هزيمة حزيران وفى برنامج ٣٠ مارس ١٩٦٨ ، وفى دراسات مؤتمر المبعوثين المقدمة من وفد المدارس بفرنسا فى أغسطس ١٩٦٦ بالاسكندرية ولكن احدا لم ينتبه اليها الا بعد تجسيم مخاطرها بعد الهزيمة .

وتتمثل قيم الطبقة الحاكمة فى عدة قيم يجمعها مفهوم « كبير العائلة » أو « رب الاسرة » الذى وجب له الاحترام ، وعدم مناقشته أو الاعتراض عليه ، وتقبل قراراته الابوية باعتبارها خيرا للجميع حتى وان بدت فى الظاهر مضرّة عليهم ، ويبرر رجال الدين قائلين ان مرارة الدواء ضرورية للشفاء . وان ما يراه القادة الحكماء المبصرون على المدى الطويل انفع للناس مما يراه الحكمون الذين يتحركون بدافع الجوع والحاجة فى اللحظة الحاضرة . هذه الصورة الابوية التى تقررها الطبقة الحاكمة فى وعى الجماهير تثبت الوضع القائم ، وتمنع من أى حراك اجتماعى أو معارضة سياسية وذلك لانه كبير العائلة ، تجب له الطاعة المطلقة ، والاحترام والتبجيل ، وهو أشبه برجل الدين المقدس ، أو بزعماء القبائل ، أو ببطريك العبرانيين . ويساعد على ذلك « عصا المارشالية » والوشاح الاخضر ، وكأنها عصى موسى ووشاح المولى . ويظهر فى أجهزة الاعلام وهو يصلى فى مساجد

القرية او بالجلبات البلدى أو يتمتم بشيختيه ، ويسبل عينيه ،
ويبيده سنبحة يذكر بها اسماء الله الحسنى •
ينادى الجنود بأولادى ، والمذيعه بابنتى ، والطلبة بأبنائى ، وهو
الاب الكبير • وتذاع الاغانى عن كبير العائلة الذى يفيض حكمة وبصيرة •
وأفضل الافلام التى يجب ان يتم الاكثار منها هو « وبالوالدين احسانا »
التى يرجع فيها الابن الضال ، تائباً عن ثورته الى الاعتراف بالسلطة
الابوية • وعندما يتم تنظيم حزب يتم احضار وجهاء « القوم ، وكبار
الموظفين ، ورؤساء الجامعات وينثر حولهم الشباب حتى تتأكد صورة
رؤساء القبائل والعشائر • ويلجأ الى السلطة الدينية لتأكيد الصورة
الابوية ، فيبدأ باسم الله ويختتم بآية المغفرة والتوبة أو بدعاء صوفى ،
فيتحد الرجل السياسى مع الرجل الدينى • ويكون أخطر زعيم
هو الخمينى ، وأخطر ثورة ثورة ايران ، الاول يجعل من الدين ثورة ،
ومن الزعامة تعبيراً عن مصالح • الشعب ضد التسلط والظلم والطغيان •
ويكون أخطر استاذ هو الذى يدعو الطلبة الى التفكير والنقد ونبذ
سلطة الموروث ، وتكون اخطر صحافة هى التى تنقد السلطة ، فكل
نقد تشكيك أو عمالة ويصبح أخطر حزب هو الحزب المعارض الذى
لا ياتمر بأوامر السلطة ، ويحرك الناس • وفى مقابل السلطة الحاكمة
التى تمثل الطبقة العليا تأتى جماهير الشعب المحكومة والتي تمثل
الطبقة الدنيا • ونظراً لجهل هذه الطبقة وتغيب وعيها فان الطبقة
الحاكمة تفرز لهذه الطبقة قيما تناسبها وتؤكد على طاعتها لاولى الامر
مثل الطاعة ، والايمان ، والصبر ، والحب ، والسلام • وهى كلها
قيم سلبية تدعو الى الاستكانة وعدم الحركة أو تفسر قيما اخرى
ايجابية مثل الاصلالة والصلابة على نحو سلبى •

فالطاعة واجبة لاولى الامر • وكل ثورة على السلطة خروج

ومروق وفتنة وعمالة للخارج أو حقد من شخص موتور أو تعصب
وجهل ديني . وبالتالي أصبح الثبات الاجتماعي هو نموذج التحديث
وليس الحراك الاجتماعي ، ومن ثم كثرت قوى الامن المركزي ، وعظم
دور وزارة الداخلية ، وكثر امناء الشرطة ، ونظم الحرس الجامعي ،
وطلب من مؤسسة أو نقابة أو هيئة تطهير صفوفها من المشاغبين
والملاحدين والعملاء والمشككين والحاقدين والمنعصين . والايمن أخص
ما يميز هذا الشعب ، الايمان بالله وكتبه وملائكته ورسله واليوم
الآخر ، الايمان بالغيبات وبالموضوعات المفارقة للعالم . وليس من
مضمون الايمان حق الفقراء في أموال الأغنياء ، أو ضرورة تحرير
الارض ، أو معادة العنصرية والاطماع التوسعية ، أو الوقوف في
مواجهة الاستعمار والرجعية . الايمان مفتوح نحو الماضي ونحو
الاعلى وليس نحو الحاضر ونحو الاسفل . فهو ايمان بالتراث والعقائد
وليس ايمانا بالتجديد وبحاجات الناس . والصبر صفة أخرى للشعب
تجعله يرضى بالوضع القائم ، وأنه لا خلاص في الحاضر على يد أحد
من البشر بل الخلاص في الآخرة . حيث يطعم الجياع ، ويلبس العراة ،
ويسكن الذين بلا مأوى ، ويتحرر المستعبدون . فالصبر مفتاح الفرج
كما يقال في امثالنا العامية . ويؤول رجال الدين آيات الصبر في القرآن
لأثبات الصبر ناسين الآيات التي تحث على ترك الصبر مثل « فما
أصبرهم على النار » . والحب وسيلة للترابط الاجتماعي ، وسيعطى
الغنى الفقير بالحب ، ويعطى صاحب رأس المال حقوق العامل بالحب ،
ويتنازل الطاغية عن سلطته للشعب بالحب . فالحب مهرجان بين القائد
والشعب ، يظهر في الاستقبالات والاحتفالات الشعبية التي تنظمها
الحكومة لنفسها باسم الشعب . والحب يقضى على الصراع ، ويلغى

المتناقضات ، ويجب التفكير والتحليل • أما السلام فإنه يعبر عن طبيعة الشعب الذى يتسامح مع الميئ •

ويقوم التبرير الدينى باعلان ان الحرب لم تشرع لذاتها ، وان العدو محب للسلام فيجب أن نقابل سلاما بسلام ، اذا سار نحونا خطوة سرنا خطوتين • وهكذا يكون التعامل من شعبين متحضرين يعيشان فى جزيرة منعزلة وسط دول همجية متخلفة ! أما الاصلالة فلا تعنى تطوير الجديد ، وبالتالي تكون قيمة ايجابية بل تعنى المحافظة على القديم والتعصب له ، والتصلب فى الدفاع عنه ، فالموروث القديم خير دعامة للمحافظة على الوضع القائم • تعنى الاصلالة رفض الافكار المستوردة ، والوقوف أمام المذاهب الهدامة المعارضة لتراث البلاد • والحقائق أن الهدف منها هو الدفاع عن الوضع القائم ، ومنع أى عناصر حركة فيه وعلى رأسها الفكر الثورى والمذاهب الداعية الى التغيير الاجتماعى • أما الصلابة فتعنى رفض التغيير ، والوقوف أمام كل المحاولات لتغيير النظام الاجتماعى • فهى صلابة المحافظة على القديم ، وتصلب ضد قوى التغيير ، وعدوانية ضد جميع مراكز التفكير والخلق ، ودوائر النقد والمعارضة • لا تعنى الصلابة الثبات فى الجهاد ، والمثابرة على المقاومة ، ولكن تعنى الثبات على القديم ، والعص بالنواجذ على الموروث •

أما الطبقة المتوسطة التى تحكم الطبقة العليا من خلالها ، والتى نفرز من خلالها تميم السيطرة لها والخضوع لغيرها فإنها أيضا تفرز قيمها بمساعدة الطبقة الحاكمة التى تخدم مصالحها ، وهى نفس مصالح الطبقة الحاكمة • مثل الشرعية الدستورية ، سيادة القانون ، النظام والامن ، دولة المؤسسات • فالشرعية الدستورية تعنى حكم

النظام والدولة وليس حكم التغيير والثورة • والانتقال من الشرعية الثورية الى الشرعية الدستورية هو في حقيقة الامر الغاء للثورة من أجل الدولة ، وقضاء على التغيير من أجل الثبات • هذا بالاضافة الى أن الدستور يتغير من أجل الثبات ، وتتغير بنوده من أجل اطالة حكم الرؤساء الى مدى الحياة أو لاستعمال بنوده الاستثنائية التي تعطى الحكام الحق المطلق في اصدار القوانين واصدار الاحكام العرفية ، والمحاكم الاستثنائية ، وتنظيم الاستفتاءات الشعبية لتأييد الحام أو لاختيار رأي الشعب في الموافقة على اسقاط حريته ، وقبول احتلال العدو لارضه • أما دولة المؤسسات فتعنى اعطاء كل ردة رجعية صيغة قانونية • فمجلس الشعب مؤسسة لا يمكن تجاوزها طالما انها في يد الحكام • ولا يطاق فيها صوت معارض حتى ولو كان واحدا ، ويكون جزاؤه الفصل أو التجاهل أو السجن أو المحاكمة والادانة سلفا • والصحافة مؤسسة مادام رؤساؤها معينون من السلطة ينفذون أوامرها ، ويكون جزاء المخالفين الطرد أو المنع أو التجاهل أو التخوين • والقضاء مؤسسة مادام يشرع القوانين الاستثنائية ، ويصادر صحف المعارضة ، ويدين المتظاهرين بالشيوعية ويحكم عليهم بالسجن والفصل ، والجامعة مؤسسة مادامت تراقب الاساتذة ، وتمنع الطلاب من نشاطهم الجامعي ، وتحرم مجلات الحائط ، وتوقف نشاط الاسر والجمعيات •

وهكذا تعنى المؤسسة اولوية الحكومة أو السلطة وسيطرتها على مضمونها وشل حركتها حتى توقفت حركة المجتمع ونشاط هيئاته بالمرّة • أما سيادة القانون فتعنى أيضا خضوع كل معارض لقانون العقاب • فالقانون ليس موضوعيا يقوم على الصالح العام بل يعبر عن هوى الحكام ومصالحهم واستحواذهم على كل السلطات • فكل

يوم يصدر قانون لتكبييل الحريات ، ومنع نشاط الافراد والهيئات، ومنع الحديث في الموضوعات الوطنية الكبرى أو مس القضايا السياسية العليا حتى أثناء المعركة الانتخابية حتى تكون المعركة نزيهة شريفة • تعنى سيادة القانون تحريم الثورة ، وقهر المعارضة ، ومنع حرية التعبير ، والخضوع التام لارادة السلطة • أما النظام والامن فيعنى الاعلان الصريح على ضرب كل تجمهر بحجة اثاره الفوضى وخرق النظام • فالمحافظة على الوضع القائم لا تكون بافراز قيم الطبقات بحيث تخدم الطبقة العليا فحسب بل تعنى الابقاء على هذا الوضع القائم بالفعل عن طريق أجهزة الامن المركزية والمحلية ، عصب السلطة ، ودعامتها الرئيسية • فيدعو الحاكم « اقتلوهم حيث ثقفتموهم » ويعنى المعارضة ، ويقول وزير الداخلية « سأنزل وراءهم الى الثوار وأطاردهم بمدفعى الرشاش » ، ويقول السلطان « سأصدر أوامرى باطلاق النار على كل المارقين » • وهكذا تكون قيم الطبقة المتوسطة في تحالف مع قيم الطبقة العليا من أجل السيطرة على الطبقات الدنيا بعد أن يفرز لها قيمها التي تدعو الى السكينة والخضوع • وبالتالي تتشأ المحافظة هنا من البناء الاجتماعى الذى يقوم على قيم الطبقات في نظام سياسى تسلطى يبعنى الابقاء على الاوضاع القائمة •

ان البحث عن أسباب سيادة الاتجاهات المحافظة في حياتنا الراهنة لواجب وطنى على كل المثقفين الثوريين والباحثين الاجتماعيين والتي قد يسميها البعض الانتكاسية الثورية أو الهجمة البترية أو الردة المعاصرة • ويمكن لاختلاف المناهج التحليلية المساعدة على الكشف عن هذه

الاسباب • والمنهج الفكرى الخالص الذى يعتمد على تحليل الموروث
باعتباره موضوعا مستقلا فى الشعور قد لا يكون هو المنهج الوحيد
لدراسة هذه الظاهرة التى نراها جميعا ونقف منها موقف الدهشة
والتعجب • ولكن على الاقل يستطيع المنهج الظاهرى (الفينومينولوجى)
الكثف عن نشأة الظاهرة وتتبعها فى الوعى الحضارى • ومن يدرى
فقد نكون أشبه بهذا الطائر « فينكس » الذى تبعث فيه الحياة من خلال
الرماد •

أثر أبي الأعلى المودودي على الجماعات الدينية المعاصرة

مقدمة :

بالرغم من وجود أسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية لظهور الجماعات الدينية المعاصرة خاصة تلك التي تحاول أن تحقق أهدافها بالقوة (١) إلا أن الأسباب الفكرية أو الاسس العقائدية لا تقل أهمية عن الأسباب الاولى لأنها هي التي تعطي الاسس النظرية للسلوك ، وبالتالي تكون هي المحرك الاول لهذه الجماعات والدافع لها على الحركة والنشاط والتي تمدها بقيمها وأهدافها ووسائل تحقيقها وتنفيذها .

ولما كانت هذه الجماعات اسلامية أى أممية (تنتسب الى الأمة الاسلامية) فان مصادر فكرها تتجاوز حدود مصر بطبيعة الحال وتمتد الى باكستان التي نشأت بناء على دعوة اسلامية من أجل اقامة الدولة الاسلامية التي يجد فيها مسلمو الهند فلاحهم في الدنيا ونجاتهم في الآخرة . ومفكر الدولة الاسلامية الاول هو الامام أبو الأعلى المودودي الذي أنشأ حركته « الجماعة الاسلامية » بعد الاخوان المسلمين في مصر بثلاثة عشر عام تقريبا . وقد أثر في فكر الجماعة بعد استشهاد مؤسسها الامام الشهيد حسن البنا في فبراير ١٩٤٩ عند الامام الشهيد

المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، بحث الحركات الاجتماعية المتطرفة ، الحركات الدينية ، الندوة الاولى ١٤ / ١٠ / ١٩٧٩ .

(١) ان وصف بعض الجماعات الدينية المعاصرة بالتطرف هو حكم مسبق يفترض أن الدعوة الدينية تقوم على الموعظة الحسنة كما أن وصفها بالتعسف أيضا حكم مسبق لأن محاولة تحقيق الاهداف بالفعل ليست عنفا الا من وجهة نظر السلطة القائمة وعند فشل هذه المحاولات فقط .

سيد قطب • فجمع فكر الاخوان بين الفكر الاصلاحى عند آخر ممثليه السيد رشيد رضا (وقد كان حسن البنا تلميذا له يفكر فى اصدار « جريد المنار » بعد توقفها فى ١٩٣٥) والفكر الالهى عند أبى الاعلى المودودى • ولما كان الفكر الاصلاحى لاينمو نموا طبيعيا الا بالممارسة العملية لحركة الاصلاح فقد توارى الفكر الاصلاحى فى فكر الجماعة عند سيد قطب وظهر الفكر الالهى عند المودودى تغذيه وتقويه جدران السجون • وقد نشأت الجماعات الدينية المعاصرة داخل حركة الاخوان المسلمين فى أروقة المعتقلات وفى نقاش حول حاضر الحركة الاسلامية ومستقبلها • وقد ظهر الخمينى بعد المودودى وسيد قطب يعطى نفس الطابع ويقويه النجاح المذهل فى اسقاط الشاه •

ويستحاول هذه الدراسة وصف البناء الايديولوجى لفكر أبى الاعلى المودودى أساسا فى اطار الظروف الاجتماعية والسياسية التى سهلت تأثير هذا الفكر على الجماعات الدينية فى مجتمعاتنا الاسلامية المعاصرة • كما ستحاول هذه الدراسة اعادة هذه البناء الى مساره الطبيعى لان الفكر لايقف أمامه الا فكر • ولاتنفع معه وسائل القمع المضاد •

ويبتسم الفكر الدينى عند المودودى بطابع خاص تجعله ذا بناء محدد ، يظهر فى سلوك هذه الجماعات الدينية المعاصرة • ويمكن وصف هذا البناء على النحو الآتى :

١ - الحاكمية لله :

تعطى الحاكمية لله تصورا مركزيا للعالم • فالله قمة الكون خلقه ويحكمه ويسيطر عليه • « الارض كلها لله وهو ربها والمتصرف

في ثنئونها • فالامر والحكم والتشريع كلها مختصة بالله وحده وليس
لفرد أو أسرة أو طبقة أو شعب بل ولا للنوع البشرى كافة شيء من
سلطة الامر والتشريع • فلا مجال في حظيرة الاسلام ودائرة نفوذه الا
لدولة يقوم فيها المرء بوظيفته خليفة لله تباركت أسماؤه • ولا تتأتى
هذه الخلافة بوجه صحيح الا من جهتين : أما أن يكون ذلك الخليفة
رسولا من الله أو رجلا يتبع الرسول فيما جاء به من الشرع والقانون
من عند ربه « (٢) فالانبياء هم المعلنون عن هذه الحاكمة ، ومعهم
القادرون على السير على هداهم • وتتبع السيطرة على الكون بكل
مافيه حدا لا يستطيع معه أحد الخروج عنه ، « مامن حاكم ولا ولى
ولا مليك مقتدر لهذا الكون الا ذلك الاله الواحد الفرد الصمد • وأنه
هو الحاكم القاهر الذى لامعقب لحكمه ولاشريك له فى الملك ، ولاينفذ
فى السموات والارض الا أمره (٣) • فلا تكن الا عبد الله ولا تأتمر
الا بأمره ولا تسجد لاحد من دونه فانه ليس هناك من صاحب جلاله
فالجلاله كلها مختصة بذاته جل وعلا ، وليس هناك من صاحب قداسة
فالقداسه بأسرها مركزة فيه تقديست أسماؤه ، وليس هناك من صاحب
سمو ، فالسمو لا يستحقه أحد من دونه ، تعالى شأنه ، وليس هناك
من صاحب سيادة ، فالسيادة بأجمعها مقتبسة من شرفه ، جلت
قدرته وعظم شأنه ، ولا شارع من دونه ، فالقانون قانونه ، ولا يلبق
التشريع الا بشأنه ، ولا يستحقه الا هو ، ولا ملك ولا رازق ولا ولى
الا هو ، وليس من دونه من يسمع دعاء الناس ويستجيب لهم ، وليست
مفاتيح الكبرياء والجبروت الا بيده ، ولا علو لاحد ولا سمو فى هذه

(٢) أبو الاعلى المودودى : منهاج الانقلاب الإسلامى ص ١٥ - ١٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٤١ - ٤٢ .

الدنيا فكل من في السموات والارض عباد أمثالك والرب هو الله وحده •
فارغض كل أنواع العبودية والطاعة والخضوع لاحد من دونه ، وكن
عبد الله ، فانتا مستسلما لاوامره» •

ولما كانت الحاكمية لله فالاستخلاف لا يكون الا في الحاكمية •
« فالحاكم الحقيقي في الاسلام انما هو الله وحده ••• فاذا نظرت الى
هذه النظرية الاساسية وبحثت عن موقف الذين يقومون بتنفيذ
القانون الاسلامي في الارض تبين لك أنه لا يكون موقفهم الا كموقف
النواب عن الحاكم الحقيقي ، فهذا هو موقف أولى الأمر في الاسلام
بعينه » (٤) • الحاكمية لله وحده فهو وحده الحاكم الحقيقي في واقع
الأمر ولايستحق أن يكون الحاكم الاصلى الا هو وحده وهي حاكمية
قانونية تعنى خضوع كل من في الكون له • ولكنها تبقى فرضا مادامت
لاستند الى حاكمية واقعية أى سياسية أى مالكة للسلطة التي تحقق
هذه الحاكمية في الواقع • وهنا تأتي الخلافة تنفيذا للحاكمية (٥) •

ويعبر المودودي عن الحاكمية والخلافة في « الحكومة الاسلامية »
قائلا « أن تصور الاسلام عن الحاكمية واضح لانتشوبه ثنائيه • فهو
ينص على أن الله وحده خالق الكون وحاكمه الاعلى ، وأن السلطة
العليا المطلقة له وحده ، أما الانسان فهو خليفة هذا الحاكم الاعلى
ونائبه • والنظام السياسي لا بد وأن يكون تابعا للحاكم الاعلى • ومهمة
الخليفة تطبيق قانون الحاكم الاعلى في كل شيء ، وادارة النظام

(٤) أبو الاعلى المودودي : نظرية الاسلام السياسية ص ٤٥ •

(٥) أبو الاعلى المودودي : تدوين الدستور الاسلامي ص ١٨ - ٢٨ •

السياسى طبقا لاحكامه « (٦) • وقد قرر جميع الانبياء هذه الحاكمة وهذا الاستخلاف مؤكداين حقائق ثلاث : الاولى أن السلطة العليا التى على الانسان أن يخضع لها وبطبعها ويقر بعبوديته لها والتى يتأسس على طاعتها النظام الكامل للاخلاق والمجتمع والحضارة هى سلطة الله وحده وينبغى التسليم بها وقبولها على هذا الاساس • والثانية حتمية طاعة النبى وحكمه بوصفة ممثلا ونائبا عن السلطان الاعلى والحاكم المطلق • والثالثة أن القانون الحكم الذى يقرر التحليل والتحرير فى جميع الميادين هو قانون الله وحده الناسخ لكل القوانين البشرية وليس للعباد حق المساءلة والنقاش فى أحكام الله فما حرمه الله يكون حراما وماحلله يكون حلالا لانه مالك كل شىء ويفعل مايشاء • وقد بين القرآن طاعة الانسان لله وللرسول ولاولى الامر • كما نص على الحاكمة فى « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون » • ويصفهم القرآن مرة أخرى بالظالمين ومرة ثالثة بالفاسقين • وليس صحيحا أنها آيات خاصة نزلت فى أهل الكتاب فى مناسبات خاصة بل هى أحكام عامة تتجاوز أسباب المنزول وتطبق على كل أمة بالنسبة لكتابها فى كل زمان ومكان (٧) •

وتتضمن الحاكمة رفض حاكمة البشر وضرورة الثورة عليها ، وكأن عصيانها أمر الهى • لذلك خرجت الجماعات الدينية على النظم القائمة كما فعلت الخوارج من قبل • ولا تعنى الخوارج هنا مايقصده رجال الدين والسياسة من شق عصا الطاقة ورفض سلطة الدولة وبالتالي ادانتهم ومحاكمتهم أمام القانون بل تعنى رفض الانضواء

(٦) أبو الاعلى المودودى : الحكومة الاسلامية ص ٦٤ •

(٧) المصدر السابق ص ٦٧ - ٧٤ •

تحت الملائحية الدينية كما رفض الخوارج من قبل وكما رفض آل البيت بقيادة على والحسين وباقي الائمة الرضوخ لسلطة الدولة الاموية التي اغتصبت الحكم وأخذته بالقهر والتهديد نازره وبالرشوة والاعراء تارة أخرى . ويثمثل هذا الرفض لحاكمية البشر في قول المسلم « لا اله الا الله معلنا السيادة لله ضد سيادة البشر . فنظرية التوحيد هذه ليست بعقيدة دينية فحسب . . . بل انما تقضى هذه النظرية على نظام الحياة الاجتماعية المبني على أساس استقلال الانسان بأمره أو حاكمية غير الله والوهيته ، وتقطع بها هذه الشجرة الملعونة من جذورها ، وينهدم هذا البنيان من أساسه ، ويقوم وينهض بنيان جديد على أساس غير هذا الأساس . . . المنادى يقول أن لملك لى الا الله ، ولا حاكم الا الله ، ولا أخضع لحكومة ، ولا أعترف بدستور ، ولا أتقاد لقانون ، ولا سلطان على المحكمة من المحاكم الدينوية ، ولا أطيع أمرا غير أمره ، ولا أتقيد بشيء من العادات والتقاليد الجاهلية المتوارثة ولا أسلم شيئا من الامتيازات الخاصة ، ولا أدين لسيادة أو قداسة ، ولا استخرى لسلطة من السلطات المتكبرة فى الارض المتمردة على الحق . وانما أنا مؤمن بالله ، مسلم له ، كافر بالطواغيت والآلهة الكاذبة من دونه . . . » (٨) . فالنظرية السياسية فى الاسلام تقوم على مبدأ أساسى وهو « أن تنزع جميع سلطات الامر والتشريع من أيدي البشر منفردين ومجتمعين ولا يؤذن لاحد منهم أن ينفذ أمره فى بشر مثله فيطيعوه أو ليسن قانونا لهم فينقادوا له ويتبعوه فان ذلك أمر مختص بالله وحده لا يشاركه فيه أحد غيره » (٩) .

(٨) منهاج الانقلاب لاسلامى ص ٤٤ - ٤٥ .

(٩) نظرية الاسلام السياسية ص ٢٧ .

لذلك تتميز الدولة الاسلامية بثلاث خصائص : الاولى أنه ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب أى نصيب من الحاكم الحقيقى هو الله • والثانية أنه ليس لاحد من دون الله شىء من أمر التشريع • والثالثة أن الدولة الاسلامية لا يؤسس بنيانها الا على ذلك القانون المشرع الذى جاء به النبى من عند الله مهما تغيرت الظروف والاحوال . وأن الدولة لاتستحق الطاعة الا من حيث أنها تحكم بما أنزل الله وتنفذ أوامره فى خلقه (١٠) •

وتتمثل حاكمية البشر فى ثلاثة نظم : العلمانية ، والقومية ، والديموقراطية وهى النظم التى سيطرت على الحياة السياسية فى الغرب • فالعلمانية تعنى عزل الدين عن الحياة الاجتماعية للأفراد وتقصده فقط بين العبد وربّه • أما القومية فانها تقوم على مصلحة الأمة ورغباتها بصرف النظر عن مصالح الأمم الأخرى ومن ثم نشبت الحروب بين القوميات ، والويل للمغلوب فلا مكان للضعيف • أما الديموقراطية فقد نشأت فى بداية أمرها ثورة على الاقطاع ولكنها انتهت الى سيادة الاكثرية على الاقلية • فالدولة العلمانية القومية الديموقراطية هى الدولة الحديثة التى تتمثل فيها حاكمية البشر فى الغرب والتى يرغب المسلمون فى تقليدها • وهى نظم كلها ترفض الحاكمية لله وبالتالى تجعل الفرد خاضعا لشهواته ورغباته ، وتجعل المجتمع خاضعا لاهوائه ومصالحه • وفى غياب حاكمية الله لا يوجد مكان الا للشيطان الذى يبشر بالاحاد والعنف • أما القومية فانها « تضع ذاتها ومصالحها ورغباتها الخاصة فوق جميع الناس ومصالحهم ورغباتهم ، والحق عندها هو ما

(١٠) المصدر السابق ص ٢٩ .

كان محققا لمطالبها واتجاهاتها ورفعة شأنها ولو كان ذلك بظلم الآخرين
واذلال نفوسهم » (١١) *

الدولة الاسلامية اذن ليست دولة شيوقراطية لانها ليست دولة
رجال الدين ، وليست دولة ديموقراطية لان الحكم ليس للشعب ، ولكنها
دولة « ثيوديموقراطية » الحاكمة فيها لله طبقا لاختيار الشعب ، فالله
هو المشرع والمسلمون هم المنفذون (١٢) * هي دولة لاتقوم على جنس
أو عنصر أو مصلحة أو حدود جغرافية بل دولة فكرية أى دولة مبادئ
وغايات (١٣) * الدولة الاسلامية تقوم على الديموقراطية الاسلامية ،
وفيهما يكون كل عضو في المجتمع خليفة ، لا فوارق في النسل أو في المهنة ،
وليس فيها استبداد طائفة بأخرى على الانتخاب بناء على التقوى ،
ويحكمها قضاء ليس من صنع أهواء البشر *

هذه الدعوة لحاكمية الله ورفض حاكمية البشر هي التي تدفع
الجماعات الدينية المتطهرة الى قيام مجتمع مغلق داخل المجتمع الكبير ،
وتجعل هدفها اقامة الدولة الاسلامية ، وشتت عصا الطاعة على النظم
القائمة ، وعدم التعاون مع الدولة اللادينية الذي يظهر في الطعن في
شرعية دساتيرها ، ورفض الطاعة لمن يحكم بغير ما أنزل الله ، وتحريم
الصلاة في مساجدها ، وتحريم الخدمة في قواتها المسلحة ، وتحريم العمل
في وظائفها الحكومية ، وجعل موضوع « الخلافة » أهم مؤلف لامير

(١١) أبو الاعلى المودودي : الاسلام والمدنية الحديثة ص ١٥ .

(١٢) نظرية الاسلام السياسية ص ٢٩ — ٣١ .

(١٣) منهاج الانقلاب الاسلامي ص ٩ ، وأيضا نظرية الاسلام السياسية

ص ٤٠ — ٤٤ ، وأيضا ص ٤٦ — ٥٢ .

الجماعة الدينية • ويقويها ضعف نظمها السياسية ، وتتضارب قوائمتها ، وقيامها على مصلحة البعض دون البعض الآخر ، وسن القوانين لعقاب المعارضة ، والرغبة في تغيير الامر الواقع وتكوين نظام أفضل • ولما غاب التنظيم الام أعنى « جماعة الاخوان المسلمين » التي كان يمكن أن تمتص عاطفة هؤلاء الشباب كما كانت تفعل في الاربعينات واولئ الخمسينات ، ولما غاب أيضا أى نشاط اسلامى على ظهرته هذه الدعوة في هذا الاسلوب المغلق السرى • وستظل الحاكمة لله مصدر قوة لهذه الجماعات ومصدر قلق للنظم القائمة ما لم تستند الى أسس انسانية وشعبية • فبالرغم من أن الحاكمة لله تعبير عن الارادة الالهية الا أنها أيضا تظهر في خلافة الرسول والائمة من بعده • وهؤلاء من اختيار البشر طبقا للبيعة ، وتحقيقا للشورى ، وكما تم اعلان ذلك في حضارة أخرى من أن « صوت الله هو صوت الشعب » *vox Dei vox populi* . ولكننا لم نصل الى هذه المرحلة بعد ، وما زالت حضارتنا مركزة حول الله *Theocentric* ولم تصبح بعد مركزة حول الانسان ، ويقوى هذا الوضع الالهي ويغذيه ماعليه نظمنا الاجتماعية من أنها أيضا تعبير عن ارادة الحاكم المطلقة يفعل مايشاء دون أى وجود لمؤسسات دستورية تراجعها أو لتنظيمات شعبية تقره أو لاجهزة جماهيرية تراقبه • لكل قواييننا ودساتيرنا تعبير عن هذا الحاكم المطلق • فاذا وضع الشباب المؤمن في الاختيار بين حاكمة الله وحاكمة البشر ، فما أسهل الاختيار بالنسبة له • وقد عبر عن ذلك أحد قضاة الاخوان عندما رأى التعارض الصارخ بين القانون الالهي والقانون البشرى بقوله « أنا قاض ولكنى مسلم » (١٤) •

٢ - التنزيل والنص :

يبدو التنزيل الالهي في اعتبارنا الاوامر الالهية للتنفيذ ومعرفتها من الوحي مباشرة بقراءة النصوص الدينية وفهمها فوما حرفيا بالاعتماد على سلطة النص وحده المتمثل في « قال الله » و « قال الرسول » .
لذلك تسود الحجج العقلية وتنقل الحجج العقلية . ولما كانت الحجج العقلية قاطعة لاتحتمل وجهين كانت الاوامر الالهية كلها محكمات وليس بها من المتشابهات شيئا . لذلك كان أهم كتاب للمودودي هو « ترجمان القرآن » الذي يشابه « في ظلال القرآن » لسيد قطب . وهو تفسير شامل للقرآن سورة سورة ، وآية آية حتى يتم الكشف عن التنزيل دون تأويل أو جمع للموضوعات المتفرقة وعرضها في نسق محكم (١٥) .

وخطورة منهج التنزيل أي استنباط الاحكام الالهية مباشرة من القرآن دون اعتماد على العقل أو المشاهدة هو أولا اخراج الكلم عن مواضعه واستعماله في غير ما أنزل فيه ، وتأويله على غير معناه ، ومن ثم تنتهي الحرفية الى عكسها أي التأويل بلا شاهد حسي أو دليل عقلي .
ثانيا أخذ بعض الكلام وترك البعض الآخر ، وانتقاء الآيات التي تشير الى الحاكمية لله وترك الآيات الاخرى التي تشير الى وضعية الشريعة حتى تنفق الحاكمية مع التنزيل . ثالثا ، عدم أعمال العقل والاثبات بالبرهان والاعتماد على سلطة النص وحدها وبالتالي استحالت مخاطبة غير المؤمنين كما استحالت الحوار بالعقل حول معانى النصوص . فالنصوص ليست

(١٥) انظر أيضا : أبو الاعلى المودودي : المبادئ الاساسية لفهم القرآن ، وأيضا تفسير سورة النور .

موضوعا للحوار بل موضوع للتنفيذ + رابعا : استحالة المعارضة العقلية لسلطة النص وايجاد التفسيرات المغايرة التي تقوم على الدليل العقلي والشاهد الحسى + خامسا ، تحويل الشاهد الى تعصب وقوة واقتناع لايتزحزح عنه حتى ولو كانت أمامه عشرات البراهين العقلية المضادة حتى تحول الحوار الى جدل انفعالى يقوهم على مقدمات نفسية مسبقة •

ويقوى ذلك فى مجتمعاتنا اننا مازلنا نعيش مرحلة النقل ، والاعتماد على سلطة الموروث ، واستمرار علمنا من انكتب والنصوص ، واستشهادنا فى حياتنا العامة بأقوال القادة والحكام وكتابات أولى الامر وخطبهم • ولكن عند الشباب المؤمن أى الكتب أولى بالاستشهاد : كتاب الله أم كتاب الامير ؟ لذلك يرفض المودودى وضعية الشريعة بمعنى أن لها أساسا وضعية تقوم عليها • فينفذ قانون تحريم الخمر فى أمريكا لانه من وضع البشر بعد أن عرفوا أنها « ضارة بالصحة ومفسدة للقوى الفكرية ، وهدامة لبناء المدنية النسانية » (١٦) مع أن أهم مايميز الشريعة الاسلامية هو وضعيتها • فبالرغم من أن القانون الاسلامى تعبیر عن الارادة الالهية الا أنه يقوم أيضا على الدفاع عن مصالح البشر • فهو قانون وضعى يقوم على أسس موضوعية فى الدفاع عن المصالح العامة والتي أطلق عليها الاصوليون القدماء الكليات الخمس : الدين ، والحياة ، والعرض ، والعقل ، والمسأل • وان كل أبحاثهم فى العلل وأنواعها وطرق معرفتها لترمى أساسا الى البحث عن وضعية

(١٦) نظرية الاسلام السيمانية ص ٣٤ - ٣٥ ، وأيضا ابو الاعلى المودودى : نحن والحضارة الغربية ، بين الشريعة الربانية والقانون الوضعى ص ٥٢ - ٦٩ •

الشريعة وقيامها على جلب المنفعة ودفح المضرة • وبالتالي يمكن الدخول في نقاش مع الجماعات الاسلامية عن الاسس الوضعية للتنزيل والاشتراك معهم في تحديد مصالح المسلمين • وقد يصعب ذلك لسببين: الاول تحجر فكر الجماعات وعدم استطاعتها التفكير في الاسس الوضعية للتنزيل • والثاني تخرج النظام القائمة من الدخول في نقاش عام حول « مصالح المسلمين » نظرا للاوضاع المخالفة للشرع التي نعيش فيها مثل الفقر والتسلط والخوف • فلا يمكن النقاش حول الدين وقد تحول الى شعائر وطقوس ومظاهر خارجية وبعد أن قامت الدعوات لفصله عن الدولة • كذلك لايمكن النقاش حول الحياة والنظام السياسي يدعو الى الفصل بين الدين والدولة ، ويجعل الدين ندور العبادة والدينا للمؤسسات السياسية • ولا يمكن الحوار حول المال نظرا لوجود الاقلية المترفة بيدها المال في مقابل الاغلبية الفقيرة المعدمة التي تكذب من أجل سد رمقها • ولا يمكن المناقشة حول العقل نظرا لما تبته السلطة القائمة من دعوات ايمانيه واحتفالات دينية وابتهالات صوفية ورؤية للمعجزات تجعل العاطفة هي وسيلة التخطاب ، وتفسح المجال للتعصب الديني • ولايمكن الحديث عن العرض نظرا لما تسمح به الدولة من مظاهر للخلاعة والفجور في حياتنا العامة وفي أجهزده الاعلام •

ويمكن التخفيف من حدة التنزيل بعدة طرق : أولا ، استعمال النص المعارض ، ومقاومة النص بالنص حتى لا تكون شرعية النص أحادية الطرف • ثانيا ، نقل المجتمع كله من مرحلة المنقول الى مرحلة العقول من أجل الاعتماد على العقل حتى ينشأ الحوار ، وتتم البرهنة على الشيء بالدليل فتخف حدة التعصب والانفعال • ثالثا ، الاعتماد على الواقع المرئي والعيان المباشر وادخال الواقع في بطن النص حتى

يتحول الشكل الى مضمون وحتى يمكن رؤية المنفعة والضرر كأساس
للتحليل والتحرير *

٣ - الثنائية المتصارعة :

تكشف هذه الثنائية المتصارعة عن جدل الكل أو لا شيء كما تكشف
عن ثنائية متعارضة متصارعة بين النقيضين : الخير والشر ، الحق
والباطل ، الصواب والخطأ ، الهداية والضلال ، الايمان والكفر ، الاسلام
والجاهلية ، الاسلام والغرب أو عن عدة صور فنية مثل الملك والشيطان ،
الجنة والنار * ولا سبيل الى ايجاد حل وسط بين هذين الطرفين
المتصارعين أو الانتقال من أحدهما الى الآخر عن طريق التوسط
والتدرج * الخير مطلق ، والشر مطلق ، والحق مطلق ، والباطل مطلق ،
ولا مكان للمواقف النسبية أو الشك أو الظن أو التردد * وهى ثنائية
تحدد العلاقة من جديد بين حاكمية الله وحاكمية البشر ، بين الحكومة
الدينية والحكومة اللادينية على مستوى العمل والممارسة *

والعلاقة الطبيعية بين الطرفين هى علاقة التضاد دون واسطة
أو مصالحة * فبقاء أحدهما مرهون بالقضاء على الآخر * وان بقاء
الباطل فى غيبة الحق عنه * ومن ثم ينشأ الصراع بين الجماعات الدينية
والسلطة القائمة ، كل طرف ينتهز الفرصة للانقضاض على الطرف
الآخر ، ويتشكك فى نواياه * ولما كانت سلطة الدولة هى الاقوى كان
القهر دائما من جانبها ، وكان رد الجماعات عفويا ، جزئيا ، اعلاميا
لاثبات الحق من حيث المبدأ فينال أعضاء الجماعة الشهادة ويكونون
علامة على الطريق *

فهناك صراع بين الاسلام والجاهلية * ففى المعرفة تكون
الجاهلية طريق الحس والمشاهدة وطريق الحدس والتخمين * فالطريق
الاول يقود الى الفكر الطبيعى الذى يجعل العالم مصدر المعرفة
والذى يؤدى على مستوى السياسة والاجتماع الى الحاكمة البشرية .
حاكمة الطبقة أو الاسرة أو الجمهور ، وحب الذات والشهوات ،
والخلاعة والفحشاء ، والى الانتقال من الاقطاع الى الرأسمالية فى
دكتاتورية العمال وأخيرا الى التعليم العملى المهنى وليس الى التعليم
الدينى العقائدى * وهو الفكر الذى انتج كل المذاهب السياسية الغربية
من قومية وتسلطية (استعمار) (١٧) * والطريق الثانى طريق الحدس
والتخمين يؤدى الى الشرك الذى يجعل الحياة مرتعا للاوهام
والنقوس والخرافات أو الى الرهبانية التى لا تتجاوز الفردية والانانية
والسلبية والتكفير عن الذنب أو الى وحدة الوجود التى يمحى فيها
التمييز بين الخالق والمخلوق (١٨) * أما طريق الاسلام فهو طريق النبوة
ونظرة الانبياء للانسان وللكون التى تجعل الله مسيطرا على كل شىء
وحادما وأمرأ وقاضيا * ولا سبيل الى المصالحة أو الى التوفيق بين
الطريقين ، طريق الجاهلية وطريق الاسلام (١٩) * ولا يذكر المودودى أن
الحس والمشاهدة مصدران من المعرفة عند الاصوليين وأن الحدس

(١٧) ابو الاعلى المودودى : الاسلام والجاهلية ص ١٣ — ٢٤ .

(١٨) المصدر السابق ص ٢٤ — ٢٦ .

(١٩) المصدر السابق ص ٢٦ — ٦٤ .

يعطى البديهييات وهى أيضا مادة للمعرفة فى عام أصول الدين • كما أن المودودى لا يذكر الآثار العملية التى تنتج عن كل طريق وكيف أن المغرب تقدم بالفكر الطبيعى وأنا قد تأخرنا بالفكر الالهى •

وأحيانا تكون الثنائىة المتصارعة بين الاسلام والغرب ، الروحانية والمادية ، الدينية واللادينية • فالمازاهب الاوربية كلها فلسفية أم سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية مازاهب جاهلية : المادية ، مذهب المنفعة (فلسفة الذرائع) • والقومية ، الديموقراطية ، العلمانية ، الرأسمالية ، الاشتراكية ، الفاشية ، النازية ، الفوضوية • فالتغرب بعد أن ترك الدين نظرا لظروف الكنيسة فى العصر الوسيط ، لم يبق له الا الدنيا • ولما كان غنى الامم بالاغكار ورقبها بالأراء فان الغرب قد بدأت نهايته بعد افلاسفه على مستوى المازاهب والعقائد والنظريات ! العلم ، والاحساد ، والمذهب العقلى ، والمذهب الطبيعى ، والمذهب الاجتماعى كلها مازاهب تقوم على الخداع والتضليل ، وجاء المسلمون فأصبحوا عبيدا لها ! ولقد انهارت حضارة الاسلام فى الهند بسبب عبودية المسلمين للغرب • لذلك يجب أن يتحرز المسلمون فى باقى الاقطار الاسلامية من هذا المداء • وهنا يرد المودودى على الدهريين كما رد الاشعائى من قبل • واذا كانت الحضارة الغربية قد انتحرت فان الاسلام مازال حيا فى تملوب الناس وفى تراثهم المجيد • واذا كانت تركيا قد سارت مع الهند فى التقليد والانهييار فان باقى العالم الاسلامى مازال يرغب فى الاسلام دينا ودنيا • لقد تأسست الثقافة الغربية فى هيجل وفلسفته التاريخية ، ودارون ونظريته فى التطور الانسانى ، وماركس وتفسيره المادى للتاريخ • وقد تجاوز معها المسلمون ايجابا أم سلبا فأصبحوا عابدين لها أو رافضين أياها • والاسلام يرفضها

وينقدها (٢٠) لان الاسلام قد بدأ حضارته ويعاود نهضته الجديدة • ويعطينا المودودي فلسفة للتاريخ ذات أربع مراحل مثلما أعطانا ابن خلدون من قبل : مرحلة البداية ، مرحلة الاكتمال ، مرحلة الانهيار ثم مرحلة النهضة • تأسست الدولة الاسلامية أولا ، وحققت أكبر ثورة في التاريخ في بضع سنين بعد تربية بضعة أفراد • ثم أنت مرحلة الملكية عندما تحولت الخلافة الى ملك عسود يقوم على الشعوبية وأنقسام القيادة الى رجال الحكم ورجال الدين • ثم جاءت مرحلة الانهيار عندما تحول التعليم الى علمانى ودينى ، وتكوين رجال دنيا أو رجال دين • وأخيرا يعاصر المسلمون مرحلة النهضة • تود الشعوب الاسلام وتود الحكومات العلمانية • ومن هنا يجب أن تتف الشعوب ضد الحكومات (٢١) •

وتقوى هذه الثنائى المتصارعة فى مجتمعاتنا نظرا لسيادة هذا النوع من التفكير فى حياتنا وقسمة تصوراتنا أيضا بين الحق المطلق والباطل المطلق وهو ما يميز أيديولوجيات المجتمعات المتخلفة بوجه عام • وتتقوم أجهزة الاعلام برفض أحد الطرفين ، وهو الباطل فى نظرها والحق فى نظر الجماعات الدينية فتكفر المعارضة وتجعل السلطة صاحبة الحق المطلق • فنسبة النظام القائم الى المعارضة نسبة الخير

(٢٠) نحن والحضارة الغربية ، وايضا نظرية الاسلام السياسية ، ص ٦ - ٦ ، منهاج الانقلاب الاسلامى ص ١٩ ص ٢٤ ، وايضا أبو الاعراب المودودي : واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم •

(٢١) أبو الاعلى المودودي : الاسلام اليوم ، وايضا منهاج الانقلاب الاسلامى ص ٦٢ - ٦٥ •

الى الشر ، والحق الى الباطل ، والصواب الى الخطأ . ثم تقاب الجماعات الدينية العلاقة بين الطرفين فتجعل نسبتها الى السلطة القائمة نسبة الخير الى الشر ، والحق الى الباطل ، والصواب الى الخطأ ، والايمان الى الكفر ، والاسلام الى الجاهلية .

ويمكن التخفيف من حدة هذه الثنائية المتصارعة عن طريق الحوار بين الطرفين ، والاعتراف بالجماعات الاسلامية كتيار أصيل في البلاد ، واعطائها كافة الحقوق للتعبير عن نفسها . والاعلان عن دعوتها ، وقبول السلطة القائمة المراجعة والنقد . فالجماعات الاسلامية على حق من حيث المبدأ . فاذا ما أعطى لها حق التعبير الحر قامت بالموعظة الحسنة وتخلت عن العنف الذي لا يتولد الا تحت الكبت السياسي والحرمان من وسائل التعبير .

ولقد ظلت حياتنا الوطنية خلوا من هذه الوحدة بين الشكل والمضمون ، الشكل الديني والمضمون السياسي . فالحاكمة لله تشرع من حيث المبدأ ، وهو ما تفعله الجماعات الاسلامية ولكنها لا تتحقق الا في مضمون سياسي واجتماعي وهو ما تفعله النظم السياسية القائمة على اختلاف مذاهبها . وتصبح المسألة هي : الحاكمة لصالح من ؟ والقرارات السياسية لصالح من ؟ فلو أمكن تفسير الحاكمة لصالح جماهير المسلمين ولو أمكن قيام نظم سياسية تعطي الاولوية لصالح الاغلبية على امتيازات الاقلية لما حدث المصادم بين الجماعات الدينية وبين الدولة .

ولا يقتصر الامر على الحوار بين الشكل والمضمون في حياتنا السياسية ، بين الدين والتنمية ، بل يتجاوز ذلك الى الوحدة الوطنية

ذاتها التي يجد فيها كل تيار ذاته متفقا على برنامج للعمل الوطنى مع باقى التيارات وان كان مختلفا معها فى باقى منطلقاتها النظرية . اذ لا يقتصر الخروج على الجماعات الدينية وحدها بل يشمل أيضا الجماعات اليسارية التي دأبت فى الاربعينات أيضا على اظهار نشاطها باستعمال القوة ثم أمكن امتصاصها أخيرا داخل الثورات العربية واستطاعت التعبير عن نفسها على نحو طبيعى على عكس ما حدث لجماعة الاخوان المسلمين ابتداء من أزمة مارس ١٩٥٤ حتى اليوم . ويثبت تاريخنا الحديث أنه فى لحظات الوحدة الوطنية ، عندما يتم تجنيد الشعب كله فى أهداف قومية واحدة تخف حدة الجماعات الدينية أو التنظيمات اليسارية النشطة الخارجة على النظام القائم كما حدث فى مقاومة عدوان ١٩٥٦ وكما ظهر فى أوائل الستينات ، فى مرحلة التحول الاشتراكى .

٤ — منهج الانقلاب :

ويتم حسم الصراع بين الثنائية المتعارضة عن طريق منهج الانقلاب . وفى اللغة الفارسية يعنى لفظ « انقلاب » ثورة ، وكأن الثورة لا تكون الا انقلابا وكأن الانقلاب هو طريق الثورة . وهو المنهج السائد أيضا فى التراث الاسيوى ، هذا الذى عبر عنه الافغانى بالتغيير الاجتماعى عن طريق انقلاب السلطة السياسية . وهو الغالب أيضا على التراث الشيعى على عكس محمد عبده وأهل السنة بوجه عام . وهو التيار الذى يرمى الى احداث التغيير الشامل فى الامة عن طريق التربية وعلى مدى عدة أجيال .

يرفض المودودى طريق التدرج والإصلاح والنهج الديمقراطى لاجدات الانقلاب . « يزعمون أنه اذا تم لهم تأسيس دولة قومية يمكن

تحويلها تدريجياً فيما بعد إلى دولة إسلامية بوسائل التعليم والتربية
وبفضل الإصلاح الخلقى والاجتماعى • ولكن شهادات التاريخ والسياسة
وعلوم العمران تفند مثل هذه المزاعم وتعدّها من قبيل المستحيلات •
وان نجح مشروعهم كما يزعمون فلا شك أنه يكون معجزة • فان نظام
الحكومة له أصل ثابت فى الحياة الاجتماعية ••• فلا يمكن أن يحدث
انقلاب ثابت فى نظامها بطريق من الطرق الا اذا سبقه تبدل فى الحياة
الاجتماعية « (٢٢) • فكل محاولات الإصلاح عن طريق التدرج وبالنهج
الديمقراطى وهم وخداع وأمانى معسولة لخداع المشعوب سواء من
العلمانيين أو المسلمين الخطابين •

وهذا الانقلاب هو الجهاد ، وهو « السعى المتواصل والكفاح المستمر
فى سبيل اقامة نظام الحق » (٢٣) ، وهو الركن السادس من أركان الإسلام
دون الاعلان عنه • وان لم يكن ركنا عند البعض فهو فريضة من أجل
حماية الإسلام (٢٤) • والجهاد ليس هو ما أطلق عليه الأوربيون الحرب
المقدسة بل هو فكرة انقلابية • « الإسلام فكرة انقلابية يريد أن يهدم
نظام العالم الاجتماعى بأسره ويأتى بنيانه من القواعد ويؤسس بنيانه
من جديد حسب فكرته ومنهاجه العملى • ومن هناك تعرف أن لفظ
« المسلم » وصف للحزب الانقلابى العالمى الذى يكونه الإسلام وينظم
صفوفه ليكون أداة فى احداث ذلك البرنامج الانقلابى الذى يرمى اليه

(٢٢) منهاج الانقلاب الإسلامى ص ٢١ - ٢٢ •

(٢٣) الاسس الاخلاقية للحركة الإسلامية ص ١٧ •

(٢٤) ابو الاعلى المودودى ، مبادئ الإسلام ص ١١٨ - ١٢١ •

الاسلام ويطمح اليه ببيصره • والجهاد عبارة عن الكفاح الانقلابي عن تلك الحركة الدائبة المستمرة التي يقام بها للوصول الى هذه الغاية وادراك هذا المبتغى « (٢٥) • ودعوة الاسلام الانقلابية ليست موجهة للعمال والفلاحين أو الملاك أو أصحاب رؤوس الاموال بل موجهة الى البشر كافة ، دعوة الى انقلاب عالمي شامل من أجل رفض سلطة الطواغيت مبعثى الفساد في الارض من الامراء والملوك والحكام من أجل الانصواء تحت سلطة الله وحده حتى لا يقع المسلمون في الشرك بين الله والحكام • « فان أبيتم عبودية الله الواحد الفرد الصمد دانت رقابكم للطواغيت الذين علوا في الارض وتمادى بهم الطغيان فلتخذوا من أنفسهم الهة وأربابا من دون الله • ولن تخلصوا من نير عبوديتهم أبدا فانهم لا محالة يمتلكون ناصية أمركم يعبثون في الارض فسادا « (٢٦) • وتمتاز دعوة الاسلام الانقلابية بأنها دعوة الرسل لتجديد النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وتغييرها تغييرا شاملا • ومن هنا أتت الحاجة الى الجهاد • فالاسلام ليس مجموعة من المناسك والشعائر بل هو « نظام كلي شامل يريد أن يقضى على سائر النظم الباطلة الجائرة الجارية في العالم ويقطع دابرها ويستبدل بها نظاما صالحا ومنهاجا معتدلا لا يرى أنه خير للانسانية من النظم الاخرى وأن فيسه نجاتا للجنس البشري من أدواء الشر والطغيان وسعادة له وفلاها في العاجلة والآجلة معا « (٢٧) •

(٢٥) أبو الاعلى المودودي : الجهاد في سبيل الله ٢٣ - ٢٤ .

(٢٦) المصدر السابق ص ٣٤ .

(٢٧) المصدر السابق ص ٣٩ .

وحزب الانقلاب هو حزب الله ، حزب الحق والعدل ليكون شهيدا
عبي الناس • ومهمته « أن يقضى على منابع الشر والعدوان ويقطع
داير الجور والفساد في الارض والاستغلال الممتوت وأن يكبح جماح
الآلهة الكاذبة الذين تكبروا في أرض الله بغير الحق وجعلوا أنفسهم
أربابا من دون الله ويستأصل شأفة ألوهيتهم ويقيم نظاما للحكم
والعمران » (٢٨) • ان حزب الانقلاب هو الوحيد المرشح لاخذ السلطة
من أجل القضاء على الفساد • يقول المودودي « ان هذا الحزب لابد له
من امتلاك ناصية الامر ، ولا مندوحة له عن القبض على زمام الحكم
لان نظام العمران الفاسد لا يقوم الا على أساس حكومة مؤسسة على
قواعد العدوان والفساد في الارض » (٢٩) • لذلك لا يمكن تقسيم
الجهاد الى هجومى ودفاعى لان هذين اللفظين يصدقان فقط على الحروب
الوطنية • وليس الجهاد في الاسلام كذلك لانه هجومى ودفاعى معا
» هجومى لان الحزب الاسلامى يضاد ويعارض الممالك القائمة على
المبادئ المناقضة للإسلام ويريد قطع دابرها ولا يتحرج في استخدام
القوة الحربية لذلك » (٣٠) • هذا الحزب هو الذى يقوم بتنفيذ برنامج
الجماعة وهو « أن تستأصل شأفة كل نظام للحياة أسس بنيانه ووضعت
قواعده على الانسلاخ من عبودية الله وعدم المبالاة بالمسؤولية الاخروية
والاستغناء عن تعاليم الانبياء وارشاداتهم فانه مبيد للانسانية مقوض
لدعائمها ، وأن تقيم مكانه نظاما للحياة مبناه على طاعة الله عز وجل

(٢٨) المصدر السابق ص ٤١ •

(٢٩) المصدر السابق ص ٤٢ •

(٣٠) المصدر السابق ص ٥١ •

والايمان بالآخرة واتباع الرسل والانبياء فانه لا سعادة للانسانية ولا فلاح فيه « (٣١) • ويفصل المودودي هذا البرنامج في نقاط أربع : الاولى تطهير الافكار وتعهدا بالعرس والتنمية ومن هنا كان اهتمام المودودي بالتعليم والتربية وتطهير الثقافة • الثانية استخلاص الافراد الصالحين وجمعهم في نظام واحد وتربيتهم من أجل تكوين الزعامة من الصفوة • والثالثة السعى في الاصلاح الاجتماعى الشامل فى الدين والدنيا دون اكتفاء بالوعظ والارشاد • والرابعة اصلاح الحكم والادارة لان تغيير نظام الحكم هو السبيل لمنع الفساد فى الارض (٣٢) •

ويحدث الانقلاب عن طريق تكوين جماعة من الصفوة تقوم بالانقلاب « فانها لا تظهر دولة اسلامية بطريقة خارقة للعادة بل لابد لاجادها وتحقيقتها من أن تظهر أولا حركة شاملة مبنية على نظرية الحياة الاسلامية وفكرتها، وعلى قواعد وقيم خلقية وعملية توافق روح الاسلام وثوائم طبيعته يقوم بأمرها رجال يظهرون استعدادهم التام للاصطباغ بهذه الصبغة المخصوصة من الانسانية، ويسعون لنشر العقلية الاسلامية، ويبدلون جهودهم فى بث روح الاسلام الخلقية فى المجتمع « (٣٣) • ثم تتحول هذه الصفوة شيئاً فشيئاً الى حركة شعبية شاملة « تقوم هذه الحركة الشعبية وتنهض وتقوى حتى تغير بجهادها المستمر العنيف أسس الجاهلية الفكرية والخلقية والنفسية والثقافية السائدة فى الحياة

(٣١) واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ص ٦ - ٧ .

(٣٢) المصدر السابق ص ٥٦ - ٦٢ .

(٣٣) منهاج الانقلاب الاسلامى ص ٢٠ .

الاجتماعية وتأتى بنيانها من القواعد « (٢٤) . وكلما كانت الصفوة مختارة كان نجاحها أعظم . يقول المودودي : « ان اعلاء كلمة الله والدعوة الى القيام بها تحتاج الى رجال ذوى صلاح ، يتقون الله في السر والعلن ممن لا يلهيهم عن العمل بالشرعية والاستمسك بعروتها شيء من مطامع الدنيا ولا تصرفهم عن ذلك العقبات والشدائد . ولا يهجم الدعوة بعد ذلك هل برز للعمل أمثال هؤلاء الرجال من الذين ورثوا الاسلام عن آباءهم أو من قبلوا هذه الفكرة بأنفسهم . وأيم الحق ان عشرة رجال من أمثال هؤلاء أرجح كفة وأثقل وزنا في ميزان الدعوة الاسلامية من الآلاف المؤلفة من ضعاف الاخلاق » (٢٥) . هؤلاء الرجال يكونون الزعامة الحققة التي لا تبغى النفع العاجل ولا تنظر الى مصالح قومها بل هي الزعامة التي تحقق حاكمية الله الاوحد كما فعل رسل الانسانية وكما تثبت سنن الله في الكون . ويحدد المودودي الدعوة الاسلامية في ثلاث مبادئ : عبادة الله ، تطهير النفس ، والانقلاب العام . ويقول المودودي شارحا المبدأ الثالث : « ودعوتنا لجميع أهل الارض أن يحدثوا انقلابا عاما في أصول الحكم الحاضر الذي استبدت به الطواغيت والفجرة الذين ملأوا الارض فسادا وأن ينتزعوا هذه الامامة الفكرية والعملية من أيديهم حتى يأخذها رجال يؤمنون بالله وباليوم الآخر ويدينون بدين الحق ولا يريدون علو في الارض لا فسادا » (٢٦) .

(٢٤) المصدر السابق ص ٢٤ .

(٢٥) المصدر السابق ص ٢٨ — ٢٩ .

(٢٦) أبو الاعلى المودودي : تذكرة دعاء الاسلام ص ٧ — ٨ .

وأهم عنصر في هذه الجماعة هو تربيتها وتأهيلها للزعامة وذلك عن طريق التربية الخلقية • الغاية هو « أحداث انقلاب في القيادة » قبل أن يحدث الانقلاب في الشعب وأعنى بذلك أن أقصى ما نبتغى الوصول اليه والظفر به في هذه الدنيا أن نطهر الارض من أدناس قيادة الفسقة الفجر وسيادتهم ونقيم فيها نظام الامامة الصالحة الراشدة • فهذا السعى والكفاح المتواصل نزاه أكبر وأنجح وسيلة موصلة الى نيل الرب تعالى وابتغاء وجهه الاعلى في الدنيا والآخرة ••• فان أراد أحد اليوم أن يطهر الارض ويستبدل فيها الصلاح بالفساد والامن بالاضطراب والاخلاق الزكية بالاباحية والحسنات بالسيئات لا يكفيه أبدا أن يدعوهم الى الخير ويعظهم بتقوى الله وخشيتته ويرغبهم في الاخلاق الحسنة بل من المحتوم عليه أن يجمع من عناصر الانسانية الصالحة ما يتمكن من جمعه ويجعل منها كتلة متضامنة وقوة جماعية تمكنه من انتزاع زمام الامر من الذين يقودون موكب الحضارة في الدنيا واحداث الانقلاب المنشود في زعامة الارض وامامتها « (٢٧) • يجب اذن تكوين زعامة ظاهرة في مواجهة الاغلبية الدنسة من أجل تحويلها الى جماعة ظاهرة لان غاية الدين الحقيقية هي اقامة نظام الامامة الصالحة الراشدة وتوطيد دعائمه في الارض » وكل ذلك يتوقف تحققه على القوة الجماعية • والذي يضعف القوة الجماعية ويفت في عضدتها يجنى على الاسلام وأهله جنائية لا يمكن جبرها ••• ثم اذا لم يكن من الممكن تحقيق هذا المقصد الاسلامي الا بالمساعي الجماعية لم

يكن بد من أن تكون في الارض جماعة سالحة تؤمن بمبادئ الحق وتحافظ عليها ولا تكون لها غاية في الحياة الا اقامة نظام الحق و ارادة شؤونه « (٣٨) •

وتقوم التربية الخلقية للزعامة على القوانين المادية والمعنوية • فالانسان موجود طبيعي تسرى عليه سائر قوانين الطبيعة ولكنه أيضا موجود خلقى لا يذعن للطبيعة بل يسيطر عليها ويتحكم فيها • فالاخلاق هي مناط رقى الانسان وانحطاطه • وهى نوعان : الاخلاق الانسانية الاساسية ، والاخلاق الاسلامية • فالاولى مثل « قوة الارادة والمضاء فى الامر والعزم والاقدام والصبر والثبات والاناة ورباطة الجأش وتحمل الشدائد والمهمة والشجاعة والبسالة والنشاط والشدة والبأس والولوع بالغاية والاستعداد للتضحية بكل شىء فى سبيل تحقيقها ، والحزم والحيلة وادراك العواقب والقدرة على تقدير المواقف المختلفة » ••• وهذه كلها صفات القيادة الحازمة والزعامة الصلبة • أما الاخلاق الاسلامية فلها مهام ثلاث : الاولى تزويد الاخلاق الانسانية بمركز صحيح وقطب مستقيم اذا اقتربت به حولها الى الخير والرشد وهو ما توفرها الزعامة بوجودها • والثانية تأصيل الاخلاق الانسانية وتوسيعها وتطبيقها وتقويتها مثل الصبر والمثابرة والجهاد وهو ما توفره الزعامة أيضا بقدرتها • والثالثة تطهير القلب من أدران الاثرة والانانية والظلم والخلاعة والاستهتار وهو ما توفره الجماعة أيضا بايمانها • زعامة الجماعة اذن تجمع بين الاخلاق الاساسية والاخلاق

الاسلامية وتستخدم الوسائل المادية والمعنوية لتحقيق غايتها • وهى وان كانت قلة من حيث الكم الا أنها كثرة من حيث الكيف (٣٩) • ويصح المودودى أربع مراتب للاخلاق الاسلامية يتدرج المسلم فيها من بدايتها الى نهايتها فيصل الى رتبة الزعامة • الايمان وهو مجرد اقرار باطنى ثم الاسلام حيث يظهر الايمان من الباطن فى عمل للجوارح ثم التقوى وهو عود الى الباطن من أجل خشية الله ثم الاحسان وهو عود الى العالم الخارجى لبدأ الفضال الجماعى من خلال الجماعة (٤٠) • ويحدد المودودى منهاج العمل للجماعة بثلاث مبادئ : الاصطباغ بالدين كلية ، وتقوية أواصر الصداقة والقربة ، والصبر على الشدائد والثبات فى المصاعب • ويعدد مميزاتا فى أربع : أنها جماعة تقوم على المبدأ ، راسخة العقيدة ، حسنة الاخلاق ، قادرة على الكشف عن اللثا (٤١) • يقون المودودى : « لانه فى مثل هذا الكفاح والمقاومة يمتحن القائمون بالدعوة وحاملوا لوائها بأنواع المصائب والشدائد فيقاسون الآلام والاهوال ضربا وقتلا واجلاء عن الوطن ، ويبدلون مهجهم وأرواحهم بكل صبر وجلد واخلاص وعزم ويبتلون بالشدائد ويفتنون » (٤٢) •

ويبرز المودودى دور الطلبة فى بناء مستقبل العالم الاسلامى مما يفسر اقبال الطلاب خاصة على الجماعات الدينية • فالطلبة هم قادة

(٣٩) الاسس الاخلاقية للحركة الاسلامية ص ٢٠ - ٤٥ .

(٤٠) المصدر السابق ص ٤٦ - ٦٨ .

(٤١) تذكرة دعاة الاسلام ص ٢٠ - ٣٢ .

(٤٢) منهاج الانقلاب الاسلامى ص ٢١ - ٢٢ .

المعنى ، القادرون على الفكر والمؤهلون للزعامة • الطلاب في البلاد الإسلامية في أوضاع متجانسة يرون انهزام الأمة أمام الاستعمار واثر الحضارة الغربية في ثقافتهم • وبالتالي فعلى عاتقهم يقع تحويل التراث الحضارى الى الاجيال القادمة • وهناك طريقتان لذلك • الاولى تخص الطلبة والثانية تخص الحكومات • فما يخص الطلبة هو تربيتهم على مبادئ الاسلام الثلاث : مبدأ التوحيد ومبدأ الرسالة ومبدأ البعث بعد الموت ، وضرورة تركيز الجهود للمحافظة على هذه المبادئ من أجل الاستمساك بالاخلاق الإسلامية والحضارة الإسلامية أمام جرائم الذين ينشرون الثقافات العاهرة في الشباب الإسلامى ووسط انتشار الخيانات في المجتمع • أما ما يخص الحكومات فهو ضرورة التربية العسكرية على مبادئ الاسلام حتى يمكن للشباب تحقيق أهداف الاسلام (٤٢) •

والحقيقة أن كل ما يقوله المودودى لحل هذه الثنائية المتعارضة صحيح من حيث المبدأ ولكن الخلاف في التطبيق • فلا يمكن ادانة الواقع كله وهدمه وتقويضه ثم اعادة البناء من جديد • بل الممكن هو تطوير والواقع تماما وبالتالي تتحقق الحاكمية لله • فادانة الواقع كله لا تسمح والواقع تماما وبالتالي تتحقق الحاكمية لله • فادانة الواقع كله لا تسمح بالتعامل معه بل تسبب النفور من كل محاولات الاصلاح والتغيير • صحيح أن هذه الثنائية المتعارضة تعبر أيضا عن البناء الثقافى للمجتمعات

(٤٣) أبو الاعلى المودودى : دور الطلبة في بناء مستقبل العالم

المتخافة التي لا تعرف التوسط بين الاطراف الا ان اكتشاف الواقع هو انذى يمكن أن يجمع الاطراف المتصارعة حوله • فالواقع ليس حقا أو باطلا ، خيرا أو شرا ، بل هو الواقع ذاته يتغير ويتحرك ويتبدل • هو ميدان العمل والجهاد والكفاح المتواصل • ان توجيه نشاط الجماعات الاسلامية الى البناء وحل المشاكل الاساسية التي تعرض لها مجتمعاتنا مثل الفقر والامية ونقص الخدمات هو السبيل لاكتشاف الواقع • وان إعادة البناء هو خير من الهدم •

٥ - الايمان والطاعة :

الدين هو الايمان والتسليم بمعانيته دون أعمال لعقل أو اقامة لبرهان على صحة هذا الايمان أو حتى مضمون اجتماعى له • والايمان أكثر عاطفة وانفعالا وأقل عقلا وبرهانا • لذلك غاب الحوار ، وانعدم النقاش ، وزادت الحمية الدينية ، وانقلبت الى تعصب وهوس •

عندما يتحدث المودودى عن مبادئ الاسلام فانه لا يتحدث عن الايمان بالواقع عن طريق المحس والمشاهدة وبطريق العقل والاستدلال واكتنه يتحدث عن الايمان عن طريق النبوة ، نبوة الرسل • فالعقل البشرى يتخبط فى طريقه ، والمعرفة البشرية ناقصة وخاطئة ، والانسان جاهل ونزاع للهوى • أما الرسل فهم أكمل البشر وأفضل الخلق لذلك هم مصدر العلم والمعرفة • النبوة اذن هو الطريق الى العلم الصحيح ، ليس عن طريق الجهد البشرى بل عن طريق الوحي والالهام • والدليل على صدق النبى هو المعجزة أى الدليل الخارجى المحض • النبوة

ضرورة للإنسان لأن الإنسان لا يكفى ذاته • ان استطاع معرفة دنياه
فانه تقاصر على معرفة آخرته (٤٤) •

أما مضمون النبوة فهو دينى خالص ، الايمان بالله وملائكته
وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وعلى رأسه تصور الالهية وصفاتها •
يغيب عنه المضمون الاجتماعى الذى يربط الايمان بقضايا الواقع حتى
لا ينغلق على نفسه فيتصلب ويتحول الى هوس دينى • والعجيب
أن يجعل المودودى نسبة التصوف الى الفقه نسبة الدين الى الشريعة ،
التصوف شريعة للباطن والشريعة شريعة للظاهر • والمسلم من يجمع بين
الشريعتين وأصبح باطنيا فى سره ظاهريا فى علنه ، يتصوف ويقيم
الشعائر (٤٥) •

ويقوى ذلك ما يسود مجتمعاتنا من دعاية للايمان لان الايمان يعنى
التسليم ، والتسليم بالمعطيات مسبقا يخدم النظم السياسية لانه
يضمن لها طاعة الجماهير والتسليم المسبق بما تعطيه لها المصنفة
الحاكمة • كما أنه الطابع العام المميز للمجتمعات المتخلفة اذ يقاس
التقدم بمقدار ما يتوفر فى المجتمع من عقلانية وممارسة للنقد • ويمكن
بطبيعة الحال التخفيف من حدة هذا الايمان الانفعالى عن طريق عمل
العقل ، وطلب البرهان ، وتحليل المعطيات ، والتفرقة بين التمنى والرغبات
من ناحية وبين الفكر الموضوعى من ناحية أخرى •

(٤٤) مبادئ الاسلام ص ٣٠ - ٣٥ ص ٦٤ - ١٠٣ •

(٤٥) المصدر السابق ص ١٢٦ - ١٢٩ •

ويقترن الايمان بالطاعة فان أى تنظيم اجتماعى لابد أن يقوم على الايمان الراسخ لاعضائه وعلى طاعة الامير • وقد انهارت المجتمعات الاسلامية لفقدانها هاتين الدعامتين (٤٦) • والطاعة مطلقة تنفيذيا للاوامر ودون مناقشة لما تقتضيه الحاكمة لله • وقديما عرف الصوفية التصوف بأنه « الاعراض عن الاعتراض » •

ويعرف المودودى الاسلام حسب التعريف الشائع بأنه الانقياد والاستسلام • فالكون كله منقاد لقاعدة معينة وكذلك حياة الانسان • أما الكفر فهو العصيان والجهل والظلم والخسران المبين • ويقرن بين الايمان والطاعة ، ويجعل حاجة الانسان الى العلم واليقين من أجل الطاعة وليس لاجل الرفض • يجعل الايمان الانسان مطيعا منفذا للاوامر والاحكام ، ومن لا يؤمن بالله يكون رافضا عاصيا خارجا • وأن طاعة النبي واجبة فيما نفهم وفيما لانفهم • أما العبادة فهو أيضا خضوع العبد للرب • وأحكام الشريعة تطالب من الانسان حق الله في الطاعة والايمان والانقياد (٤٧) •

ويحدد المودودى الصفات اللازمة للعاملين فى الحركة الاسلامية على نوعين : فردية وجماعية • فالفردية تشمل الخضوع للاوامر والنواهي • وطبقا لهذا الخضوع نتحدد درجات الجهاد ثم الهجرة ثم بداية الحرب مع البيئة المحيطة ابتداء من المنزل حتى المجتمع • أما

(٤٦) نحن والحضارة الغربية ص ٢٣٣ — ٢٤١ •

(٤٧) مبادئ الاسلام ص ٣ — ١٣ ص ٢١ — ٢٩ ص ٣٥ — ٣٧ ص

• ١٠٥ — ١٠٦ ص ١٣٤ — ١٣٨ •

الجماعية فانها تهدف الى تحريك الجماعة عن طريق أوامر الصداقة والقرابة • والمجاهد في سبيل الله تتحدد علاقته بالله بالتفهم والتفكر أولا وبالعمل ثانيا • وتقوى علاقته بالله بالصلاة وذكر الله والصوم والانفاق • ومقياس علاقته بالله ايثاره الآخرة على الدنيا • ولا مكان للانتقاد الاجتماعي الا عن طريق اسداء النصح والمشورة لامراء الجماعة لان واجب المجاهد أولا هو الالتزام بالسمع والطاعة • لا يكون الانتقاد في كل حين ومجلس بل بناء على طلب من أمير الجماعة المحلية مع توخي رقابة الله ودون اطالة مع توقع عما يأتي عن الانتقاد الزائد من الفساد (٤٨) •

وتبدو هذه الطاعة في الولاء المطلق لاجزاء الجماعات الدينية لامرائهم ، وفصل كل من يشق عصا الطاعة عليها لدرجة التهديد بالقتل ، وتنفيذ الاوامر بالقتل والعنف والاستيلاء على مؤسسات الدولة دون تفكير أو مناقشة أو اعتراض أو حتى مراجعة • وهنا تتحدد حاكمية الدولة بحاكمية الامير طبقا للتفسير الشائع لآية « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » • بل ويتم التحكم في أعضاء الجماعة حتى في أحوالهم الشخصية من زواج وطلاق أو عمل في الدنيا وهجرة الى الآخرة •

ويبقى ذلك الطابع التسلطي لمجتمعاتنا المعاصرة التي يسودها أيضا هذا النمط من السلوك طبقا للتصور المهرمي للعالم • فالحاكمية للسلطان الذي يأمر فيقطاع دون جدل أو نقاش حتى ولو أعتزضت على

أوامره وقوانينه بعض جماعات المعارضة • وبالتالي تعبر أيديولوجية
التسلط ليس فقط عن الحاكمة لله بل أيضا عن الاوضاع السياسية في
مجتمعاتنا المعاصرة ، كل منها يقوى الآخر ويغذيه • تقوى هذه الطاعة
نظمتنا السياسية المعاصرة التي يدين لها المواطن بالسواء • فتعتقل
المعارضين ، وتتهمهم بالمروق والعصيان ، وتدين حركات الرفض ،
وتصف الثوار بالكفر والعمالة والاحاد •

ويمكن التخفيف من حدة هذه الطاعة العمياء عن طريق اذكاء
روح المعارضة في المجتمع ، وافساح المجال للتعبير عن مختلف الآراء ،
وعدم سيادة الرأى الواحد والارادة الواحدة ، وسماع آراء الشباب
بدلا من تلقينهم للمذاهب السياسية والمعتقدات الدينية أو دفعهم نحو
المراجعة والتمحيص ، وعدم قبول شىء على أنه حق أن لم يثبت بالدليل
أنه كذلك • ويبدو أن المسألة هو ظهور هذه الجماعات الدينية في
مجتمعات متخلفة نظرا لان الطاعة العمياء وغياب النقد هي احدى
سمات التخلف الحضارى حتى ولو ظهرت مثل هذه الجماعات في
المجتمعات الصناعية المتطورة •

٦ - المحارم والطقوس :

الحجاب والستار والمحرم علامات مميزة للجماعات الدينيه
تخصصها عن غيرها من الجماعات تأكيدا للهوية الدينية والانفصال عن
باقى المجتمع • فجسم الانسان به أجزاء محرمة لابد من تغطيتها ،
والعلاقات الانسانية بها جوانب محرمة لايجب الاقتراب منها • ويصل
الامر الى تصور العالم مملوء بالمحرّمات التي تتحول الى مقدسات

كما هو الحال في المجتمعات المتخلفة • والخطر من ذلك أن يتحول ذلك المجهول الى نشاط سرى والى تحول الجماعات الدينية الى جماعات باطنية تخضع لقوانين العالم السرى ، عالم ماتحت الارض • ومسروف أنه يغلب على هذه الجماعات الطابع السرى على ما هو معروف في فرق الشيعة لانها جماعات مناوئة للنظم القائمة ، وتبدأ بالعمل السرى في الخفاء قبل أن تظهر في العلن •

لذلك تظهر مسألة الحجاب وكأنها مسألة جوهرية في الاسلام وفى تنظيم الجماعات الدينية • وتبدو مسائل الجنس والزواج وغنى الطرف وعدم لمس يد النساء والهجوم على حفلاف التعارف والرحلات والجلوس المشترك للطلبة والطالبات في الجامعات ، كل ذلك فتننة وشبهات ! فالانسان حيوان مملوء بالرغبات والشهوات والغرائز التى يجب كبح حجامها وذلك عن طريق المحرمات أى اقتصاص جوانب فى الانسان لايمكن الاقتراب منها بل معاملتها بالكبت والحرمان مثل الجنس المحرم • ويفصل المودودى أحكام اللباس وستر العورات وحدود العورة للرجال وحدود العورة للنساء وتحريم منع الخلوة واللمس وضرورة الاستئذان • كما يجرم النظر الى النساء ويمنع ابداء الزينة ويطالب باصلاح الباطن لمقاومة الشهوات والفتن : فتننة النظر وفتنة اللسان ، وفتنة الصوت ، وفتنة الطيب وبطبيعة الحال فتننة العرى • ولما كان عمل المرأة فى منزلها الا عن حاجة ترخص لها الخروج فانه يؤذن بحضور المساجد والحج وخروجها للجمعة والعيدين وزيارة القبور واتباع الجناز • والرجل قوام عليها ومسؤول عن

معاشها وتربيتها وصلاحها (٤٩) . وفي كل كتاب يعتقد المودودي فصلا
عن المرأة وملك اليمين وماتمت اليد والزواج والطلاق وكأنها موضوعا
خاصا له كيانه وقانونه الخاص (٥٠) .

وينتج عن هذا أخلاق التزمت والالتزام بالشعائر والمطقوس
والمظاهر الخارجية . ويتحول الدين الى مجرد أعمال للجوارح كنوع
من الاعلان عن النفس والدعاية الدينية المرئية التي يلاحظها كل الناس .
فما أسهل اطالة اللحي بدعوى السنة ، ومسك السبحة بدعوى ذكر
الله ، ولبس الجلباب الابيض بدعوى الزي الاسلامي ، واقامة الصلاة
في الكليات والمعاهد ودور العلم بدعوى الايمان . فمبادئ الاسلام
هي الاركان الخمس (٥١) ، وقانونه هو قانون العقوبات ، وحدوده لمن
يقترّب من المحرمات ، والشريعة وضعت القيود لئلا يجر النفس وكبح جماح
شهواتها وعقابها حتى أصبح العالم كله مغلغلا بالشريعة ، وكل شيء
محكوم عليه بقانون . فضاعت البراءة الاصلية وانعدم السلوك الفطري .
وكل مالم يذكر اسم الله عليه من الذبائح فهو حرام حتى ولو كانت
ذبائح أهل الكتاب (٥٢) . ويحدث هذا كرد فعل عما يحدث في المجتمع
المتخلف من انحلال خلقى واثارة جنسية ينشأ بعده التزمت المضاد

(٤٩) أبو الاعلى المودودي : الحجاب ص ١٥١ — ٢٣٥ .

(٥٠) مبادئ الاسلام ص ١٤١ — ١٤٤ ، تدوين الدستور الاسلامي

ص ٨٤ — ٩٣ .

(٥١) مبادئ الاسلام ص ١٠٧ — ١١٨ .

(٥٢) أبو الاعلى المودودي : الذبائح .

عند الاتقياء • هذا بالإضافة الى أن المجتمع المتخلف يتسم بالتشدد
بأنغضائل والرغبة في الاعلان عن التقوى في مظاهرها الخارجية حتى
يفعل الباطن مايشاء بغير حساب كما هو الحال عند المنافقين •

ويظهر نشاط الجماعة نظرا لغياب أى نشاط سياسى آخر لاي
حزب أو جماعة • فيبدو فريدا نظرا للسلبية التامة لمعظم التنظيمات
السياسية • ويظهر سريا نظرا لغياب أى نشاط اسلامى علنى يدعو الى
تحقيق الحاكمية لله بعد القضاء على نشاط الاخوان المسلمين منذ ١٩٥٤
حتى الآن • ويمكن التخفيف من حدة التزامت الدين عن طريق العودة
الى الفطرة والى البراءة الاصلية التى تحدث الاصوليون عنها ، ففطرة
الانسان بطبيعته تدفعه نحو الخير ، والبراءة الاصلية فى العالم ،
الاشياء على الاباحة ما لم يرد فيها تحريم ، تجعله خارج نطاق
المحرمات • ويمكن القضاء على كل المحرمات والاسرار « التابو » عن
طريق العلم والمعرفة • فلا حياء فى الدين ، والانسان قادر على معرفة
ذلك المجهول حتى ولو كانت أعضاء بدنه أو بدن الغير •

ومن مظاهر التزامت الدينى ما يذكره المودودى باستمرار عن أهل
الذمة وحقوقهم فى الدولة الاسلامية والبدائية بتقسيم مواطنى الدولة
الى مسلمين وذميين مما يثير الضغائن والاحقاد ويبعث على
الطائفية والفتن وكان الدولة الاسلامية أصبحت قاب قوسين أو أدنى
أو كأنها قد تحققت بالفعل وأخذ المسلمون حقوقهم والآن جاء الدور
على أهل الكتاب وأخذوا حقوقهم والآن نبحت عن واجباتهم • بل
ويصنف المودودى أصناف الرعية غير المسلمة وهى كلها أصناف نظرية
خالصة بالنسبة للعصر الحاضر ومجرد تمييزات فقهية تأتى من بطون

الكتب نضر أكثر مما تنفع (٥٣) *

ومن مظاهر اليزمت الديني أيضا الهجوم على حركة تحديد النسل
وبيان أسباب نشأتها في الدول الصناعية كضرورة من ضرورات
الصناعة وكنتيجة لعمل المرأة * ولكن آثارها على الغرب كانت وخيمة
فيما يتعلق بخترة الفواشش ، والامراض الخبيثة ، وكثرة وقائع الطلاق ،
وانخفاض نسبة المواليد * أما الاسلام فانه يترك خلق الله على
الطبيعة لانه يعلم مضار هذه الحركة في الجسد والروح وفي الحياة
المدنية والاجتماعية وفي الاخلاق وفي النسل والحياة القومية * ويمكن
علاج مشاكل الامة عن طريق اعادة تنظيم اقتصادها وتوزيع
مواردها وليس عن طريق خنق امكانياتها البشرية * وهو وان كان على
حق من حيث المبدأ الا أن سبب التحريم ليس هو الطبيعة بل ضرورة
الثورة السياسية في مجتمعاتنا من أجل إعادة توزيع الدخل القومي
على أساس من العدل والمساواة * والعجيب أن يدين المودودي الفكر
الطبيعي في الغرب وينادي بالطبيعة في هجومه على حركة تحديد
النسل (٥٤) *

والاغرب من ذلك كله هو تأكيد المودودي على الملكية الخاصة
في الاسلام ملكية الارض بموجب القرآن والحديث ورفضة جميع
أنواع الاشتراك في فلاحه الارض مثل المزارعة * والاغرب من ذلك

(٥٣) أبو الاعلى المودودي : حقوق أهل الذمة في الدولة الاسلامية

وأيضا ، الجهاد في سبيل الله ص ٥٢ - ٥٤ .

(٥٤) أبو الاعلى المودودي : حركة تحديد النسل .

كله هو وقوفه أمام الإصلاح الزراعي ونفيه للتأميم والساواة في توزيع الثروة ودفاعه عن حقوق الملكية وانكاره لاية قيود عليها التي لا أصل لها الا في هوى النفس وكأن الجماعات الدينية المغلقة تؤدي الى الاستحواذ على الاثنياء والتسلط على المادة وتجعل المقصود من حدود الله اثبات حق الملكية الفردية في حين أن مثل هذه الجماعات عادة تكون ذات نزعة اشتراكية • ولكن ظهورها في المجتمعات المتخلفة التي مازالت خاضعة لتأثير الثقافة الغربية وعلى رأسها الفكر الرأسمالي جعلها تنحو نحواً رأسمالياً في تصورهما للملكية مما يدل على أنها جماعات تسلطية أكثر منها « كوميونات » للحياة المشتركة (٥٥) •

خاتمة :

يتضح من هذا البناء النظري لفكر أبي الاعلى المودودي الآتي :

١ - لقد ظهر التوحيد الاسلامي ، وهي عقيدة الاسلام الاولى ، في صورة ثنائية متصارعة فتحول التوحيد في فارس الى مانوية ثنوية ، حاكمة الله ضد حاكمة البشر ، النور والظلمة ، وتجعل حياة الانسان صراعا بين النور والظلمة ، ونجاته بانتصار أحدهما على الآخر • وهو تصور يخيل حياة الانسان الى جحيم ويقضى على حدوثه واطمئنانه ويجعل الجهاد حريقا ، والمسلمين حطبا • أما التوحيد الاسلامي فهو

(٥٥) أبو الاعلى المودودي : مسألة ملكية الارض في الاسلام وايضا نظرية الاسلام السياسية ص ٣٦ •

تحويل الوحي كنظام مثالي للعالم عن طريق محو الثنائية بين الواقع
والمثال ، وهو معنى تطبيق الشريعة أو اقامة الدولة الاسلامية •

٢ - يبعد الفكر الدينى عند المودودى عن الايديولوجية المستنيرة
التي تقوم على البناء النظرى المضاد • فحاكمية البشر تعنى الاتفاق
الجماعى على الصالح العام خاصة وأن حاكمية الله لاتفعل مباشرة الا
من خلال البشر فى جماعة معينة وفى نظام سياسى خاص وتحت زعامة
محددة • وطالما استعملت حاكمية الله كتبرير لحاكمية البشر وافضاء
السلطة عليها • واستقراء الصالح العام مضاد للتنزيل واحكام للمتشابه؛
والمبدأ بأسباب النزول قبل التنزيل وبالتالي البحث عن العلل المادية
المباشرة التي تؤثر فى سلوك الناس • والعقل والرفض مضادان للإيمان
والطاعة وتحويل للمجتمع السلبى الى مجتمع ايجابى • يراجع الحاكم
فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق • والاعمال الصالحة على الضد من
الشعائر والطقوس وتعبر عن جوهر الاسلام وتفرد عن غيره من
الديانات • والطبيعة على النقيض من السر ، والكشف على الطرف
الآخر من السنن والحجاب • وقد استطاع المعتزلة من قبل صياغة هذه
الايديولوجية المستنيرة القائمة على العقل والحرية والشورى والطبيعة
والانسانية والتقدم • ولكن يبدو أن معاصرنا لم يلحقوا بعد بالسابقين
علينا •

٣ - ولا تتحقق الدعوات مرة واحدة بلا مراحل واعداد مسبق •
وان ادانه كل ماهو موجود والتشريع من جديد ، وهدم كل ماهو قائم

والبناء من جديد ليعبر عن عاطفة غضب وتدمير أكثر مما يعبر عن
التغير الثورى • فالعلمانية لاشك أنها تمثل مكسبا للفكر الدينى • ولا يمكن
هدمها بل اكمالها • وكذلك القومية والديموقراطية والاشتراكية ذنهما
تمثل مكاسب انسانية لا يمكن هدمها بل اكمالها • وكل دين لم يأت انسخ
الدين السابق ولكن لاكماله • ولو كان اللاحق هادما نلسابق كما حدث
تراكم حضارى بشرى ولعادت البشرية باستمرار لما بدأت واما تقدمت
عن نقطة الصفر •

٤ — لا يتم التغير الاجتماعى بتغيير الصفوة ونقل الزعامة من فئة
الى فئة أخرى • فتغير السلطة على القمة قد لا يغير البناء الاجتماعى
والهيكل الاقتصادى والتصورات الذهنية للامة • انما يحدث التغير
الاجتماعى بتغير تصورات الناس للعالم التى توجه سلوكهم ، وتعطيهم
البواعث ، وتمدهم بالغايات • وليست الزعامة الا أحد أطراف ثلاثة مع
الفكر الثورى والجمهير المجددة • وتركيز المودودى على الصفوة هو
تفكير انقلابى ، يغير المجتمع بتغير السلطة ، وهو أضعف ما فى الفكر السنى
المعروف فى القول المأثور « ان الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » •
وما أسهل معارضة الانقلاب بانقلاب آخر ، وتظل الجماهير متفرجة
ويظل فكرها خامدا مستكيننا خاملا •

٥ — لاتحدث التغيرات الثورية الدائمة عن طريق العنف بل
بتوعية الامة حتى تأتيتها السلطة طوعا لاكرهية ، واختيارا لا اجبارا •

والمعنف لا يولد الا المعنف سواء من الدولة ضد الجماعة الدينية أو من الجماعة الدينية ضد الدولة ، جهد ضائع ، وأمة تأكل بعضها بعضا ، وتمتاز على السلطة ، وحروب أهلية ، وانقسامات وفتن * ان العنف استباقى للاحداث ، واصطناع للثورة ، يخيف الاغلبية ، ويشكك الناس فى الثورة أكثر من اطمئنانهم لها * لايقدر عليه كل فرد ، ولا تحبذه كل جماعة ، ولا ترصاه كل حضارة *

٦ — لا يحدث التغيير الثورى فى جيل واحد بل قد يستغرق عدة أجيال * المهم أن يعرف كل جيل دوره فى الثورة وفى أية مراحل الثورة هو يعيش حتى لايقوم بدور لم يحن بعد وحتى لايعيش حياة جيل لاحق ويفقد حياته ويضيع دوره * قد لاترى أجيالنا الحاضرة الدولة الاسلامية التى ضاعت منذ صدر الاسلام ولكننا الممهدون لها ، اذ لا يمكن القضاء على تخلف عدة قرون تبلغ الالف عام فى قرنين من الزمان منذ بدانا حركاتنا الاصلاحية الاخيرة * ولكن عذر الشباب أنهم يتصورون أنهم شيوخوا عاشوا سنينا طويلا أو أحفادا يعيشون قرونا تالية * وفرق بين الحالم واليقظة ، وشتان ما بين التمنى والواقع * فالزمن هو مادة الثورة وحركاتها ومقياس فشلها أو نجاحها * فلا توجد ثورة خارج التاريخ ، ولا يوجد تاريخ بلا مراحل *

أولا : مؤلفات أبى الاعلى المودودى (٥٦) :

- ١ — الحكومة الاسلامية • نقله الى العربية أحمد ادريس ، المختار الاسلامى ، الطبعة الاولى ١٩٧٧ •
- ٢ — مناهج الانقلاب الاسلامى • تعريب محمد عاصم الحداد • دار الفكر •
- ٣ — الاسس الاخلاقية للحركة الاسلامية • تعريب محمد عاصم الحداد ، مكتبة الشباب المسلم •
- ٤ — نظرية الاسلام السياسية ، تعريب محمد عاصم الحداد ، دار الفكر ، دمشق •
- ٥ — مسألة ملكية الارض فى الاسلام • تعريب محمد عاصم الحداد ، مكتبة الشباب المسلم •
- ٦ — تدوين الدستور الاسلامى • دار الفكر •
- ٧ — القانون الاسلامى وطرق تنفيذه ، تعريب محمد عاصم الحداد ، دار الفكر •
- ٨ — مبادئ الاسلام ، دار الانصار ، القاهرة •
- ٩ — تذكرة دعاء الاسلام • دار الانصار ، القاهرة •

(٥٦) نأسف لعدم ذكر مؤلفات المودودى كما يجب بذكر اسم المترجم ، والطبعة ، ودار النشر ، ومكان النشر ، والسنة ، بل ذكرنا فقط الموجود منها على أغلفة الكتب أو بداخلها .

١٠ — دور الطلبة في بناء مستقبل العالم الاسلامى ، دار الانصار .
القاهرة •

١١ — الجهاد في سبيل الله ، دار الاعتصام ، القاهرة

١٢ — نحن والحضارة الغربية ، دار الفكر •

١٣ — واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم تعريب محمد عادم .
الحداد ، مكتبة الشباب المسلم •

١٤ — الاسلام والمدنية الحديثة ، المختار الاسلامى •

١٥ — الاسلام اليوم ، دار التراث العربى •

١٦ — الحجاب ، دار التراث العربى •

١٧ — الذبائح ، المختار الاسلامى •

١٨ — حركة تحديد النسل ، دار الفكر ، الطبعة الاولى ١٩٦٥ •

١٨ — حقوق أهل الذمة في الدولة الاسلامية ، دار الفكر •

٢٠ — المبادئ الاساسية لفهم القرآن ، دار التراث العربى •

٢١ — تفسير سورة النور ، دار الاعتصام •

٢٢ — الاسلام والجاهلية ، لجنة الشباب المسلم •

ثانيا : مؤلفات اخرى لابي الاعلى المودودى :

١ — المصطلحات الاربعة في القرآن ، مكتبة الشباب المسلم •

- ٢ — البيانات ، مكتبة الشباب المسلم •
- ٣ — أسس الاقتصاد بين الاسلام والنظم المعاصرة ، مكتبة الشباب المسلم •
- ٤ — نظرية الاسلام الخلقية ، مكتبة الشباب المسلم •
- ٥ — نحو الدستور الاسلامي ، مكتبة الشباب المسلم •
- ٦ — الدين القيم ، مكتبة الشباب المسلم •
- ٧ — معضلات الاقتصاد وحلها في الاسلام ، مكتبة الشباب المسلم •
- ٨ — نظام الحياة في الاسلام ، مكتبة الشباب المسلم •
- ٩ — المسألة القاديانية ، مكتبة الشباب المسلم •
- ١٠ — شهادة الحق ، مكتبة الشباب المسلم •

أثر الامام الشهيد سيد قطب على الحركات الدينية المعاصرة

بالرغم من ظهور الفكر أولا في ظروف اجتماعية معينة ومرحلة تاريخية محددة ثم استقلاله عنها ثانيا واحتوائه على أبنية خاصة به تصبح واقعا جديدا له وأساسا يرتكز عليه حتى انه ليصبح موجها لسلوك الناس ومنبعاً لتصوراتهم للعالم الا أنه يمكن أن يتطور وطبقا للظروف النفسية التي يمر بها الفكر اعتدالا أو تطرفا ، هدوء أو حدة ، شمولاً أو تركيزاً • فالاديب والمصلح والفيلسوف والسياسي ، كل منهم ابن وقته ، ووقته جماع عصره وتجربته • فاذا كان من الصعب ان لم يكن من المستحيل تغيير العصر فانه من الممكن تغيير الظروف النفسية التي يعيشها المبدع عن طريق تهيئة المناخ الفكرى الملائم الذى يسمح بحرية التعبير دون المنع والقهر أو الادانة والعزل النفسى أو البدنى (١) •

وأفضل المناهج فى هذه الحالة الذى ينتبع الظروف النفسية التى يمر بها المفكر خلال مراحل عمره هو المنهج النشئى الارتقائى الذى ينتبع تكوين المفكر من خلال المواقف النفسية والظروف الاجتماعية التى ولدتها (٢) •

(١) المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنايية ، وحدة بحث السلوك الاجرامى القسم الثالث ، من ندوة « الحركات الاجتماعية المتطرفة » (الحركات الدينية) ، القاهرة . ١٩٨٠ •

(٢) من هذا النوع دراستنا عن « أثر أبى الاعلى المودودى على الجماعات الاسلامية المعاصرة . المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنايية ، وحدة بحوث السلوك الاجرامى ، ندوة الحركات الاجتماعية المتطرفة ، اكتوبر ١٩٧٩ •

وسنعمد على تحليل فكر الامام الشهيد على معظم مؤلفاته وارجاعها الى المواقف النفسية والاجتماعية التي مر بها دون الاعتماد على المواد الثانوية مثل كتابات الآخرين عنه أو رؤيتهم له أو حتى سيرته الذاتية الخاصة وحياته الشخصية نظرا لما يمتاز به من اتساق بين حياته الخاصة وحياته العامة ، ووحدة بين النظر والعمل . وليس الهدف من ذلك هو إعطاء سيرة فلسفية شاملة بل اثره على الجماعات الاسلامية المعاصرة . كما سنعمد على فهم فكر مبني على الملاحظة المباشرة والتجارب المعاشة . ومما يسهل ذلك أنتسابنا جميعا الى جيل واحد يجعل المؤلف يحلل الموقف كله من خلال وحدة تجربة الدعوة الاسلامية في عصر الثورات الوطنية الاشتراكية وهي التجربة التي مازالت مستمرة حتى الآن . فان كنا في الربع قرن الماضي قد عاصرنا المد الوطني الثوري وانحسار حركة الدعوة الاسلامية فاننا نعاصر منذ عدة سنوات انحسار حركة المد الوطني الثوري وعودة حركة الدعوة الاسلامية الى المد من جديد .

ويمكن التعرف على أربعة مراحل في فكر الامام الشهيد تعبر عن تطوره الروحي : المرحلة الادبية ، والمرحلة الاجتماعية ، والمرحلة الفلسفية ، والمرحلة السياسية . وهي في نفس الوقت مراحل تعبر عن تاريخنا الثقافي منذ أكثر من نصف قرن ساهم فيها الام الشهيد . فقد كان جزءا منها مثل طه حسين والعقاد . وهي مراحل متداخلة فيما بينهما ولكنها تتميز بالطابع العام الذي يغلب على كل منها . كما أنها تتفاوت فيما بينها في الطول والقصره اطوالها الاولى المرحلة الادبية (١٩٣٠ - - ١٩٥٠) . واقصرها الثانية المرحلة الاجتماعية (١٩٥١ - ١٩٥٤) بعد ان وأدتها وهي في المهد الثورة المصرية . ونو لم تندلع الثورة المصرية في ١٩٥٢ وبداية الصراع بين الاخوان والثورة

على السلطة وليس على المبادئ الثورية الست لامتدت المرحلة الاجتماعية حتى ابتلعت قوانين يوليو ١٩٦١ ، وطوت في داخلها مرحلة التحول الاشتراكي (١٩٦١ - ١٩٦٤) في الثورة المصرية ، وطورتها وعمقتها وأصلحتها ، وحافظت عليها ، ودافعت عنها ، ولكتبت لها الاستمرار والدوام ، ولاصبح سيد قطب ليس فقط من أمثال المصحابة الاوائل عمرو بن الخطاب وأبي ذر الغفاري بل أيضا من دعائم الثورة التحريرية العالمية من أمثال ماركس ، وماوتسي تونج ، وهوشي منه ، وغرامشي ، وجيفارا ، وكان حلقة الاتصال بين ثوارنا القداماء والثوار المحدثين مثل الافغانى ، والسلطان جالبييف ، والامام الخمينى . ولكن الامام الشهيد راح ضحية هذا الصراع بين الاخوان والثورة .

كما أن هذه المراحل تتفاوت فيما بينها من حيث التطور والوقوف ثم النكوص والارتداد . فهناك تقدم وتطور فعلى من المرحلة الاولى الى المرحلة الثانية . ولكن هناك توقف في المرحلة الثالثة ، المرحلة الفلسفية (١٩٥٤ - ١٩٦٢) ، التى تمت بين جدران السجون والتي تحوت فيها « معركة الاسلام والرأسمالية » الى « خصائص التصور الاسلامى ومقوماته » أى تحولت معارك الاسلام عن النضال الاجتماعى الى عرض نظرى خالص للاسلام . ثم حدث نكوص من المرحلة الفلسفية الى المرحلة السياسية فى (١٩٦٣ - ١٩٦٥) ابان موجة الاضطهاد الثانية للاخوان والتي بلغت ذروتها فى آخر عام عاشه الشهيد عندما تحول « خصائص التصور الاسلامى ومقوماته » الى « معالم فى الطريق » وأنتقاء فقرات طويلة من « فى ظلال القرآن » ، وقد تم معظمة بين جدران السجون ، بالاضافة الى بعض تجارب السجن الفكرية التى تعبر عن « فكر المضطهدين » . حينئذ برزت أفكار الالهية والربوبية والحاكمية

والدينونة والطاعة ، وتم التعارض بين الاسلام والجاهلية حيث لابقاء
لاحدهما الا بقضاء الآخر . وهنا يبدو أثر أبى الاعلى المودودى عليه .
ومن هذه المرحلة فقط خرجت جميع الحركات الاسلامية المعاصرة
سواء التى استعملت العنف فى حادثة الفنية العسكرية أو مقتل الشيخ
المذهبي أو تلك التى تستعمله الآن فى حرم الجامعة ومدرجاتها أو تلك
التي ستستعمله فيما بعد وتعد لها نفسها الان خارج الجامعة على نطاق
النظام الاجتماعى ككل .

أولا : المرحلة الادبية (١٩٣٠ - ١٩٥٠) :

وهى أطول المراحل الاربعة والتي يبدو فيها المؤلف جزءا من
الحركة الثقافية والادبية التى كانت تعم البلاد فى هذه الفترة (٣) .
ويتفاوت انتاجه فيها بين النقد الادبى مثل « مهمة الشاعر فى الحياة »
عام ١٩٣٢ (٤) أو « النقد الادبى ، أصوله ومناهجه » عام ١٩٤٧ (٥)

(٣) لم نستطع للاسف الاطلاع على « نقد كتاب مستقبل الثقافة فى
مصر » الذى نفذ ولا يوجد بالمكتبات الوطنية العامة مثل كل مؤلفات سيدقطب .
وهو يدل على نشاط المؤلف فى الحركة الثقافية ورفضه اتجاه « التغريب »
الذى مثله طه حسين فى ذلك الوقت .

(٤) هى محاضرة القاها سيد قطب وقدم لها الاستاذ / محمد مهدي
علام استاذ التربية فى دار العلوم فى ٢٨ / ٢ / ١٩٣٢ .

(٥) هناك أيضا النقد الادبى التطبيقى مثل « كتب وشخصيات »
(١٩٤٦) الذى لم نستطع الاطلاع عليه والذى يحتوى فى غالب الظن
على مراجعات ومقالات . كما أعلن عن مجموعة ثانية « لحظات مع
الخالدين » . وهناك بعض المقالات التى نشرت أغلب الظن فى منتصف
الاربعينيات مثل « منهج الادب » ، « الاسلام حركة ابداعية شاملة فى الفن
والحياة » وقد نشرنا فى « التاريخ ، فكرة ومنهاج » ص ١١ - ١٢ ، ص
٢٢ - ٢٩ .

وبين الانتاج الادبى فى الشعر مثل « النشاطىء المجهول » عام ١٩٣٤ (٦) وفى الرواية مثل « المدينة المسحورة » ، « اشواك » ، « الاطيف الاربعه » أو فى السيرة الذاتية مثل « طفل من القرية » عام ١٩٤٥ (٧) • وقد نم تتويج هذه المرحلة باكتشاف الجانب الفنى فى القرآن وذلك فى « التصوير الفنى فى القرآن » عام ١٩٤٥ ثم تطبيق النظرية فى « مشاهد القيامة فى القرآن » (٨) •

كانت الاحساسات الادبية والفنية هى الطاغية على التصورات العقلية والاهتمامات الوطنية والاجتماعية والسياسية • ويبدو أن الشعر كان أعلى الفنون • وهو بمثابة المنبع الاول للفكر • فالشاعر فيلسوف • يحس ويشعر ثم يعبر ويصوغ مرة بالصورة فهو شاعر ، ومرة بالتصور فهو فيلسوف • فالشاعر مصور • تقوم الصورة لديه على الخيال وتعتمد على التناسق • وهو قادر بالخيال على الاحساس بالحقيقة ، حقيقة الانسان والحياة والكون • وهو الشاعر الصادق فى

(٦) اعلن سيد قطب فى الطبعة الثانية لكتابه « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » عن ديوان آخر « حلم الفجر » ولكن يبدو أنه لم يصدر •
(٧) لم نستطع للاسف الاطلاع على « الاطيف الاربعه » التى كتبها بالاشتراك مع اخوته الثلاثة (دار المعارف) او على « افراح الروح » (دار الشروق) •

(٨) نظرا للطبعات الاولى التى نفذت او التى لا يوضع عليها تاريخ الطبعة (نظرا للطبعات التجارية التى تمت بعد ذلك الشرعية منها وغير الشرعية) التى لا يوضع عليها أيضا تاريخها أو تاريخ الطبعة الاولى ، فإنه يصعب معرفة تاريخ نشرها بالدقة • وقد استعملنا الاستدلال للتغلب على هذه الصعوبة وذلك عن طريق هوامش الكتاب والاحالة الى المؤلفات السابقة بالرغم من وجود هوامش أخرى يصعب معرفة مصدرها ، هل هو المؤلف أم الناشر •

مقابل الشاعر المزيف الذى لا يبدأ بالتجربة الوجدانية • صحيح أن للبيئة أثر فى التذوق والخيال ، ومع ذلك فالتجربة الشعرية لها استقلالها الخاص •

بهذا التصور للشعر وضع سيد قطب أولى انتاجه الادبى وفيه بذور « التصوير الفنى » وبدايات « التصور » للحياة والانسان والكون دفاعا عن الأدباء الشباب ضد طه حسين الذى ينكر عليهم انتاجهم وموهبتهم ، ومعطيا له نماذج شعرية من خمسة منهم بالاضافة الى نموذج واحد للعقاد قائلا لطه حسين « أنك تبحث عن الشاعر الشاب الذى نشأ فى هذه الاعوام فعرف جماعة من الشباب عن شوقى وحافظ ومطران فلا تجده وعن الكاتب الشاب الذى ظهر فاستحدث مذهباً فى النثر صرف بعض الناس عن هيكل والمزنى والعقاد فلا تنظر به (٩) » هنا يظهر سيد قطب مدافعا عن الخلق والابداع الذى سيصبح فيما بعد لديه مرادفاً للإسلام • وفى ديوانه الشعرى الاول « الشاطئ المجهول » الذى يضم مجموعة أشعاره فى ١٩٣٤ وبداياتها قبل ذلك بعشر سنوات تبث الموضوعات الفلسفية والميتافيزيقية من خلال الوجدان والاحساس الشعرى بالزمان والخلود • يعقد مقدمة للديوان يتحدث فيها كناقذ عن نفسه كشاعر وكأنه انقسم شطرين ذات وموضوع ، مبينا أن الشعر أوسع مجالا من العلم والفلسفة ، عارضا لموضوعات الجسم والعقل والروح والزمن والوحدة ومستشرفا المجهول • وفى نفس الوقت يتحدث عن ملكة التصوير الفنى وروح المقصص ، والحركة الداخلية ، وموسيقى الشعر (١٠) •

(٩) سيد قطب : مهمة الشاعر فى الحياة ص ٨ .

(١٠) سيد قطب : الشاطئ المجهول ، مقدمة .

وقد ظهرت كثير من الموضوعات الميتافيزيقية مثل الغربية والموت •
فقد اعتاد الشاعر أن ينتردد كثيرا على وادي الموتى في أوقات مختلفة
أكثر ماتكون عند مغرب الشمس وقبل طلوعها (١١) • الا أن ذلك لم يمنع
من ظهور الموضوعات الاجتماعية أو السياسية • بل ان الشاعر يتغنى في
جبال ريف مصر (١٢) وانه سر بقائها ويطالب له بالسلامة • ولم يشر
الى الاسلام الا مرة واحدة مقارنة مسوره للجسم والزمن والوحدة أما
بالنسبية أو بالتصوف الاسلامي (١٣) • ولكن الموضوع الغالب هو
للوطنيات بالرغم من أنه أقل الاجزاء جميعا (١٤) • وتدور الأشعار
الوطنية حول مصر ، والسودان ، وفلسطين ، والشرق ، ومن
الموضوعات التي كانت سائدة أيضا عند شاعر النيل حافظ ابراهيم ربي
شعر العقاد (١٥) • فمصر في كبرياء من التسلط والتخلف والاستعمار أن
لها ان تنهض من عثرانها ، ويحثها الشاعر على النهوض بعد حادثه

(١١) يقول مثلا بعنوان « غريب » .

غريب اجل انما في غريبه وان حف بي الصحب والاقربون
غريب بنفس وما تتطوى عليه حنيا فؤادى الحنون
غريب وان كان لا يزل وجاور فيها الشكوك اليقين
ولكنها داخلتها الظنون ببعض القلوب لقبى حنين
غريب فـو حاجتى للمعين ووالهف نفسى للمخلصين
الديوان المذكور ص ٥١

(١٢) يقول الشاعر :

اسلم فذلك مواهبى وحطابى ياريف يحصر وانت سر بقائهما
الديوان المذكور ص ٨٦

(١٣) الديوان المذكور ص ٧ .

(١٤) ينقسم الديوان خمسة أقسام : ظلال ، ورموز — صور وتأملات —
نزل ، ومفاجأة ، وطنيات .

(٥١) يشير الديوان الى العقاد والحركة الادبية في مصر ، ص ٤٤ .

البدارى ومأمورها المقتول وسجن أهالى البدارى ، دنشواى الجديدة (١٦) .
كما كتب الشاعر أشعارا فى ذكرى سعد فى ١٩٣٢ والثورة الوطنية
المصرية . كما حاول الاستعمار فصل شطرى وادى النيل والامة فى
شغل عنه بما هى فيه من نكبات عامة . وقد قام السيد العبيدة رئيس
جمعية اللواء بتأليف جمعية على أثر اخراج الجيش المصرى من
السودان فى ١٩٢٤ ، وقام يناضل عن وحدة وادى النيل المقدسة فى جرأة
ورجولة وبطولة غير عابىء بسجن أو بتنكيل بلغ من وحشيته « ان يسجن
الفقيد وهو سياسى ! » . كما عبر الشاعر عن صوت مصر الوطنية بعد
موافقة وزارة وبرلمان صدقى على مشروع خزان الاولياء فى ١٩٣٢ .
ونظم الشاعر نداء الى البلاد العربية الشقيقة فى ١٩٣١ بمناسبة ثورة
فلسطين وحوادثها الدموية . كما رثى شهيدى الطيران على طليعة
الصحايا فى ١٩٣٢ . وقد ظل صراعه مع الصهيونية منذ ذلك الحين

(١٦) منعت الوزارة نشر مقطوعة من ضمنها :

تسموا اناسا تئن وتألــــم	ياأيها الرفقاء بالحيوان لا
بينما يحقر شعبها ويحطم	فى مصر قن تلقى الكلاب رعاية
لابل يكافأ دونه ويكرم	فى مصر لا يلقي المسىء جزاءه
فحش يعجج بها وفحش يكتم	فى مصر لا يحفظ التاريخ من
غضبت وفار على جوانبها الدم	فى مصر لو فى مصر بعض كرامة
لم يبق من حرماننا ماتكــــرم	ماذا يعز على الهوان نصونه
مما نسام به وما نوسم	الموت ! ياللهموت ! ياأشرف شريعة
الديوان المذكور ص ٢٠٣ — ٢٠٥	

ويقول أيضا :

كذلول النوق من شاء يرتب	ماعدنا مصر تعطى ظهــــرها
تعطب السائق من دون العطب	المطايا حين تخشى حتفها
لم يرعها الغرب لما أن غضب	مصر لنا غضبت لغضبتهـن
الديوان المذكور ص ١٩٧ — ٢٠٠	

حتى استشهاده (١٧) * ومصر هي درة الشرق ومركزه في مواجهة الغرب *
فصيحة الافغانى وشعر حافظ يتكرر ان معا عند شاعر الوطنية (١٨) * فلا
غرابه اذن ان يكون أول مهد له هو « مصر الفتاة » في أواخر الاربعينات *

أما « المدينة المسحورة » (١٩) فهي مدينة عظيمة في مصر القديمة تقع
فيها فرصة حب وانتقام * وقد كان البحث في مصر القديمة كمادة
روائية طريق جيل كامل من الادياء أثر دعوة الاغاني مصر للمصريين
وتحت تأثير الحركة الوطنية المصرية (٢٠) وتأسيس الحزب الوطنى
وقيام ثورة ١٩١٩ ونضال مصر عند الاستعمار ، وتحقيقا للوطنية
المصرية التى بدأها الطهطاوى ولطفى السيد وطه حسين والعقاد *
ومع ذلك فالقصة موضوعة في قالب روائى اسلامى ، قصة من ليالى
ألف ليلة وليلة ، الليلة المائة بعد الالف ، تقصها شهرزاد على
شهریار * وتدور حول قصة حب وتعتمد على التحليل الوجدانى للمحبين

(١٧) ايه يامصر عزاء انما انت اولى بالتحديات الوصفاء

للاسف لم نستطع الاطلاع على كتابه « معركتنا مع اليهود » لانه ممنوع
دخوله وتداوله في مصر ه ولكن في باقى كتبه وايضا في « ظلال
القرآن » الكثير عن نضاله ضد الصهيونية .

(١٨) يقول الشاعر :

الشرق بالشرق تلك دماؤه والغرب ، بالغرب يضويه الدم
مصر الفتاة وما تزال خفية تهفوا اليكم بالقلوب وتمطم
(١٩) لم نستطع للاسف معرفة تاريخ صدور هذه الرواية ولكنها من
بواكير انتاج سيد قطب . انظر محمد على قطب : سيد قطب الشهيد الاعزل .
(٢٠) كتب نجيب محفوظ مثلا « كفاح طيبة » ، « رادوبيس » وترجم
لاردمان تاريخ مصر القديمة . وكان توفيق الحكيم من قبل قد كتب « عودة
الروح » .

مما يظهر فيما بعد في منطق الوجدان والتعبير الحسى عنه (٢١) . كما تظهر بعض الموضوعات الدينية مثل الخرافات والسحر والشعوذة والاقدار « حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا » وتحقق النبوة والالهام (٢٢) . كما تظهر صورة الطريق عدة مرات : اين الطريق ؟ او « لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » . مفرق الطريق بين عهدين ، وهى الصورة التى لم يخل منها أى عمل من أعماله والتى أصبحت فيما بعد عنوانا لمؤلفه « معالم فى الطريق » الذى دفع حياته ثمنا له (٢٣) . كما تظهر بدايات أفكار ستصبح فيما بعد نقدا للغرب مثل ضرورة اشراف الام على تربية الاطفال فان « اشراف الام لا يعدله اشراف » (٢٤) . وتظهر أيضا بذور « التصور الاسلامى » خارجة من الادب مثل الحديث المستمر عن الحلم والواقع وعدم الفصل بينهما ، وبيان أهمية الحلم والخيال « لان الحياة بلا خيال نوع من التحجر » ، ولان الانسان لن يصل الى شىء الا بالوجدان والخيال والاحلام ، ولان الواقع الاصيل لن يحصره ادراك فرد وهو ما سيصبح فيما بعد « التصور الاسلامى » (٢٥) . ولكن الواقع

(٢١) مثلا وضمت ساقئها المتفرجتين وذراعيها المتراخيتين « المدينة المسحورة ص ٢٣ او بعض عبارات الاحساس بجمل المرأة مثل وهى تتجنى فيبدو قوامها الفاتن ص ٩ او وكانت قد نضجت أنوثتها وتفتحت رغباتها (ص ١٥) او قول الام فأنى أخشى عليها ماهو أشد من سلب الاغنام ص ١٩ وليس بين الرجل والمرأة حين يخون ذلك الحاجز المتوهم من الكهرباء او غير الكهرباء .

(٢٢) المصدر السابق ص ٤٣ — ٤٤ ، ص ٦٧ .

(٢٣) المصدر السابق ص ٣١ ، ص ٦٦ .

(٢٤) وسيجد هذه الفكرة فيما بعد فى كتاب أنا غرويد وزءيلتها « اطفال بلا أسر » المصدر السابق .

(٢٥) المدينة المسحورة ص ١٠ — ١١ .

أيضا طرف للخيال • فالانسان يحس أيضا بشوق الى الحياة في الارض والعودة الى الواقع (٢٦) • واذا كان السحر قد جسد الحياة وأوقف الزمان (٢٧) فان الحب قد أعاد الحياة وحرى الزمن • والزمن والتطور والحياة والتجدد والحركة بذور « التصور الاسلامى » • ويظهر التناسق الفنى فى بناء الرواية بين البطل والبطلة « الاب والام » وتحليل عواطف كل منهما بالتبادل ثم بين البطل والبطلة « الابنة والابن » • فالرواية تقوم على فن هندسى متقن ، وهو ما سيصبح فيما بعد أساس « التصور الفنى فى القرآن » • كما يبدو الصراع بين الخير والشر ، بين الحب والانتقام ، بين الحياة والموت مع الافاضة فى تصوير نزوع الخير لان الادب الاسلامى كما يقول فيما بعد لا يصور لحظات الضعف الانسانية بل لحظات القوة والاكتمال • لذلك لم يبين المؤلف لماذا يعنى المدافعون عن المدنية ، وما ذنب القتلى من المتفرجين على المدينة •

ولكن الاظهر فى ذلك كله هو الجانب الاجتماعى • فالبطل والبطلة راعية غنم ، فالحب لا يعرف التفرقة الطبقيه وينتصر على الملك فى النهاية • وقد استبشر فريق وهلك لهذا الانقلاب وفى صميم نفسه شعور غامض بأن هذا تصرف الهى يرفع من مقام الشعب ويزيل الفوارق بينه وبين أكبر الرؤوس فى البلاد (٢٨) • ثم تكون البطلة الاميرة ابنتهما والبطل راعى غنم ، وينتصر الحب أيضا فى النهاية على انتقام الاميرة الاولى المهجورة ، وهى اميرة شريرة تحولت الى ساحرة وفقدت حبيبها • وقد زعم فريق ان

• (٢٦) المصدر السابق ص ١١

• (٢٧) المصدر السابق ص ٧٢

• (٢٨) المصدر السابق ص ٤٣

الاميرة كانت قد قسمت على امرأة عجوز ففيرة رأتها تلوذ بحوائط القصر من الوايل المنهمر فأمرت بإبعادها عن القصر حتى لا تشوهه بمنظرها القذر (٢٩) . هذا الجانب الاجتماعي هو الذي يستمر غيما بعد المرحلة الادبية كلها .

أما روايته « اشواك » فيبدو من الاهداء الى رفيقة عمره التي انفصل عنها انها تجربة شخصية مر بها الكاتب الاديب تدور حول الصراع بين الانسان والادب ، بين الحياة اليومية وحياة الابداع ، وأيضاً رفيقة العمر أن يبقى لعمله الادبي فهو أدوم وأخلد (٣٠) . وهي قصة تدور حول فترة الخطوبة بين الحبيين وتحليل نفس كل منهما بما فيها من غزل وحب وتوتر وغضب . ويأخذ الحب الرومانسى صبورا حسيه ووصفا للصدور والرؤوس والشعور (٣١) . كما يظهر موضوع الخيال والواقع من جديد مما يوحي بالتصوير الفني كفقولة في النقد الادبي فيما بعد (٣٢) . ويمكن تلمس بعض جذور الموضوعات الدينية لديه مثل الحديث عن بيئته المحافظة التي جعلته يقترب من الشعر والفن

(٢٩) المصدر السابق ص ٤٤ .

(٣٠) سيد قطب : اشواك ص ١٣٧ .

(٣١) يقول مثلا « فاذا شفتاه تهويان على شفثيها فتستجيب له بكل ما فيها (ص ٣٥ - ٣٦) » صدرها الفاتن ، صدرها البارز الفاتن (ص ٤٥) نظرت اليه نظرة متوددة راضية تمازجها الفتنة والاغراء ولو كان النور مطفاً لصنع شيئاً آخر (ص ٤٦) فاستجابت اليه في لين واغراء ولو في غير هذه اللحظة لارتكب حماقة التي يشتمز منها طبعه (ص ٤٨) .

(٣٢) « وما الفرق بين الخيال والواقع اذا كان كلاهما يستجيب له القلب والذهن ، ويترك آثاره في النفس والحياة ؟ وما الفرق بين الحلم والحقيقة ، وكلاهما طريق عابر يلتقى ظله على النفس ثم يختفى من عائم الحس بعد لحظات » ص ١٤٦ ، ١٤٨ .

والخيال ويرتبك مع المرأة أو مثل بعض التشبيهات الصوفية مثل « لقد خلا الريكل من الصنم المعبود ، واستوحش الصوفي من سبحات الشهود (٣٢) . وقد يكون موضوع الرواية كلها وهو ثقل الماضي في الحاضر أو الماضي الحي وأثر صديق الفنانة القديم على عواطف خطيبها الحالي هو البذور لموضوع التراث والتجديد ، والدين والتطور (٣٤) . وتراث الامة الذي مازال يعيش في قلوب الناس . ومع ذلك فإنه يغلب على الرواية التحليل النفسى للفرد . ولا أثر فيها للجوانب الاجتماعية أو التصورات الاسلامية . كما أنها انتهت نهاية مأساوية وهى القطيعه والانفصال بين الحبيبين على عكس النفاؤل الاسلامى .

أما « طفل من القرية » فإنه سيرة ذاتية للمؤلف فى طفولته المبكرة منذ أكثر من ربع قرن أيام الكتاب والمدرسة وقبل الرحيل الى القاهرة مثل « الايام » لطفه حسين ومهداة اليه . بها اختلاف وانفاق معه مثل الخلاف والاتفاق بين الاجيال والطبائع والحياة والاتجاه (٣٥) . ويتجاذب السيرة جانبان : الجانب الدينى والجانب الاجتماعى .

ويظهر الجانب الدينى فى دين القرية الذى يتمثل فى تصوف

(٣٢) أشواك ص ١٢٣ .

(٣٤) المصدر السابق ص ٨٩ ، ٩٥ .

(٣٥) لم يكن سيد قطب كشاعر وقصاص وناقد فريد فى جيله بل كان وزملائه فى لجنة النشر للجمعيين التى نشرت « طفل من القرية » ، « الاطيف الاربعة » ، « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » ، يمثلون نفس التيار مثل عبد الحميد جودة السحار ، نجيب محفوظ ، على احمد باكثير ، محمود تيمور ، ابراهيم المازنى ، كامل الكيلانى ، ابراهيم المصرى ، وداد سكاكينى ، أمين يوسف غراب ... الخ .

المجذوبين والايمان بالعفاريت والاولياء . فلاعب الجمبار مثل المجذوب .
ولكن يبرز الدين العلمى على يد المدرسين الشبان فيحدث التقابل بين
الخرافة والعلم : بين العلاج عن طريق العفاريت والتمائم وكتابات
سليمان وآية الكرسي أو النصد وذكر الله الاعظم لطرد العفاربت
الشريرة التى تختفى فى شهر رمضان وبين الطب والعلم الحديث . بل
يقوم المدرس الشاب مع الاطفال بتجربة علمية يذهب فيها الى المكس
المسكون ، رواق المنزل القديم التى سكنها الارانب ويظنها الناس
عفاريت لاثبات ان هذه العفاريت خرافة أساسها الجهل وقصص مكذوبة
لبعض الاغراض الدنيوية حقيقة أو متوهمة ثم دور الخوف والرعب فى
الايهام وتحويل الحقيقة الى وهم . كما يظهر الدين فى أسلوب الكتاب
فى تحفيظ قواعد اللغة والقرآن دون فهم أو تذوق والصراع بين الكتاب
والمدرسة واعتماد الكتاب على حفظ القرآن وأهمال المدرسة له ومحاولة
المؤلف الجمع بين الحسنين حفظ القرآن فى الكتاب وفهمه فى المدرسة
واكتشاف الكتاب والمدينة ، وحب الثقافة والكتب ، وتذوق الطبيعة ،
وتشخيص النهر بعد الفيضان « مسكين خلاص همد » ، وتفويض الامور
الى الله « الامر لله » كما يؤمل أهل القرية دون أن تظهر الحاكمة
بعد .

وارتبط الدين أيضا لديه بالوطنية فقد حفظ رسالة لعمر بن العاص
وصف فيها مصر والفيضان . وتأثر بالناظر الشاب وهو يفيض وطنية
ويتحدث عن عباس الشيخ وعبد العزيز جاويش ومحمد فريد وأندور
باشا التركى وطلعت رؤوف وشقيقتة حميدية التى اذاعت الحلفاء
الويل فى نهاية الحرب العظمى الاولى . وكان الطالب يقرأ دواوين شعراء
الوطنية مثل ثابت الجرجاوى وكتب التاريخ كمادة وطنية . ولما اندلعت

ثورة ١٩٣٩ وقف الناظر أمام التلاميذ والقى عليهم خطبة نارية وطنية ، وأغلق المدرسة الى أجل غير مسمى لانه ذاهب هو وزملاؤه للعمل في الثورة . فالثورة واجب على كل انسان . انطلق حماس الطالب ، يكتب الخطب ، ويقرض الشعر ، ويلقى ذلك في المساجد والمساجد لينفخ روح الثورة في الجميع فصاروا يستمعون لكل هاتف بالثورة . وكان الاسم المقدس الجديد لديهم هو سعد زغلول (٣٦) .

أما الجانب الاجتماعي فإنه يظهر في تصور فقر الريف وتريف الاغنياء حتى لقد علم وهو في هذه السن مايجب ان يبقي ومايجب ان يزول . فلقد أحس أنه سارق سارق لهؤلاء المغرب (الاجراء الزراعيين) وأمثالهم من الملايين التي تنبت الذهب في الوادي ونجوعه . ولو كان في الوادي قنانون عادل لقاده الى السجن قبل أولئك الكثيرين الذين يحسبهم القانون لصوصا ومجرمين . لقد ظل هذا الشعور يعاوده ابدا كلما جلس يتناول طعاما دسما أو فاكهة لذيدة أو حلوى انيقة أو يتمتع بأيسر مباح الحياة بين ملايين المحرومين . لقد علم أشياء وأشياء ولم يتبين عمق آثارها في نفسه وقسوة وقعها على حسه الا وهو يسترجعها الان في الحين بعد الحين فيشعر في قرارة نفسه بالخجل ويحس لنفسه ولشعبه بالازدراء . عرف قحط النهر ، وارتباط الفلاح بالارض ، واقامة المآتم يوم بيعها . عرف أغلب الزمان في الريف : غلب الفقير ، غلب الحرمان ، غلب الجور من الحكام : الخريبة ، مطالب العمدة : تلبية لاوامر الحكومة : تذاكر الجمعية الخيرية والهلان الاحمر والاسعاف : سخرة الجسور ، وتنقية الدودة في مزارع الاثرياء

وتفانئشهم خارج القرية ، ومكافحة الجراد، وغلب الكدر المتواصل . (٢٧) عرف ان الذين يعملون اجراء زراعيين غرب — لا يربطهم بالقرية لا الدين لا القومية ولا الجنس : وهو ماسيظهر فيما بعد على أنه الامة الاسلامية . عرف قلب التقاليد وبخاصة فيما يتعلق بالمرأة التي لاترتنع في نظر الرجل عن السلعة . فاذا كان بيت أهلها مازال مفتوحا فهى محترمة الى حد ما لان هناك مالا ينتظرها . أما اذا خرب بيت اهله؛ فهنا تعاني من الذل والتحقير مايجيل حياتها ظلما في ظلام . وعندما تبلغ سن الثلاثين يجب أن تحنشم دون زينة فنقتل طبيعتها . لذلك سيظهر الاسلام فيما بعد كعدالة اجتماعية وأخذ حقوق الفقراء من الاغنياء وكتحرير المرأة المسلمة .

ويمثل « التصوير الفنى فى القرآن » ثم « مشاهد القيامة فى القرآن » نقله من الادب الى الدين واكتشاف العنصر الفنى فى الدين قبل ان يكتشف فيما بعد الابعاد الاجتماعية والفلسفية والسياسية . ويقوم على تجربة شخصية منذ سماع القرآن فى القرية فى كنف أمه النى يهديها « التصوير الفنى » كما أهدى « مشاهد القيامة » الى روح أبيه، وكما أهدى ديوانه « الشاطيء المجهول » الى أخيه . وينقد تفسير الاساتذة الذى لاذوق فيه ، ويعتمد على التجارب الانسانية الشعورية والتأثر الوجدانى؛ ويعطى التفسير الشعورى معتمدا على التذوق الفطرى وتشخيص الانفعالات الانسانية ويضع نظرية فى التصوير الفنى الذى يعتمد على التخيل الحسى والتجسيم مركزا على أغراض القصة وهو احداث الاثر النفسى المطلوب وليس وصف حقائق مادية بالتفسير الحرفى للنصوص

فالأيات تحمل مثلا يضرب وليس حادثا يقع • وقد شغل القدماء أنفسهم بمباحث عقيمة حول اللفظ والمعنى ولم يأمسوا قضية التصوير الفنى « بالرغم من اقتراب البعض منه مثل الجاحظ وابن قتيبة وقدامة وأبو هلال العسكري وأخيرا عبد القاهر الجرجاني الذى وضع نظريته فى التخييل » • وقد اقتصر « التصوير الفنى » على الجانب الادبى دون التعرض للمسائل الاجتماعية مثل العدالة الاجتماعية أو الفلسفية مثل التصور الإسلامى أو السياسة مثل الحاكمية •

أما « مشاهد القيامة » فهى تطبيق لنظرية « التصوير الفنى » على موضوع ميتافيزيقى خالص وهى الأخرى رويات ، البعث ، واليوم الآخر ، والجزاء والعقاب مبينا أثرها فى الشعور أو كما يقول المؤلف ، « العالم الآخر فى الضمير البشرى » وواضعا اياها فى اطار تاريخ الاديان المقارن الذى يجمع على أن الاخلاق هو أساس الجزاء والعقاب • ومع ذلك لم يظهر البعد الاجتماعى والسياسى لهذه المشاهد • كما لم يظهر بناء فنى واحد لهذه المشاهد كلها بدل عرضها حسب الترتيب الزمنى للسور • ومع ذلك فيبدو ان قضية التصوير الفنى كانت تدل على شجاعة الفكر والتمسك بحرية النظر دون ادنى مفاجأة للدين • كما تدل على ان المؤلف كان مقدما على عصره الذى مازالت تسود الحرفية والتفسير المادى للنصوص •

(٣٨) كان « التصور الفنى فى القرآن » فى البداية بحثا فى مجلة المقتطف عام ١٩٣٩ قبل أن يخرج عام ١٩٤٥ فى صورة كتاب • وكان فى رأى المؤلف يصلح لان يكون موضوعا لرسالة جامعية • وقد قام د. محمد نحمد خلف الله برسالة مشابهة بعنوان « الفن القصص فى القرآن الكريم » عام ١٩٤٧ •

وأخيرا يمثل « النقد الادبي ، أصوله ومناهجه » اجتماع الادب والدين ومحاولة ايجاد نظرية في النقد الادبي تضم منهجه في الادب واكتشافه للجانب الادبي في الدين في موضوع «التصوير الفنى فى القرآن» •
ينقد التراث محاولا تطويره وفهمه وتأصيلا للتصوير الفنى على عكس ماسيفعل فيما بعد فى المرحلة الفلسفية من رفض الفلسفة والكلام والتصوف • وينقد الادب العربى القديم لانه لايسلك طريق التركيز ولايسلك طريق المشاهد والجزئيات فى عرض التجارب الشعورية الا نادرا • همه صياغة التجربة الشعورية فى حكمة أو قاعدة لا فى مشاهدة وحالة (٢٩) • وكان ينقص كثيرا من النقاد والعرب القدماء لا فى مشاهدة على الحركة • وينقد قدامة لاقامته النقد على أسس فلسفية منطقية على عكس عبد القاهر الذى حاول الاعتماد على التحليل النفسى • فقد استطاع الامام عبد القاهر الجرجانى أن يصل الى نظرية التخيل • فهو لذلك يستحق اهداء الكتاب « الى روح الامام عبد القاهر أول ناقد عربى أقام النقد الادبي على أسس علمية نظرية ولم يطمس بذلك روحه الادبية الفنية ، وكان له من ذوقه الناقد وذهنه الواعى ما يوفق به بين هذا وذاك فى وقت مبكر شديد التبكير » (٤٠) • وبالرغم من هذا الموقف النقدى من التراث فقد استطاع المؤلف أن يقدمه سهلا بسيطا واضحا رافضا تقليد الغرب فى النقد الادبي ، ومدافعا عن التأصيل فى التراث القديم • ويستشهد بالادب الشرقى ومؤلفات طاغور • ويعرض للحركة الادبية لجيل بأكمله : المعتاد : وطه حسين : والمازنى وللشعر الحديث

(٣٩) سيد قطب : النقد الادبي ، أصوله ومناهجه ، ص ٤٩ •

(٤٠) المصدر السابق ص ٣ • ويقتبس المؤلف نصا طويلا من « دلائل

الاعجاز » ص ١٢٥ •

عند نازك الملائكة ويعتمد على الدراسات العلمية لمعاصريه في الابداع
الفنى (٤١) * وظل التمايز الحضارى مقياسا للشعر ووضعته المتميز داخل
كل حضارة * ويدافع عن رأى العقاد فى الادب الشعبى الذى لا سلطان
عليه للطبقة الحاكمة * وتظهر الواقعية فى الادب وأهميتها وهى التى
ستتحول فيما بعد الى واقعية المنهج الاسلامى على عكس مثل افلاطون
المجردة * كما يشير الى صراع الطبقات كحقيقة اجتماعية يحلها
الاجتماعى وان لم تكن موضوعا مباشرا للادب وان حاول المؤلف
فيما بعد تجاوز الصراع الطبقي من أجل تغليب طبقة على طبقة الى
تحرر الانسانية جمعاء وهو التحرر الاشملى والاعم والابقى والاقترب
الى الكرامة الانسانية ، وهو مايسميه المؤلف المنهج التكاملى فى الادب
الذى يأخذ فى الاعتبار كل العناصر المكونة للعمل : الادبية والفنية
والوجدانية والاجتماعية والانسانية * صحيح ان الصراع محور الحركة
التطورية فى الفن طبقا للتفسير المادى للتاريخ ولكن الاسلام لايعيطه كل
هذه الاهمية لان أهدافه أوسع وأرقى * أنه لايرضى بالظلم الاجتماعى
ولايقره ولايدعوه الناس الى الرضا به بل يدعوهم الى مكافحته لتطوير
البشرية *

ويركز المؤلف على أهمية القيم الشعورية والقيم التعبيرية فى
العمل الادبى ويستشهد بالقرآن ويكتشف التصوير الفنى من جديد
ويستشهد بمقنطقات طويلة منه لضرب المثل بموسيقية الالفاظ ولبيان
وظيفة الصور والظلال والايقاع ومقدار اشتراكها فى الدلالة الادبية

(٤١) مثلا دراسات مصطفى سويف التى كانت فى صورة مقالات
فى مجلة علم النفس *

وفي تصوير الجو العام • فالسمة الاولى للتعبير القرآنى اتباع طريقته
تصوير المعانى الذهنية والحالات النفسية وابرازها فى صور حسية •
ولكن الاهم من ذلك كله هو بداية الربط بين الادب والتصور
فالادب فى كل حضارة مرتبط بتصورات هذه الحضارة وقيمها • ويمكن
للقاقد أن يتذوق العمل الادبى ويرفض التصور الذى يقوم عليه •
والاسلام أدب وتصور يقوم عليه هذا الادب • فمن الصعب فصل
الادب عن التصور الكلى للحياة وهو الاسلام • فالاسلام عقيدة وحركة
لتطوير الحياة وتجديدها • فمثلا لا يحفل الادب الاسلامى الا بقوة
العنصر وليس بضعفه ولا سلبيته • الاسلام لا يجارب الفنون ولكنه
يعارض بعض التصورات والقيم التى تعبر عنها هذه الفنون ، ويقيم
مكانها تصورات أخرى • فالاسلام تصور تنبثق منه قيم • وبالتالي
فالادب الاسلامى عقيدة ضخمة هائلة جادة فعالة خالقة منشئة تملأ
فراغ النفس والحياة وتستنفذ الطاقة البشرية فى الشعور والعمل وفى
الوجدان والحركة فلا تبقى فيها فراغا للقلق والحيرة والتأمل المضاع •
أبرز ما فيه الواقعية العلمية حتى فى مجال التأملات والاشراق • جاء
الاسلام لتطوير الحياة وترقيتها وليس للعرض فى زمان أو مكان معين
أو لمجرد تسجيل ما فيها من دوافع ونزعات (٤٢) • الاسلام حركة
ابداعية شاملة فى الفن والحياة • على عكس مثالية الغرب ستكون واقعية
الاسلام • قرأ الجيل الاول من الصحابة القرآن وكان هدفهم تطوير
الواقع لا ترقيعه • الادب الاسلامى أدب موجه يحمل فكرة وصاحب

(٤٢) سيد قطب : منهج الادب فى « التاريخ ، فكرة ونهاج »
ص ١١ - ٢١ .

رسالة (٤٢) • ولا نهضة للامة الا بالبعث الاسلامى وليس كما
يلجأ البعض الى الشرق أو الى الغرب أو الى الفرعونية المصرية
القديمة • وهكذا يكاد سيد قطب ينتقل من المرحلة الادبية الى اكتشاف
الاسلام ذاته كتصور وكتقدم فى التاريخ كما حدث بعد ذلك فى المرحلة
الفلسفية (٤٤) •

من هذا العرض للمرحلة الادبية يمكن استنتاج الآتى :

١ — بدأ سيد قطب حياته شاعرا ، أدبيا ، روائيا ، ناقدا ، وكان
مدخله الى الدين هذا المدخل الادبى الفنى • وعرف « التصور الفنى »
وتذوق القرآن وما يحدثه فى النفس من ابداعات وانطباعات جمالية •
ولكن للأسف لم تتأثر الجماعات الاسلامية المعاصرة بهذه المرحلة
نظرا لفقدانها الاحساسات الادبية والجمالية بل ووقعت فى حرفة
تفسير النصوص وملئها بشحنة من الغضب والتمرد والقسوة • وان
كان لديهم بقايا من شعر أو قصة فانه يعبر تعبيرا مباشرا وفجأ عن
الصراع بين الايمان والكفر ، الاسلام والجاهلية ، ويكون أقرب الى
الدعاية والموعظة وأدب المناسبات • عرف سيد قطب الاسلام من خلال
الادب والفن وتبنت الجماعات الاسلامية الاسلام تحت ظروف

(٤٣) سيد قطب : الاسلام حركة ابداعية شاملة فى الفن والحياة ،
المصدر السابق ص ٢٢ — ٢٤ •

(٤٤) أطلنا فى هذا الجزء عن المرحلة الادبية نظرا لانه غير معروف
عن الامام الشهيد مع أنه يكشف عن بداياته الانسانية ونظرا لانها بانفعل
اطول مرحلة عاشها ولا يجب اسقاطها عن الحساب فى مقابل المرحلة
السياسية التى ظهر فيها « معالم فى الطريق » التى دفع حياته ثمنا لها ونظرا
لانها المرحلة التى لم تتأثر بها الجماعات الاسلامية المعاصرة بل تجاهلها تماما •
وان عرفتها فهى تتفكر لها باعتبارها حدثت قبل التحول الاسلامى •

نفسية واجتماعية ، تحول الاسلام فيها الى « ايدولوجية المضطهدين » وبالتالي يمكن التخفيف من أثر هذه الجماعات على حياتنا المعاصرة وذلك بالتركيز على الجوانب الادبية والفنية في الدين وأثر الصورة الفنية في توجيه سلوك المؤمنين . فالعاطفة الدينية هي عاطفة جمالية ينقصها الصياغة الفنية ويحل محلها التعصب والهوى . ويكون تشجيع حركة الادباء الشبان وتأسيس الجماعات الادبية في الجامعات : واصدار مجلات للشعر والقصة والمقال الادبي كوسيلة لتعريف الانفعالات الدينية بأسلوبها الطبيعي وهو الاسلوب الادبي ، وأن صورة حسان بن ثابت « شاعر الرسول » ليس ببعيد .

٢ - كان سيد قطب في أدبه شاعر الحب والغزل . ولهم يجد حرجا في وصف مفاتن البدن ومايشعر به المحبين لشوق اللقاء والعناق والقبلات . ولكن الجماعات الاسلامية نظرا لتطورها الظاهري وحرمانها وكتبها نظرا لما يسود المجتمع من محرمات على رأسها الجنس تضع كل ثقلها في الغطاء والحجاب ، وفصل الطلبة عن الطالبات . تسقط التصور الجنسي للعالم نتيجة للتخلف والحرمان والكتب ثم تغطية وتحجبه عن طريق التزمت الخارجى والاثباع الجنسي عن طريق العداء للمرأة وبوتقتها ووضعها على أريكة أمام الجميع اقرب لما يفعله العراة ولكن على نحو مقلوب . وبالتالي يمكن للحياة الاجتماعية المشتركة والسلوك السوى ، والتعبير العلنى عن عواطف الحب والاعجاب المتبادل والاعتراف بمكونات الفطرة وبمظاهر الجمال في الخلق يمكن لذلك كله ان يقضى على المحرمات فتخرج من السر الى العلن بدل أن يموت الانقلاب من الضد الى الضد في حياة افراد الجماعة من الله الى التجارة ، ومن التزمت الى الاباحية ، ومن التقوى الى النفاق .

٣ — كان سيد قطب جزءا من الحركة الثقافية والنقدية في مصر منذ الثلاثينات حتى أواخر الأربعينات حيث ازدهرت المجالات الثقافية والنقدية في مصر منذ المعارك الفكرية والادبية ، وكان سيد قطب من النابغين الشبان الذى فرض نفسه على الحركة الادبية والثقافية في مصر . ولكننا لا نجد الجماعات الاسلامية أى أثر على حياتنا الثقافية والادبية بل انعزلت في نشاط ذى نمط واحد معين وهو النمط المظهرى الشعائر . لم يبرز منهم أحد في حركة الادباء الشبان كما فعلت الحركات اليسارية بوجه عام والماركسية بوجه خاص ، ولم يدخل أحد منهم في معارك الفكر والادب والثقافة كمفكر وأديب وليس كداعية وخطيب . وبالتالي فإنه من الممكن تحول هذا النشاط واخراجه عن عزلته الى المعارك الثقافية والادبية لجيلنا . فالدعوة الاسلامية ليست مستقلة عن حياة البلاد الثقافية ومعاركها الادبية .

٤ — ظهر في أدب سيد قطب الشعور الوطنى ومشاركته في الوطنية المصرية بالشعر والخطبة والمقال بدافع فردى خالص دون أن يتلقى تعليمات من جماعة أو من رئيس مباشر . وكان يلهب شعوره القادة الوطنيين والشهداء الابرار لمعارك جيلنا : استقلال مصر ، وحدة وادى النيل ، استقلال فلسطين . ولكن الجماعات الاسلامية المعاصرة غالبا ماترى الشعور الوطنى أقل قيمة من الشعور الدينى . بل كثيرا ما تنتنكر له وتجعله مناقضا للشعور الدينى ومضادا له . فتلتزم بمقتضيات الشعور الدينى وتضحى بالشعور الوطنى وهو ما يجعلها باستمرار موضع الاتهام بالخيانة والعمالة لنظم دينية أخرى خارج الوطن ، ويجعلها غير قادرة ليس فقط على الدخول في وحدة وطنية بل أيضا على تصورها . فكيف يجتمع النقيضان : الجاهلية والاسلام ؟

٥ - استطاع سيد قطب وهو الريفي القروي ادراك مأساة ريف مصر منذ الصغر • وأحس بفقر الفلاحين وبؤس الاجراء الزراعيين • كما رأى ترف الاغنياء وسرقة اللصوص • وظل هذا الانطباع طيلة حياته يعطيه الاحساس بالذنب تجاه هؤلاء المنبوذين • وبالرغم من أن لمعظم اعضاء الجماعات الاسلامية جذورا ريفية الا أن احساسهم بقضايا الفقير والغنى يتوارى كلية أمام احساساتهم الدينية حتى أصبحت بغير ذات مضمون • ويقتصر حديثهم على بعض النصوص الدينية فيما يتعلق بالزكاة والاستخلاف ودون مساس بجوهر الاقتصاد الرأسمالي مثل الملكية الخاصة ، والتنافس ، والربح ، والاقتصاد الحر ، والتجارة لم يصور كتابهم بؤس ريف مصر و فقرها الموقع : ولم يشعر أحد منهم بنيل مصر وفيضانه وكأنها احساسات وثنية • وبالتالي يمكن أرجاعهم الى الريف وادراجهم في العمل الاجتماعي في الريف حتى تأخذ عواطفهم الدينية مضامينها الاجتماعية •

٦ - كان سيد قطب وهو في هذه المرحلة الاولى من حياته على وعى تام بالموقف الحضارى • ينفذ التراث القديم فيما لانفع فيه ولا أصالة ، ويبرز ما يصلح لجيلنا واشباع حاجتنا • وينقد الغرب ويرفض تقليده ، وفي نفس الوقت الاستفادة بابداعاته ودلالاتها بالنسبة لنا في نهضتنا وبالنسبة له في مظاهر انهياره وينفتح على الحضارات الشرقية القديمة التي انفتحت حضارها القديمة عليها • ويبين حدود الاقليمية الحضارية مثل الدعوة الفرعونية ، ويطلق حدودها حتى تدخل في اطارات الحضارات الشرقية القديمة التي تجعل العمل الصالح في الدنيا أساس الجزاء في الآخرة • ولكن الجماعات الاسلامية المعاصرة خرجت عن مسار التاريخ واطار الحضارات والتصقت بالتراث

القديم وحده ، وعادت التراث العربى ماينفع منه قبل ما يضر . كما عادت الشرق كله وحضاراته مع أنها امتداد لحضارة الاسلام القديمة . وبالتالي تحول نشاطها خارج التاريخ ودون وعى بالمرحلة فانحسر اثرها . ويمكن التغلب على ذلك عن طريق ادخال الجماعة فى روح العصر : واعطائهم البعد التاريخى ، وانشغالهم بقضايا الساعة ومعرفتهم بالمرحل وادراكهم للتطور .

٧ — لم تظهر فكرة الحاكمة فى هذه المرحلة الادبية وهى الفكرة التى أصبحت مسيطرة عليه فى المرحلة السياسية . مما يدل على أنها فكرة طارئة عليه أما من الخارج خاصة أبى الاعلى المودودى أو من الداخل تعبيرا عن ظروف القهر السياسى والاعتقال ظلما . بل كانت لديه بدايات رفض الدين الشعبى الذى يقوم على الخرافة والجهل . بل ان بذورها لم تظهر لديه فى المرحلة الادبية كما ظهرت بذور الاتجاهات الوطنية والاجتماعية والثقافية .

ثانيا : المرحلة الاجتماعية : (١٩٥١ — ١٩٥٣) :

وبالرغم من ظهور بدايات التحليل الاجتماعى فى المرحلة الادبية الا أنه بدأ بصورة واضحة فى « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » (٥) وفى

(٤٥) صدر « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » فى ١٩٥١ وكان فى ابيدانية أيضا مقالا فى ١٩٤٩ . وقد نشرته لجنة النشر للجامعيين التى كانت تضم ممثلين لنفس ائتبار الاسلامى مثل عبد الحميد جودة السحار بمؤلفات « أبو ذر الغفارى » ، « بلال مؤذن الرسول » ، « سعد بن أبى وقاص » ، « أبناء أبى بكر الصديق » . واحمد على باكثير ، « والاسلاماه » ، مولاى محمد على « محمد رسول الله » ، وعبد الفتاح مقصود « الامام على » الخ .

« معركة الاسلام والرأسمالية » وفي « السلام العالى والاسلام » وأخيرا فى « دراسات اسلامية » التى تبدأ فيها القطيعة بين الاخوان والثورة (٤٦) . وقد انتهى سيد قطب الى الجانب الاجتماعى فى الاسلام تلقائيا ابتداء من الادب وليس ابتداء من الدين أو من الاخوان المسلمين . وكان قد انضم للجماعة أيضا فى هذه الفترة . وكانت مصر فى ذلك الوقت تغص بالحركات الاجتماعية سواء فى الاحزاب الماركسية أو فى الطليعة الوفدية أو فى الاحزاب الاشتراكية وفى طليعتها حزب مصر الفتاة الذى كان سيد قطب قد انضم اليه قبل انضمامه الى الاخوان . كانت المعركة الاجتماعية فى الاربعينات على أشدها . وهى التى دفعته الى اكتشاف الجانب الاجتماعى فى الدين بعد اكتشاف الجانب الادبى فيه فى فترة أيضا كانت المعركة الادبية على أشدها فى أوائل الثلاثينات .

ويعتمد الكتاب على منهج النص وعلى ذكر الشواهد التاريخية لاثبات الدين الحى ، والعمل ، والانتاج ، وأهمية الدنيا فى الاسلام دون أن يعطى تصورا نظريا محكما أو ايديولوجية اجتماعية واضحة

(٤٦) للأسف لم نستطع معرفته تاريخ صدور « معركة الاسلام والرأسمالية » على وجه التحديد ولكنه يبدو أنه سابق على « الاسلام العالى والاسلام » طبقا للطبعة الثانية « للعدالة الاجتماعية فى الاسلام » التى تعلن أن معركة الاسلام والرأسمالية قد صدر وتعلن عن قرب صدور « السلام العالى والاسلام » . ويؤيد ذلك أيضا بروز الحاكمية أكثر فى السلام العالى والاسلام التى تكشف عن بداية الصراع بين الثورة والاخوان . أما الهامش الذى يشير الى « السلام العالى والاسلام » فى « معركة الاسلام والرأسمالية » (ص ٨٨) فالارجح أنه من الناشر . أما « دراسات اسلامية » فانها مقالات كتب معظمها فى ١٩٥٢ وبداية الاعلان عن الاخوان وفكرهم فى مواجهة الثورة وبداية الشكوك بين الاثنين .

المعالم • ويستشهد بالمعاصرين ودراساتهم في الملكية والعدالة (٤٧) ولكنه في نفس الوقت يحاول تأصيل العدالة الاجتماعية في التراث القديم فيجدها مثلا في المصالح المرسله • وينقد الطوفى لتقديمه المصالح المرسله على النص على عكس الشافعية الذين لا يأخذون بالمصالح المرسله والحنفية الذين يأخذون بالاستحسان مع القياس ويصف الملكية بالاعتدال لانهم يجمعون بين المصلحة والنص • كما يستشهد بالمستشرقين المنصفين للاسلام المتجردين عن الهوى والضعيفة وبعض المفكرين الغربيين الذى تحولوا الى الاسلام أو الذين بقوا على دينهم ولكنهم اعجبوا به وأنصفوه •

ومع ذلك فانه ينقد الغرب • ينقد مناهج التاريخ الغربية التى تنفى أثر العوامل الروحية فى الزمن والتى تعتبر أوروبا هى المحرك لخط الزمن لان الاسلام يفسر التاريخ بالعقيدة والنشاط والحركة ويعتبر الانسانية جمعاء ميدان التاريخ والامة الاسلامية فى مركزه • لذلك ارتبطت العدالة الاجتماعية لديه بفلسفة التاريخ وتقدم الامة الاسلامية وانهاى الغرب قديما ممثلا فى الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ، وحديثا ممثلا فى المعسكرين الشرقى والغربى أى النظامين الشيوعى والرأسمالى • والغرب له حالة خاصة قد حدثت فيه فجوة بين الدين والعلم ، بين الكنيسة والفكر نظرا لطبيعة الدين المسيحى ومساره فى التاريخ الاوروبى • فالدين كان مخدرا للشعوب فى أوروبا « وجدت

(٤٧) يذكر أعمال أبو زهرة مثل « الملكية ونظرية العقد فى الشريعة الاسلامية » .

الطبقات الكادحة التي تريد أن تصارع أن الدين لا يغذى رغبتها في الصراع ، وأن الكنيسة تتخذ منه مخدرا للكادحين فأعلنت ثورتها الكاملة على الدين وقالت عنه انه مخدر الملايين . ومن هنا كان العداء الجاهر الصريح بين الشيوعية والدين عند الشيوعيين « (٤٩) . ولكن احيانا يظهر التصور الشعبى للشيوعية عند المؤلف قائلا « حاولت الشيوعية ان تقضى على الاسرة لانها تلغى أحاسيس الاسرة وحب التملك وتضع شيوعية الثورة وملكية الدولة للأفراد ولكنها فشلت (٥٠) . كما يستشهد بالكتابات الناقدة للغرب أو التي تدل في رأى المؤلف — على انه يار قيم الغرب (٥١) . ويرفض أى تقارب بين النظام الاسلامى وى نظام في الغرب ، فلا يوجد شىء يسمى الامبراطورية الاسلامية كما يقول طه حسين في كتابه « الفتنة الكبرى — عثمان » لان النظام الاسلامى له خصائصه المميزة ولكن المزم هو اكتشاف الرصيد الروحى للاسلام .
• للاسلام

فالاسلام ليس ديناً معزولاً عن الحياة أو ينظم علاقة الانسان بربه ولكنه دين الحياة ينظم العلاقة بين الانسان والانسان . ليس الاسلام كدين مخدرا للشعوب يستغله الرأسماليون والحكام المستبدون لتتويم الطبقات الكادحة وتخدير المحرومة . وليست العبادات فيه شعائر وطقوس وأشكال ومراسيم بل أفعال يومية موجهة لحياة الفرد والجماعة .

(٤٩) العدالة الاجتماعية ص ١١ — ١٢ .

(٥٠) المصدر السابق ص ٦٢ .

(٥١) مثلا أنا فرويد ودورثى برنجهام « أطفال بلا أسر » ، الكس كرزل « الانسان ذلك المجهول » وسيرد فيما بعد سيد قطب على الاخير بالتفصيل في « الاسلام ومشكلات الحضارة » ١٩٦٢ .

ويربط سيد قطب قضية العدالة الاجتماعية في الاسلام بقضية التصور الاسلامي فيرفض أولا التراث الفلسفي القديم لان الفلسفة الاسلامية الحققة لاتلمس عند ابن سينا وابن رشد وأمثالهما ممن يطلق عليهم فلاسفة الاسلام • ففلسفة هؤلاء انما هي ظلال للفلسفة الاغريقية لا علاقة لها حقيقة بفلسفة الاسلام • وللإسلام فلسفته الاصلية الكامنة في أصوله النظرية والقرآن والحديث وفي سيرة رسوله وسننه العملية • وهذه الاصول حسب أى باحث متعمق يدرك بها فكرة الاسلام الكلية التي يصدر عنها في كل تعاليمه • يقوم النظام الاسلامي على فكرتين مستمدتين من فكرته الكلية عن الكون والحياة والانسان • وحدة الانسانية في الجنس والطبيعة والنشأة وأن الاسلام هو النظام العالمي الخالد في مستقبل البشرية (٥٢) • هذه الوحدة المطلقة المتعادلة المتناسقة هو أساس التكافل العام بين الافراد والجماعات والتي تجعل الاسلام يسير في تحقيق العدالة الاجتماعية مراعيًا العناصر الاساسية في الفطرة الانسانية غير متجاهل كذلك للطاقة البشرية (٥٣) • لذلك يعنى التوحيد الاسلامي ثلاثة مبادئ : التحرر الوجداني ، المساواة الانسانية ، والتكافل الاجتماعي • « والتكافل الاجتماعي أشمل وأعم من الضمان الاجتماعي المالى كاعانة من الدولة والذي هو جزء من التكافل الاجتماعي • ويعنى ان كل فرد في الكفاية المادية عن طريق العمل ، واذا حدث عجز قامت الدولة بكفايته بدلا عنه • ويشمل أيضا حق التعليم

(٥٢) وهنا يعد المؤلف بتقديم بحث كامل عن « فكرة الاسلام عن الكون والحياة والانسان » وقد صدر بالفعل بعد عشر سنوات تقريبا بعنوان « خصائص التصور الاسلامي ومقوماته » العدالة الاجتماعية « ص ٢٤٧ •

(٥٣) المصدر السابق ص ٢٩ •

والتقريبية وحق العمل وتمكين القادرين عليه وحق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . فالفرد جزء من المجتمع وليس عالة عليه « (٥٤) . ان شهادة ان لا اله الا الله وهى من أخص المشاعر الاعتقادية لتعنى التحرر الوجدانى من كل عبودية لعبادة . هذا التحرر الذى هو الخطوة الاساسية لتحقيق مجتمع صالح كريم . الكل فيه متساوون(٥٥) . فالشهادة هنا لا تعنى الحاكمية بقدر ما تعنى تحرر الضمير البشرى « لقد بدأ الاسلام بتحرر الضمير البشرى من عبادة أحد غير الله ، ومن الخضوع لاحد غير الله . فما لاحد عليه غير الله من سلطان . وما من أحد يرزقه من شىء فى الارض ولا فى السماء الا الله ، وليس بينه وبين الله وسيط ولا شفيع ، والله وحده هو الذى يستطيع ، والكل سواء عبيد لا يملكون لانفسهم ولا لغيرهم شيئاً(٥٦) . ولكن لم تظهر الحاكمية فى « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » بل ظهر التوحيد كثورة اجتماعية على الواقع بدافع من الواقع أكثر من كونه بدافع من الفكر ، وبياعت مادى أكثر من كونه بدافع تصورى ، وبشعور اجتماعى أكثر من كونه بشعور دينى . ولكن تظهـر صورة الطريق فى آخر الكتاب « فى مفترق الطرق » (٥٧) . كما يهدى الكتاب الى الفتية الذين المحهم فى خيالهم قادمين ، يجاهدون فى الله بأموالهم

(٥٤) سيد قطب : الرسالة الاسلامية والضمان الاجتماعى ، فى التاريخ فكرة ومنهاج ص ٣ - ٣٦ وهى مقال من أوائل الخمسينات فتره « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » .

(٥٥) المصدر السابق ص ١٣ .

(٥٦) المصدر السابق ص ٣٦ .

(٥٧) المصدر السابق ص ٢٦٣ - ٢٦٧ .

وأنفسهم مؤمنين في قراراتهم ان العزة لله ولرسوله وللمؤمنين * الى أولئك الفتية الذين لا أشك لحظة في أن روح الاسلام القوية ستبعثهم من ماضى الاجيال الى مقبل الاجيال في يوم قريب ، جد قريب (٥٨) * وهم الذين أصبحوا فيما بعد الجيل القرآنى الجديد *

وتبلغ قيمة الالتزام الاجتماعى عند سيد قطب في « معركة الاسلام والرأسمالية » * فالصلة بينهما صلة حركة وصراع وتناقض ، لا حياة لاحدهما الا بقاء الآخر * وقد وقع الاختيار على الرأسمالية كأحد طرفى الصراع وليس على الشيوعية لان الخطر الدايم الذى يغزو مصر والعالم الاسلامى لايزال هو نهب الرأسمالية وعملائها لثروات المسلمين بك أنه يسخر من اتهام كل من يناهض الرأسمالية بالشيوعية * صدر فى أوائل الخمسينات ابان الثورة المصرية قبلها وبعدها مما يدل على نضج الثورة الاجتماعية فى هذه الفترة * ولايعتمد على النصوص الدينية كثيرا ولكنه يبدأ بالاوضاع الاجتماعية وبلغة الارقام والاحصاء لان المواعظ والخطب والآيات لن تغير شيئا * ويطلق صيحة للنذير ويشير الى المخاطر التى تواجه الامة جراء الاوضاع الاجتماعية حيث تتمايز طبقتان : الاغنياء والفقراء * وصدر الكتاب بآية « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسدوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (٥٩) * صحيح أن الحماس والخطابة يغلب عليه

(٥٨) المصدر السابق ص ٣ .

(٥٩) معركة الاسلام الرأسمالية ص ٤ . كذلك صدر الامام الخومينى كتابه : الحكومة الاسلامية بآية « ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهليا اذلة وكذلك يفعلون » ، النحل : ٢٤ .

ولكن ذلك يرجع الى أنه موجه توجيهها مباشر، لجمهور الامة حتى تعى واقعها ، وتدرئ من المسئول عن ذلكا وفقرها وبؤسها • ان صوتا سيرتفع بعد ذلك كله ولن يمكن اسكاته أبدا ، صوت المعدات الخاوية التي تملأ جنبات هذا الوادى صوت الملايين التي تبذل الوقت والدماء ، صوت الواقع، لا بد لهذا الوضع أن يثور • «ان الذين يعملون في هذا البلد هم الذين يجوعون أعنى الذين يعملون أعمالا شريفة لا تدخل في قائمة السرقة والاختلاس والغش والتدليس والارتشاء واستغلال النفوذ وتجارة الرقيق الابيض والخيانة الوطنية (٦٠) • ان هذه الاوضاع الاجتماعية القائمة هي التي تدفع بالناس دفعا الى أحضان الشيوعه وبخاصة ذلك الجيل الناشئ من الشبان الابرياء • ولا يمكن أن تصح دعوة خلقية أو دينية لملايين الجياع • فالمعدات الجائعة لاتفهم المنطق بل أن الاوضاع الاجتماعية هي التي تفسر الخلق والضمير •

فما الحل ؟ فريق يهتف بالاشتراكية ، وفريق يحلم بالشيوعية ، وفريق يدعو الى الاسلام ، وهو وضع طبيعى من بيئة طبيعية في موقف محاصر بين المذاهب السياسية المعاصرة غربية وشرقية ، قديمة وحديثة • ولكن بالرغم مما يتمتع به الغرب من حرية التفكير والتعبير وبالرغم مما يسوده مجتمعاته من احتكار واستغلال وأثارة وانحلال فان المجتمعات لاتتغير عن طريق التقليد للغرب وهو المعادى لكل ماهو اسلامى أو شرقى (٦١) • ولكن فى الاسلام خلاص من التقليد أو الاستجداء أو الاستيراد من وراء الحدود • الاسلام صاحب لنا وصديق الفناء منذ أربعمائه والى الف عام • الاسلام حجة قوية ضد

(٦٠) المصدر السابق ص ١٧ — ١٨ •

(٦١) المصدر السابق ص ٣٣ •

الرأسمالية المستغلة وضد من يريدون استبعاده من معركة العدالة الاجتماعية (الشيوعيون) ومن المحترفين من رجال الدين وفقهاء السلطان . الغرب والشرق كلاهما ضد المسلمين فكرا وواقعا ، وعقيدة وأرضا وكما هو واضح في فلسطين ، والاسلام يكون كتلة ثالثة مستقلة بالاسلام . فاذا كانت مشاكلنا أربعة : سوء توزيع الملكيات والثروات ومشكلة العمل والاجور ، وعدم تكافؤ الفرص ، وفساد جهاز العمل وضعف الانتاج فان الاسلام يحلها جميعا باعادة توزيع الملكيات والثروات وحق الدولة في التأميم ومصادرة رأس المال المستغل وفرض الضرائب على الاغنياء واعتبار الاسلام أن العمل وحده مصدر القيمة وأن الناس متساوون وان الانسان خليفة الله في الارض سخر الله له كل شيء في الكون . فالاسلام نظام عدل من الشيوعية وأطهر وأشمل : أعادل لانه لايمس الملكية الفردية الا عند الاقتضاء ، وأطهر لانه يضمن بسذل أقصى الطاقة من الافراد في الانتاج ، واشمل لانه يعد الفرد للمجتمع ويعد المجتمع للافراد (٦٢) . الاسلام عدو التبطل باسم العبادة والتدين ويمنح المسلمين الذاتية والشخصية .

ان الاوضاع الاجتماعية القائمة مناقضة في جملتها وتفصيلها لروح الدين كله . ولكن المشكلة هم رجال الدين المحترفون الذين يؤولون الدين ليساندوا هذه الاوضاع الاجتماعية ارضاء للحكام وافتراء على الدين . « ان الاسلام ليصرخ في وجه الظلم الاجتماعى والاسترقاق الاقطاعى ويمد المكافحين لهذه الاوضاع بقوة ضخمة للكفاح والصراع . وما من وضع اجتماعى هو أبعد عن روح الاسلام من أوضاعنا القائمة .

وما من اثم أكبر من اثم الذين يدينون بدين الاسلام ثم يقبلون مثل هذه الاوضاع أو يبررونها باسم الاسلام ، والاسلام منها براء . ان هذه الاوضاع غير قابلة للاستمرار والبقاء ذلك انها مخالفة لروح الحضارة الانسانية بكل معنى من معانيها ، مخالفة لروح الدين بكل تأويل من تأويلاته : مخالفة لروح العصر الحاضر بكل مقتضى من مقتضياته ومن ثم فهي لاتحمل عنصرا واحدا من عناصر البقاء يملى لها في الاجل ، ويمنحها فرصة البقاء (٦٣) . لا بد للاسلام اذن ان يحكم « اذا أردنا للاسلام أن يعمل فلا بد له أن يحكم . فالاسلام لا ينزوى في المعابد أو يستكن في القلوب انما جاء ليحكم الحياة ويصوغ المجتمع لا بالوعظ والارشاد بل بالتشريع والتنظيم . لا اسلام بلا حكم ، ولا مسلمين بلا اسلام (٦٤) . الحاكمة هنا تعنى اذن الاسلام للحكم وليس الحاكمة لله على عكس اعطاء يوم الاحد للكنيسة وللدنيا باقى أيام الاسبوع . فعقيدة الاسلام لا يمكن أن تتحقق بذاتها في واقع الحياة مالم تتمثل في نظام اجتماعى معين . العقيدة هى التى تخلص الامة دون الوطنية أو العدالة الاجتماعية اللتان تتحققان تلقائيا من خلال الاسلام . ويحدث ذلك دون حاجة الى هيئة كبار العلماء بل من خلال تحول العقيدة الى طاقة وحركة وتغير وتطور .

ومع ذلك تلقى الشبهات حول الاسلام من الابرياء الجهال الذين يبهرهم مقاليد الحكم أو مناصب الافتاء . فيقال ان الحكم الاسلامى يعنى بدائية الحكم وشظف البداوة . والحقيقة أن هناك فرقا بين النشأة

(٦٣) المصدر السابق ص ٢٢ .

(٦٤) المصدر السابق ص ٦٢ .

التاريخية للإسلام وافقه الاسلامى المتجدد المتطور . يقال أنه حكم المشايخ والدرأويش ! والحقيقة انه حكم يقوم على الشورى « فالحاكم فى الاسلام يتلقى الحكم من مصدر واحد هو ارادة المحكومين . فالبيعة الاختيارية هى الطريق الوحيد لتلقى الحكم ، والواقع التاريخي قسام على هذا المبدأ « (٦٥) . فالحاكمة للبشر ومصدرها من البشر . وخلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى قامت على أساس الاختيار المطلق . ولكن عدل بنو أمية القاعدة ثم ردها الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز حتى تختاره الأمة مختارة فلا ولاية بغير شورى ورضى وقبول (٦٦) . ويقال أنه حكم الطغيان فى حين أن الرسول قد قال من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله ناكثا لعهد الله ، مخالفا لسنة رسول الله ، يعمل فى عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان على الله ان يدخله مدخله » . والاسلام يدرأ الحدود بالشبهات ، ولا يطالب الناس بواجباتهم قبل أن يعطيهم حقوقهم . ويقال أنه نظام الحریم فى حين أن المرأة فى الاسلام تعمل فى الدراسة والتجارة والحرب . ويقال أنه نظام متعصب ضد الاقليات فى حين أن المستشرقين انفسهم قد اعترفوا بانسانية الاسلام وشموله (٦٧) . وقد كانت مذابح الاقليات على يد الاثراك لاسباب سياسية وليست دينية .

(٦٥) المصدر السابق ص ٧٣ .

(٦٦) سعد الخليفة المنبر فقال « ايها الناس : انى قد ابتليت بهذا الامر عن غير رأى كان منى فيه ولا طلبه ولا مشورة من المسلمين وانى قد خلعت ما فى اعناقكم من بيعتى فاخترتوا لانفسكم » فقال الناس : قد اخترناك يا امير المؤمنين ورضيناك فلك الامر باليمن والبركة » ، المصدر السابق ص ٧٤ .

(٦٧) يستشهد سيد قطب بكتاب سير توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، واسماعيل الفراوى .

كما تظهر المداوات من الحاقدين على الاسلام : الصليبيون الجدد الذين عبر اللذبي عما في صدورهم وهو يدخل بيت المقدس في الحرب العالمية الاولى قائلا : « الان انتهت الحرب الصليبية » وأقطاب التبشير في مصر (٦٨) • هؤلاء وهؤلاء هم الذين أقاموا اسرائيل على الدين شوكة في ظهر الاسلام • واسرائيل هي الدولة العنصرية التي تقوم على الدين أول ماتتكر الشيوعية له وفي نفس الوقت وقفت تسليح اسرائيل معلنة مبادئها • ولا فرق في ذلك بين شرق وغرب • فقد خان المغرب بزعامة بريطانيا وأمريكا والمستعمرون والاستعمار الذي يقوم على تحالف دكتاتورية الحكم ورأس المال أيضا قضية فلسطين في مجلس الامن وفي حرب فلسطين ، الذين يدعون الى لفظ حكم الشريعة • وتبنى القانون الوضعي من خلال الاستعمار الثقافي (٦٩) • والحقيقة أن الاسلام يحرم على اتباعه الخضوع لحكم الاجنبي واتباع أى تشريع لايتفق مع شريعة الاسلام • والمستغلون الطغاة يريدون جعل الاسلام مجرد طقوس وشعائر « انه لاخير من الاسلام حين يكون متممة بالشفافة ، وطققة بحبات المسابح أو أدعية وتراويل أو محملا يطاف به سبعا ويسلم مقود الجمل الذي يحمله رسميا أو مولدا تطلق فيه الصواريخ أو مشيخة طرق أو نقابة اشراف تخلع فيهما الخلع وتمنح فيهما الالقاب الى آخر اجهزة التخدير التي يستغلها الطغاة والمستغلون ليلهوا بها الجماهير • فاما حين يصبح حكما جادا ينفذ شرائع الاسلام في الحكم والمال ويمنح الحقوق الانسانية والاجتماعية والقانونية لكل فرد وكل جماعة ولا يفرق بين الشعائر التعبدية

(٦٨) يذكر منهم جورجى زيدان وسلامه موسى •

(٦٩) يذكر من هؤلاء طه حسين ودعوته الى العلمانية •

والشرائع القانونية فدون هذا ويصبح الاسلام خطرا يتقى ، وكارثة تقع ، ومعركة يخوضها الطغاة والمستغلون بكل ما يملكون . هذا الاسلام لا يوافق السلطات الاستبدادية في الحكم ولا يضمن معه المستبدون في البقاء يسلطون عليه رجال الدين المحترفين الاسلام حرب على الاوضاع الظالمة والسلطات الغاشمة « (٧٠) » . والمحترفون من رجال الدين يستغلون عقول الجماهير باسم الدراويش ويقومون بوظيفة التخدير والتغريب بالجماهير الكادحة العاملة المستغلة المحرومة ، وهى وظيفة الدين في المجتمعات الاقطاعية والرأسمالية . والمستهترون والمنحلون في مصر يرون في الاسلام نظاما للقيم والتزاما بالجدية . وأخيرا الشيوعيون يشوهون صورة الحكم الاسلامى ويعملون على انقسام العالم الى كتلتين وأن عدم الانضمام الى الشرق يقوى من نفوذ الغرب . والحقيقة أن الاسلام نظام مستقل بذاته لا ينحاز الى كتلة ولا ينضم الى معسكر .

ينبغى أن تتولى الجماهير الكادحة المحرومة المغبونة قضيتها بأيديها وأن تفكر في وسائل الخلاص . ويوجه سيد قطب النداء التالى : « أيتها الجماهير : هذا هو الطريق : هذا هو الطريق : هذا هو الطريق » وهو الذى سيصبح فيما بعد فى « معالم فى الطريق » (٧١) .

أما « الاسلام العالى والاسلام » فقد ظهر فى بدايات الثورة المصرية . فقد كان موضوع السلام والحرب من موضوعات اليسار

(٧٠) معركة الاسلام والرأسمالية ص ١٠٣ .

(٧١) المصدر السابق ص ١٢٢ .

المصرى ، فالحرب اداة الاستعمار ، والاستعمار أعلى مراحل
الرأسمالية • والغرب بنظامه الرأسمالى مجتمع الحرب والعدوان •
وربما أنتقل سيد قطب انتقالا طبيعيا من الاسلام كوسيلة للسلام
الاجتماعى الى الاسلام كوسيلة السلام العالمى • يعتمد على النقل
والعقل ويبدأ ببيان ارتباط العقيدة بالحياة ثم يرتقى من سلام
الضمير الى سلام البيت الى سلام المجتمع الى سلام العالم فى
النهاية • فلا سلام فى عالم لا يتمتع فيه ضمير الفرد بالسلام • وهو
موضوع جديد لذلك لم يؤصله فى أعمال السلف وراثنا القديم •

ويغلب على الكتاب موضوعان : نقد الغرب باعتباره مجتمعا
لا يقوم على السلام وضرورة الجهاد لاقرار السلام فى الاسلام ومحو
اثار العدوان على حرية الاعتقاد • ويستعمل الواقع الاحصائى لبيان
انحلال الغرب والتصوير الواقعى للاثار الجنسية دون ما حرج (٧٢) •
ويبطل خرافة العامل الاقتصادى فى المذهب المادى ، ويشكك فى قيمة
الاصلاح الاجتماعى الذى يتم عن طريق تغيير الاوضاع الاجتماعية
والاقتصادية التى تنشأ الاختلال فى جسم المجتمع فى حين ان الاسلام
يبدأ التغيير ابتداء من ضمير الفرد • المذهب المادى الطبيعى فى الغرب

(٧٢) والبيغاوات هنا والشاردون هناك يقولون : ان هذا الضبط لابد
عُد الى « العقد النفسى » ذلك انهم لا يتخيلون صورة للمجتمع الا تلك الصورة
القدرية ، صورة الشبان الهائجين محتكين بالفتيات الفائرات ، صورة الافخاذ
والنهوض عارية بارزة ، صورة النظرات جاهرة فى العيون والشهوات ناضجة
فى الشفافة ، تدفعها كلها وتؤججها مناظر الافلام الداعرة ، وصور الصحف
المجرمة ، وأصوات المخبثين والمخنثات فى الاذاعة ، والتوجيهات الخبيثة فى كل
اجهزة التوجيه والاعلام العامة • ومن وراء ذلك كله الترف والفراغ فى جانب ،
والعوز والانحلال فى جانب ، ومن حول ذلك كله تجار الاعراض ومخانيث
القوادين « السلام العالمى والاسلام » ص ٧٩ •

والصراع الطبقي كذلك • أما المجتمع الاسلام فانه يبدأ من الجزء ومن الضمير والعقيدة التي تعطي التصور النظرى والبناء الاجتماعى •

الاسلام دين الوحدة ، والسلام فيه ينشأ من طبيعته • ولاول مرة تظهر عند سيد قطب بصورة واضحة بسيطة الالوهية على نحو عملى لتحقيق السلام العالمى وليس كتصور نظرى وبدافع داخلى محض ودون أى أثر خارجى (المودودى) ودون الخضوع لاي مؤثرات نفسية (سيكولوجية المضطهدين) كما سيحدث ذلك كله فيما بعد فى المرحلة السياسية فى « معالم فى الطريق » • فكلمة الله تعبر عن ارادته الظاهرة لنا نحن البشر : افراد الله بالالوهية ، والربوبية اعتراف بارادته ، والعبادة تسليم بحقه ، والطاعة تنفيذ لاوامره ، والدينونة التزام بخلافته فى الدنيا • فالسلام الاسلامى اذن ليس تراجعاً عن الحرب أو نفياً للصراع أو نظرة فردية تبدأ من الفرد الى المجتمع ، ومن الداخل الى الخارج على ما هو معروف فى الاخلاق الدينية الشائعة • لذلك قد تكون الحرب ضرورية لاقرار السلام ، « فهذه هى الحرب التى يقرها الاسلام لتقرير الوهية الله فى الارض ونفى غيرها من الالوهيات المدعاة ، ودفع الذين يدعون الالوهية سواء بالقول أو بالفعل ، واثبات سلطان الله فى الارض حتى يكون الدين كله لله وحتى لايتخذ الناس بعضهم بعضاً ارباباً من دون الله •• فمن وقف فى طريق هذا الخير ان يصل الى الناس كافة وحال بينهم وبينه بالقوة فهو اذن معتمد على كلمة الله وازالته عن طريق الدعوة هى اذن تحقيق لكلمة الله لا لفرض الاسلام فرضاً على الناس ولكن لمنحهم حريتهم المعروفة وخيرية

الهداية • فالاسلام لا يكره احدا على اعتناقه ولكنه يكره الذين يقفون بالقوة في طريقة ، ويفتنون الناس عنه أو يمنعونهم ابتداء من تبين الرشد من الغي عن طريق السيطرة عليهم وحرمانهم حق الاختيار • وهذه الحرب هي التي يقرها الاسلام ، ويحرض عليها تحريضا ، ويدعو رسوله ان يحرض عليهما المؤمنين ، ويحب الذين يحرضونها » • ويقول أيضا « لقد جاء الاسلام لتحقيق العدالة في الارض قاطبة ،ويقيم القسط بين البشر عامة ، العدالة بكل أنواعها : العدالة الاجتماعية والعدالة القانونية والعدالة الدولية • فمن بغى وظلم وجانب العدل فقد خالف عن كلمة الله وعلى المسلمين أن يقاتلوا لاعلاء كلمة الله وأن يردوا الشاردين عنها اليها حتى ولا امنشقوا الحسام في وجوه المسلمين الباغين • فالعدل المطلق ورد البغى والعدوان هو كلمة الله التي يجب أن تلو في كل حال وفي كل مكان ••• فأعداد القوة واجب ، واجب ليكون في هذه الارض سلطة عليا ترد الشاردين عن الحق اليه وتقف الطغاة عن البغى والعدوان ، وتحفظ على الأمنين امنهم وسلامتهم ، وتعز كلمة الله عن الاستخفاف والهوان وتقر سلطان الله في الارض وتقرده سبحانه بالسلطان ••• فأما حين تتحقق الحرية المنيعة فلا يصد الناس بالقوة عن كلمة الله ولايفتنون عن دينهم الذي ارتضاه لهم لله نظاما شاملا للحياة وحين لانقوم في الارض سلطة تعبد الناس في الارض لارباب من دون الله وحين تتحقق العدالة الخيرة فلا يبغى بعض الناس على بعض ، ولا يستغل بعضهم رقاب بعض ، وحين يتحقق الامن للضعفاء الذين لايملكون عن أنفسهم دفاعا ويكف الباغى عن بغيه ويجنح الى السلم والمهادنة حين يتم هذا فالاسلام المالك للقوة السلم قاعدة والحرب ضرورة ، ضرورة لتقرير سلطان الله في الارض المستعدة للطوارئ يضع السيف جانبا ويدعو الى السلم فورا •••

ليتححرر الناس من العبودية لغير الله وضرورة لدفع البغى من البغاة
وتحقيق كلمة الله وعدل الله ضرورة لتحقيق خير البشرية لا خير أمة ولا
خير جنس ولا خير فرد ، ضرورة لتحقيق المثل الانسانية العليا التي
جعلها الله غاية للحياة الدنيا ، ضرورة لتأمين الناس من الضغط ، وتأمينهم
من الخوف ، وتأمينهم من الظالم ، وتأمينهم من الضر ، ضرورة لتحقيق
العدل المطلق في الارض فتصبح اذن كلمة الله هي العليا (٧٤) . مهمة
الاسلام اذن هو التحرر من سلطان الطواغيت ، ومواجهة عقيدة
الاسلام احرارا في الاختيار بغير ضغط من سلطة قاهرة تصدهم عن
هدى الله وتقف لهم بالقوة دون الاستجابة للهداة . يقع العدوان من
الجاهلين الذين لم يسالموا محمد من قبل فيضطر الاسلام الى رد
العدوان . « حروب الاسلام انما كانت اعلاء لكلمة الله في الارض
يجعل السلطة العليا فيها للذين يفردون الله سبحانه بالالوهية وايصال
الخير الذي جاء به الاسلام للناس كافة عن طريق الرضا والاقناع
وبتحقيق العدالة والامن والسلام في ظل سلطان الله المتفرد سبحانه
بالسلطان وفي ظل هذا السلطان الذي يقرر للناس منهج حياة الناس
فيه احرار ، يختار كل فرد عقيدته بلا ضغط ولا اكراه . . . السلام الذي
يحقق كلمة الله في الارض من الحرية والعدل والامن لجميع الناس
لامجرد الكف عن الحرب بأى ثمن مهما يقع في الارض من ظلم ومن
فساد ومهما يكن في الارض من طاغوت واعتداء على سلطان الله والوهبة
الله (٧٥) . لقد أباح الاسلام للمفرد أن يقاتل ويقتل من في يده طمعه

(٧٤) المصدر السابق ص ٢٦ - ٢٩ .

(٧٥) المصدر السابق ص ٣٥ - ٣٦ .

وشرايه اذا منعه عنه وهو في حاجة ماسة اليه لانه كحق الدفاع عن الحياة • فالحرب لاتتم من أجل صورة بل من أجل مضمون •

ولما كان البشر جميعا عباد الله ، وكانت الشريعة قانون الله فكلمهم امامها سواء ويكون الحكم للقانون ، وليس للحاكم من سلطان الا في حدود القانون الالهى الذى يخضع له كما يخضع السلطان سواء والذى لايستمد من هوى الحاكم ولا هوى طبقة ولا أمة ، ولا يسن ليحقق مصلحة لحاكم أو طبقة أو أمة انما شرعه الله اله الجميع ومالك الجميع لمصلحة الجميع • والخضوع له خضوع لله لا لعبد من عباده ، والضمانات فيه للجميع لانه مشرع للجميع • وتلك ميزة قيام الدولة على شريعة الدين وقانونه • فالحرية الكاملة من كل عبودية أرضية لن تكون من البشر فلن تتحقق الكرامة المطلقة ولن تتحقق المساواة المطلقة ولن تتحقق المصالح المطلقة • ان الحاكمين سيحسون دائما بأنهم أرباب لانهم هم الذين يضعون التشريع وأن القانون سيطر دائما في مصلحة طبقة دون طبقة ولن يحقق مصالح الجميع • هناك حالة واحدة يخضع فيها الفرد للقانون وهو شاعر بعزته كاملة وحرية كاملة ومصالحته كاملة حالة استمداد التشريع كله من شريعة الله لذى لاحاكم الا هو ولا مسيطر سواء ، ولا مصلحة له في نصره طبقة على طبقة ، ولا اخضاع طبقة لطبقة • وعندئذ يطمئن الفرد الى العدل المطلق ويستريح • وعندئذ فقط يظامن الحاكم من كبريائه التى يستمدها من سلطة التشريع ويحس انه يملك شيئا الا ان ينفذ القانون الالهى الذى فرض عليه وعلى كل فرد سواء • وهذا هو التحرر الكامل الصحيح (٧١) •••

المسلمون اذن عليهم تبعة النضال اى الجهاد فى سبيل الله .
المسلمون اذن مكلفون بتبعات انسانية تجاه هذه البشرية بحكم وصايتهم
هذه عليها ووصاية كتابهم على كتبها . هم مكلفون ان يحققوا فى
الارض ذلك السلام فى الضمير والبيت والمجتمع وأسس ومبادئه من
افراد لله سبحانه بالالوهية وبالربوبية وبالحاكمية ، ومن العدل
والمساواة والحرية ، ومن ضمانات الحياة القانونية والمعيشية ومن
منع البغى وازالة الظلم وتحقيق التوازن الاجتماعى والتكافل والتعاون
وازالة أسباب الفرقة والخصام والنزاع بين الافراد وبين الجماعات
وسد الخرائع التى تدعو الى قيام الطبقات وتميزها وصراعها (٧٧) .
للحاكمية اذن مضمون اجتماعى من أجل تغيير نظم الظلم والعدوان
وتحقيق نظام العدالة والمساواة . لذلك فرض الجهاد فى سبيل الله
على المسلمين تحقيقا لاربعة أهداف : الاول حماية المؤمنين حتى لايفتنوا
عن دينهم وكف القوة عنهم بالقوة . والثانى كفالة حرية الدعوة
وازالة كل قوة طاغية فى الارض تمنع ان تصل دعوة الاسلام الى الناس
كافة . والثالث اقرار سلطان الله فى الارض ودفن المعتدين على هذا
السلطان ، أولئك الذين يدعون ان لهم حق التشريع للناس من دون الله ،
فهم يدعون بهذا حق الالوهية ويقيمون من أنفسهم أربابا مع الله
أو من دون الله . والرابع اقامة العدالة الكبرى فى الارض . وهذا
يقتنضى مكافحة ربوبية الطواغيت وحاكمتهم ، وأن يكافحوا الظلم
والبغى لا لتملك الارض واستئلال الرقاب بل لتحقيق كلمة الله فى

(٧٧) المصدر السابق ص ١٦٨ .

الأرض وتفرض ربوبية الله وحاكميته وعدله . وهذا هو الجهاد في سبيل الله لتحقيق ربوبية الله لعباده ولتكون كلمة الله هي العليا .

لقد تضمنت مبادئ الإسلام الأساسية ثورة حقيقية كاملة تعد أكبر ثورة تحريرية عرفتها البشرية ، ثورة على ربوبية العباد ، وثورة على الظلم بكل صنوفه أو أنواعه وفي كل ديارينه ومجالاته ، وثورة على النظم والحكومات والأوضاع التي تسند هذا الظلم وتستبقيه لحساب فرد على جماعة في صورة حاكم أو مستغل أو لحساب طبقة على طبقة في صورة اقطاعيين ورأسمالين وصعاليك أو لحساب دولة على دولة في صورة محتلين ومستعمرين . وما واجهته المقاومة كان لا بد من الجهاد ولنصرة الثورة وتحقيق ربوبية الله وحاكميته في الأرض واستنقاذ البشرية أفرادا وجماعات من جور الأرباب الأرضية الممثلة في الأشخاص والحكومات والنظم والأوضاع ، فالحاكمية موجهة اذن ضد نظم اجتماعية معينة هي نظم الجور وليس الى البشر ونظمهم من حيث هم بشر .

ليس هم الإسلام شراء سلام كاذب مع الدول بأن يدع هذه الدولة تقيم لرعاياها أربابا من دون الله يدعون حق الربوبية فيها ، وتحرمهم العدل القضائي والعدل الاجتماعي . فهو لاء الرعايا الذين تحكمهم تلك الدولة الظالمة أيا كان دينها وأيا كان شكلها هم ناس من البشر . والامة الإسلامية مكلفة أن ترفع عنهم الظلم وتمتعهم بالعدل ومن ثم فينصرف الجهاد الى تحقيق فكرة الثورة العالمية لا الى الحكم والسيطرة والغنم . الإسلام في جهاد دائم لا ينقطع أبدا لتحقيق كلمة الله في الأرض أى لتحقيق النظم الاصلاح الذي يقوم على مبادئه العليا في عالم الفرد والجماعة البشرية . وهو مكلف الا يهادن قوى الطاغوت على الأرض في صورة فرد أو جماعة أو طبقة أو دولة مستغلة . قوة الإسلام قوة

محررة تنطلق من الارض لتدك قواعد الظلم والاسترقاق والاستغلال دون نظر الى جنس أو لغة أو أرض أو لون ، ومنع النظام عن المسلمين أو الذميين • والاسلام يواجه قوى الطاغوت بثلاث : الاسلام أو الجزية أو القتال • فالاسلام دين الحرية والجزية والكف عن المقاومة ، والقتال الرد على المقاومة • ان الاسلام قوة تحررية تنطق في الارض لتقرر ربوية الله وحده للعباد وتحرر البشر من اغلالهم وتمنحهم الحرية والنور والكرامة دون نظر الى عنصرية او طبقية • فاذا اصطدمت هذه القوة بقوة الشر والطغيان والاستعباد كافتحت هذه القوة الشريرة وحدها مبرأة من كل غاية استعمارية أو اقتصادية • حرب الاسلام حرب التحرير البشرية ، الحرب على عبودية البشر لناس من البشر وعلى الطغيان والظلم والشطط وعلى الخرافات والاوهام والاساطير ، حرب التحرير الخالصة من الهوى والدوافع الاقتصادية والعنصرية والطبقية لاتديرها رؤوس الاموال ، ولاتبتلع الحضارات والمدنيات أو تحطم النفوس والاخلاق (٧٨) •

ولكن بدايات القطيعة مع الثورة ظهرت في « دراسات اسلامية » (٧٩) حيث يظهر محمد بن عبد الله محطما للطواغيت ، فقد تشخص الاسلام في محمد وظهرت قوته في تحطيم الطواغيت مما يدل على بدايات فكر المضطهدين ، كما هو الحال عند الشيعة تحت الحكم الاموي القسائم على تشخيص الافكار والصراع بين الحق والباطل فتحول الفكر الاسلامي

(٧٨) المصدر السابق ص ١٧١ وما بعدها ، ص ١٨٨ ، ص ١٩٦ .

(٧٩) يضم مجموعة مقالات معظمها كتب في ١٩٥٢ وليس دراسته

اكاديمية كما يوحى العنوان بل نضال ومعارك مع بدايات الحكم الجديد .

من معارك الاسلام والرأسمالية الى معارك من أجل تأكيد الاسلام وسط الدعوة الوطنية الثورية الاشتراكية الجديدة والتأكيد على نقد الغرب والشرق واستقلال الامة الاسلامية عن الكتلتين ثم ظهور الحاكمة كاقوى سلاح لتأكيد التراث ضد العواطف الوطنية والغربية الجديدة.

وقد استمرت الدعوة الاجتماعية وان كانت حدثها قد خفت احيانا وتحولت من أسسها الاجتماعية والاقتصادية الخالصة الى أسسها الخلقية . فالتربية الخلقية وسيلة لتحقيق التكافل الاجتماعى ، وهى تربية ابتداء من ضمير الفرد وليست مجرد احضار للمنفعة الى محيط الاسرة ثم الى محيط الجماعة . ومع ذلك ينشر الاخوان البرنامج الاجتماعى مع برامج الاحزاب عشية الثورة المصرية وفيه تطهير شامل كامل للحياة الملكية ومعاونيتها والاستقراطية الكاذبة ويعلنون ان الملكية الفردية فى صورتها الراهنة حرام تجعل ثلث الاراضى الصالحة للزراعة فى يد الملك وأسرته . وقد حولت دوائر التفتيش الناس فى مصر الى ارقاء ، ويطالبون بتحديد الملكية الزراعية ، ويحددون علاقة المالك بالمستأجر ويختارون نظام المزارعة فالايجار النقدى أو العينى طالما ظلم المستأجرين ، ويطالبون بتحديد الدخل ، وتقريب الفوارق بين الحد الاعلى والحد الادنى فى الاجور والمرتبات ، وضمان حد أدنى للجميع : مطعم كاف ، وملبس واقى ، مسكن مريح ، وعلاج وتعليم بالمجان ، وضمانات اجتماعية ضد المرض والعجز والشيخوخة والبطالة، فان لم تكف الزكاة أخذت الدولة فضول اموال الاغنياء فردتها على الفقراء ، ويطالبون بادخال العمال الزراعيين فى النقابات وتطبيق قوانين العمال عليهم وابعادة تكوين اتحادات العمال (٨٠) .

وفي الوقت الذي كان الاستقلال الوطني يتم عن طريق الغرب والتفاوض معه وكان التغريب منتشرًا في أذهان القادة الوطنيين القدماء أو الجدد فإن نقد الفكر الإسلامي للغرب تواصل من أجل تأكيد هوية الأمة الإسلامية واستقلالها عن الكتلتين * فالعالم الحر اسم يطلقه الاستعماريون على أنفسهم تأكيدًا لعنصريتهم ومنعًا للحرية عن غيرهم * يستغلون المؤسسات الدولية والهيئات التعليمية لاغراضهم الخاصة (٨١) * لقد طالما حاول الاستعمار ذاته القضاء على الاسلام في شتى أنحاء العالم الاسلامي * وفي نفس الوقت تدعى الدول الاوربية انها تحترم حرية الاديان * وتدعى فرنسا الحرية بالرغم من حملاتها الصليبية في الجزائر « ولقد عجز الدكتور طه حسين هو في وزارة المعارف - وهو أصدق أصدقاء فرنسا - ان يفتتح معهد المعرفى الجزائر أو حتى في طنجة التي تحكم دوليا بسبب تعصب صديقه الكبرى فرنسا » (٨٢) * وفي نفس الوقت يقال : المسلمون متعصبون لانهم يدعون الى تكوين كتلة لانقاذ العالم الاسلامي مما يقع عليهم من أبشع أنواع القهر والاضطهاد الدبنى في القرن العشرين في آسيا وأفريقيا وايقاع العالم الاسلامي في الاحلاف الاستعمارية * ولاضير من استعمال « اسلام امريكانى » يتحدث عن مزايا الشعائر وتسامح الدين والزكاة للفقراء وحوار بين الاسلام والكتلكة من أجل ابراز التعارض بين الاسلام والشيوعية *

(٨١) يضرب سيد قطب المثل باليونيسكو ، والنقطة الرابعة ، والجمعية المصرية الانجليزية ، وجمعية نادى المعلمين ، وجمعية نادى الجزيرة ، وجمعية الفلاح ، وجماعة اخوان الحرية التى أنشأها امين عثمان تأكيدًا للصدائقة المصرية الانجليزية مما يشير الى نفس الظروف التى خرج منها الضباط الاحرار الذين راح سيد قطب ضحيتهم . وينبه سيد قطب رجال العهد الجديد عدم الوقوع فى ذلك الفخ . المصدر السابق ص ١٦١ - ١٦٣ .

(٨٢) المصدر السابق ص ١٧٩ .

وتقوم الديموقراطيات الشعبية في الشرق وهى لاتحمل الا الاسم لانها تقوم على الدكتاتورية والنظم البوليسية والجاسوسية وتمنع حرية الفكر . هذا بالاضافة الى محاولة القضاء على الاسلام والمسلمين في آسيا في التركستان والقبرم وأوربا الشرقية فيمتزج في الغرب والشرق معا التعصب الدينى والتعصب العنصرى من أجل تحويل شعوب العالم الى هنود حمر أو عبيد سود . فالبشرية اليوم في مفترق الطرق ، وستحتاج فيما بعد الى « معالم في الطريق » .

وتبلغ قيمة هذه الفترة أيضا في تصور الاسلام على أنه ثورة تحريرية كبرى في وقت اندلعت فيه الثورة المصرية ومحاولة الفكر الاسلامى تمثلها وتجاوزها . فقد حطم الاسلام الطواغيت كلها . في الضمير وفي الواقع . كان الاسلام ثورة تحريرية كاملة للانسانية شملت كل نواحي الحياة الانسانية . كان ثورة على طاغوت الشرك في عالم العقيدة ، وثورة على طاغوت التعصب العنصرى ضد الجنس واللون وأعلن وحدة الاصل الانسانى ووحدة الجنس البشرى ، وثورة ضد طاغوت التعصب الدينى معلنا حرية الاعتقاد ، وثورة على طاغوت التفرقة الاجتماعية والنظام الطبقي في مجتمع كان يفتخر بالانساب والاشراف ، وثورة على طاغوت الظلم والبعى والظلمان جردت المحكام والسلاطين من كل امتياز وسلطان لانها ردت الامر كله لله في التشريع ورددت الامر كله الى الامة في اختيار من يقوم على تنفيذ التشريع . ان انتزاع حق التشريع من البشر ورده الى الله وحده سبحانه لم يبق لواحد من البشر أو اجماعة أو طبقة أى مجال للتحكم في الآخرين ولا أى منفذ يعطو به فرد على فرد أو فرد على جماعة أو طبقة على طبقة . ان الحاكمية لله سبحانه وليس لغيره ان يشرع الا استمدادا من

شريعته ، والله رب الجميع • وأذن فلن تكون في تشريعه محاباة لفرد أو جماعة أو طبقة • ولن يحس أحد انه حين ينفذ القانون خاضع لمشئته احد • انما هو خاضع لله رب الجميع ، ومن ثم تتساوى الرؤوس ، وترتفع الهامات جميعا لانها لاتعنو جميعا الا لله وحده » وأما من يقوم على تنفيذ التشريع فانه لا يشرع بل ينفذ • وهو يستمد حقه في القيام على التنفيذ من اختيار الامة له • والطاعة المفروضة له ليست طاعة لشخصه انما هي طاعة لشريعة الله التي يقوم على تنفيذها ولا حق له في الطاعة حين يتعداها • فان وقع خلاف على أمر من الامور التنفيذية فالحكم فيه هو الشريعة ذاتها « (٨٣) • والاسلام ايضا ثورة على طاغوت الرجل من أجل حقوق المرأة • فالحاكمية لله اذن تعنى ثورة على الطواغيت، وتحرر للبشرية • ولا يحكم الله بذاته بل من خلال الشريعة ، والقائم عليها منفذ لها وليس مشرعا والمطيع لها مطيع للشريعة وليس مطيعا للقائم على تنفيذها فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق • « اننا ندعو الى نظام الحاكمية فيه لله وحده لا لفرد من البشر ولا لطبقة ولا لجماعة وبذلك تتحقق فيه المساواة الحقيقية ، ولا يكون لحاكم فيه حقوق زائدة على حقوق الفرد العادي من الشعب ولا تكون هناك شخصية أو شخصيات مقدسة فوق مستوى القانون • ولا تكون هناك محاكم خاصة للشعب ومحاكم خاصة للوزراء أو غير الوزراء • انما يقف فيه الحاكم الاعلى مع أى فرد من الشعب أمام القضاء بلا تمييز ولا استعلاء • اننا ندعو الى نظام يجعل لجميع المواطنين حقا عاما في الثروة العامة لان الملكية فيه اصلها للجماعة مستخلفة فيها عن الله ،

والملكية للفردية عارضة وفي حدود الانتفاع • والفضل للجماعة حين
تحتاج الى فضل الاموال « (٨٤) •

وتبدو الحاكمة في مظهرها ، السلبى رفض العبودية للبشر ،
فتظهر على أنها تحرير للروح البشرية من العبودية لغير الله من الارباب
المتفرقة من الاوهام والشبهات • « والعبودية لغير الله من الارباب
المتفرقة سواء هى العبودية للاوهام والخرافات والاساطير ، والعبودية
للشهووات والنزوات الهابطة ، كلها تتفق الطائفة البشرية في غير مايليق
بالانسان ، وكلها تصرفه عن التطلع للبناء والتعمير والانشاء وكلها تصده
عن النهوض بتكاليف الحياة الكريمة التى ارادها الله لبنى الانسان ...
وليس هنالك اختلاف ظاهرى بين اوضاعنا الحاضرة والاضاع التى
كانت مع عهد الرسول من هذه الوجهة ، وأن خيل الى البعض ان الدعوة
الى تحرير البشر من عبودية الارباب المتفرقة لا موضع لها اليوم
ولا ضرورة • كلا ! فان عبادة الارباب المتفرقة اليوم لا تنقص من عبادة
الارباب المتفرقة فى الجاهلية ، كل ماتغير هو نوع الارباب لاعبادة
الارباب • أما عبادة الشهووات ، وعبادة الخرافات فهما على حالهما بغير
استثناء « (٨٥) • ان البشر يدفعون ضريبة الذل ان هم عنوا الرؤوس لغير
الواحد القهار ، ويتحولون الى عبيد بمحض اختيارهم ولكن العبودية
لله هى التى تحررهم • العبودية لله هى التى تعطى البشر حرية الكلمة
والقدرة على الجهر بالحق • انه فى ذلك التصميم الحاسم على تحويل

(٨٤) المصدر السابق ص ٨١ - ٨٢ •

(٨٥) المصدر السابق ص ٧٤ - ٧٥ •

الكلمة المكتوبة الى حركة حسية والمعنى المفهوم الى دافع ملموس (٨٢) • عبارات وتلك تستخدم فيما بعد للتعبير عن التصور الاسلامي والمنفردة بين العقائد والفلسفات •

لذلك استطاع الاسلام ان يكافح الظلم وأن يقف بجانب المظلومين يصرخ في وجه الطغاة والمتجبرين • « ان الاسلام في صميمه حركة تحريرية تبدأ في ضمير الفرد وتنتهي في محيط الجماعة • وما يعمر الاسلام قلبا ثم يدعه مستسلما خاضعا لسلطان على وجه الارض الا سلطان الواحد القهار • وما يعمر الاسلام قلبا ثم يدعه صابرا ساكنا للظلم في صورة من صورة جميعا سواء وقع هذا الظلم على شخصه أو وقع على الجماعة الانسانية في أية أرض وفي ظل أى سلطان » (٨٧) • ومن هنا اتى التعارض بين الحق والباطل ، بين الاسلام واللااسلام دون أن يظهر بعد مفهوم الجاهلية • « انه اسلام أو لا اسلام • • اسلام فهو كفاح لايهدأ أو جهاد لاينقطع ، واستشهاد في سبيل الحق والعدل والمساواة أو لا اسلام • فهو اذن هممة بالادعية وطققة بالمسايح وتمتمة بالتعاون ، واتكال على ان تمطر السماء على الارض صلاحا وخيرا وحرية وعدلا • وما كانت السماء لتمطر شيئا من هذا كله ، وما كان الله ينصر قوما لا ينصرون أنفسهم ، ولا يثقون بأهلهم ، ولا ينفذون شريعته في الجهاد والكفاح » (٨٨) • وهذا هو معنى القتال لتكون كلمة الله هي العليا • « فكلمة الله هنا تعنى كذلك حرية الدعوة وحرية الاعتقاد • وكل قوة مادية تقوم في وجه هاتين الحريتين أو

(٨٦) المصدر السابق ص ١٣٨ •

(٨٧) المصدر السابق ص ٣١ •

(٨٨) المصدر السابق ص ٣٢ •

احدهما هي قوة معتدية مضادة لكأمة الله الذي كرم الانسان وجعله على نفسه بصيرة ، وجعل عقله هو الحاكم ، و ارادته هي مناط التكليف ، واعتبر الوقوف بالقوة في وجه الدعوة او استخدام القوة للاكراه على العقيدة معطلا لكلمة الله . فمن قائل كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (٨٩) . يحرم الاسلام الانضمام الى قوى الطواغيت ويحتم دفع الظالم عن البشرية . حرب الاسلام هي حرب التحرير البشرية ، حرب على عبودية البشر للبشر .

وقد تحققت هذه الثورة بالفعل بعد ان توفرت عناصر ثلاث : عدم المساومة على الحق ، وتحويل العقيدة الى حياة وحركة ابتداء من ضمير الفرد ، وتحويل الاسلام كله الى نظام شامل للحياة . فثورة الاسلام تنبع من طبيعته وليس من القائمين على تنفيذه « ولذلك اختلفت من الاسلام اسطورة فصل الدين عن الدولة لانه لا دولة بلا دين ، ولا دين بلا شريعة ونظام » (٩٠) . الاسلام عقيدة الضمير ، ينبثق منها سلوك في المجتمع ويقوم عليها نظام للحياة . نظام كامل يتناول نشاط الفرد في حياته العائلية وحياته الاجتماعية وحياته الدولية . ويحكم على علاقاته المتنوعة في تلك الميادين كلها ، ويضع الشرائع التي تنظم هذه العلاقات « . ليس في الاسلام دعوة ان ما لقيصر لقيصر وما لله لله لان الاسلام يعتبر كل شيء لله ولا يعرف قيصر الا منفذ الشريعة الله ، منظما للحياة بقانون الله .

كذلك يرفض الاسلام ادب الانحلال « الدنيا سيجارة وكاس »

(٨٩) المصدر السابق ص ٤١ .

(٩٠) المصدر السابق ص ٢٨ ، ص ٧٣ .

لانه ادب يخدر الشعوب ويستذل النفوس البشرية ويقضى منها روح الكفاح • وهو ما فعله الأمويون ليأمنوا أهل الحجاز والتاريخ يعيد نفسه • « عندئذ انطلق كتاب وشعراء وفنانون ، يسبحون بحمد الطاغية الصغير ، ويسجدون له من دون الله ويخلعون عليه من صفات الله سبحانه ما لا يجرؤ مسلم أو مسيحي على النطق به حياء من الله (٩١) • كما يرفض مواكب الفارغات الحفنة الفارغة من النسوة والمتشدقات الذين يحكون عن المرأة والبرلمان والمرأة والوزارة • والاسلام أعطى المرأة جميع حقوقها في الدراسة والعمل ، والمتجارة والقتال •

وفي نهاية المرحلة الاجتماعية نستخلص النتائج الآتية :

١ — تطور سيد قطب تطورا طبيعيا عن الادب الى الوطنية الى الاشتراكية الى اكتشاف الاسلام كوعاء حاو لكل هذه التيارات • ولو كان استمر تطوره على نحو طبيعي لانتهى الى الاشتراكية الجلمية كمرادف للاسلام ، ولاصبح من ركائز اليسار الاسلامي في مصر ومن دعائمه الاولى في العالم الاسلامي • ولكن اندلعت الثورة المصرية في ١٩٥٢ وحقت ماكان ينادى به سيد قطب من عدالة اجتماعية ومقاومة الاستعمار والصهيونية ودعوة الى تكوين كتلة ثالثة بين المعسكرين • ولكن نظرا للتخلف الحضاري وعدم استطاعة الضباط الاحرار جعل مضمونهم الثوري من داخل الاسلام ، وعجز الاخوان عن جعل قلوبهم الاسلامي قادرا على احتواء المضمون الثوري ، ونظرا للصراع على السلطة فقد كان كل فريق ضحية التصور الهرمي للعالم ظاننا ان السلطة هي اداة التغيير الاجتماعي

حدث الصدام المؤسف بين الثورة والايخوان في ١٩٥٤ * واستمر هذا الصراع على طول تاريخ الثورة وراح سيد قطب ضحية هذا الصراع فلا هو طور أفكاره الاشتراكية الاولى من خلال الممارسة السياسية الفعلية بعد ان ميعتها الثورة ولا هو استطاع تأصيلها في الاسلام نظرا لحل جماعة الاخوان المسلمين * اصبح محصورا بين دفتى الرضى مع أنه كان مؤهلا للقيام بالوحدة الوطنية وبنشاء اليسار الاسلامى الذى كان يمكن أن تلتقى عليه الثورة والايخوان (٩٢) * لم يبق من الاخوان الا التيار المحافظ الذى منه خرجت الجماعات الاسلامية مع أخذ بالتأثر لشهادتها من الثورة خاصة وأن سيد قطب كان محط الشكوك من الاخوان وكان منهم من يتهمه بالخروج على أفكار حسن البنا ، وتأثره بالاتجاهات الوطنية الاشتراكية والشيوعية *

٢ - لم تظهر الحاكمية لله الا بمعنى الحاكمية للتشريع * فالحاكم التشريعية وليس لله والحاكم يستمد سلطنه من البيعة وليس من الله * وهذه الحاكمية التشريعية ليست ضد نظم البشر كلها في ذاتها ولكنها ضد نظام بشرى واحد بعينه وهو الذى يقوم على الظلم الاجتماعى والعدوان على حرية الاعتقاد * ولا يوجد اثر أو ذكر أو استشهاد بأبى

(٩٢) كان الكثير يراجعوننى حين يرونى أكتب فى « الدعوة » ، مجلة الاخوان المسلمين ، وفى « الاشتراكية » جريدة الاشتراكيين ، وفى « اللواء الجديد » جريدة الوطنيين . وكنت أقول للجميع : اننى أخوض المعركة على صفحات الصحف جميعا تحت راية واحدة ، راية الاسلام ، ان الاسلام يكافح فى ميدان العدالة الاجتماعية الذى يكافح فيه الاشتراكيون ، وفى ميدان العدالة الوطنية والسياسية الذى كافح فيه الوطنيين ، وفى ميدان العدالة الانسانية الذى يكافح فيه الاخوان المسلمون . دراسات اسلامية ص ٩٧ .

الاعلى المودودى كما سيحدث فيما بعد وهو فى غيابات السجن •
وبالتالى لم تخرج الجماعات الاسلامية من هذه الفكرة الاولى بل من
الحاكمية لله نظرا لتشابهها معه فى الموقف النفسى « نفسية المسجين » •

٣ - بالرغم من معركة الاسلام ضد الرأسمالية وظهور الاسلام
كدين العدالة الاجتماعية الذى يدافع عن حقوق الفقراء ضد الاغنياء
الا أن بقايا التصورات الرأسمالية مازالت باقية عند سيد قطب مثل
حق الملكية الفردية وحق الارث تعبيرا عن حب الذات فى حين ان الله
هو المالك وحده وأن الانسان مستخلف فيما بين يديه • ومن هذه البقايا
تخرج الجماعات الاسلامية المعاصرة، دون تطوير للفكر الاجتماعى
الاسلامى •

٤ - بالرغم من معاداة سيد قطب للحضارة الغربية المادية وفقده
للنظم الرأسمالية والشيعوية على حد سواء وادانته للمذهب المادى
ومظاهر الانحلال والجنس فى الغرب الا ان الجماعات الاسلامية
المعاصرة قد خفت حدتها فى نقدها للغرب وزادت حدتها فى نقدها
للشرق ، فازدادت نسبة تمسب العناصر الرأسمالية فى فكرها ، وابتعدت
عن رؤية بعض مظاهر العدالة الاجتماعية فى النظم الاشتراكية حتى
رأى الغرب فيها حليفا طبيعيا له ولعدائها المستميت ضد الشيوعية
بالرغم من تحدير سيد قطب من « الاسلام الامريكاني » ، وركزت
اهتمامها على تحريم الجسد وكأن العالم يسير بالغرائر ، وكأن البشر
حيوانات ، مدفوعة بالجنس • وكلما زاد التحريم زاد الاشباع
المقلوب •

٥ - ظهر الواقع الاحصائي عند سيد قطب ولجأ الى الانظمة الاجتماعية محلا اياها كعالم اقتصاد واجتماع وسياسة وقانون وتاريخ . بل أنه نادراً في « معركة الاسلام والرأسمالية » مايعتمد على النصوص الدينية ولكن الجماعات الاسلامية المعاصرة تراجعت عن هذا المنهج واعتمدت اعتماداً كلياً على قول الله وقال الرسول ، وأصبحوا خطباء ووعاظ اكثر منهم علماء ومفكرين . وغاب التحليل الكمي للواقع واقتصروا على ترديد الشعارات العامة بلا مضمون اجتماعي للامة الاسلامية .

٦ - تظهر احيانا عند سيد قطب بدايات الثنائية المتصارعة المتعارضة التي لا واسطة بينها . فالاسلام اما أن يؤخذ كله أو يترك كله خذوا الاسلام جملة أو دعوه « (٩٢) » . وقد أصبح هذا الجدل بين الكل أو لا شيء طابعاً مميزاً لفكر الجماعات الاسلامية وسلوكها وبالتالي غاب الحوار ، وتوارى العقل ، وبرز الهوى والانفعال . غابت فكرة المراحل والاستكمال والتطوير والاحتواء .

٧ - بالرغم من نقد سيد قطب لتحويل الاسلام الى دين شعائري متممة بالشفاعة ، وتنسيج بالاصابع ، واطالة اللحى والحرص على السلام كشرعية ونظام فإن الجانب الاجتماعي عند الجماعات الاسلامية قد توارى وبرز الجانب الشعائري المظهري . توارت هذه المرحلة الاجتماعية ولم تحدث اثراً في الجماعات الاسلامية المعاصرة باستثناء بعض كتابات نظرية تقليدية عن الاقتصاد الاسلامي ، واعادة تحريم

فوائد شهادات الاستئثار ضد فتاوى الامام محمد عبده وبعض الفقهاء والمحدثين . لم يحدث تطبيق مباشر للاقتصاد الاسلامى فى حالة مصر أو الحجاز أو باكستان . فما سهل تقريظ النظريات وما أصعب تحليل الواقع وقياس المسافة الثاسعة بين النظرية والواقع . ومما يساعد على هذا التحول من الجانب الاجتماعى الى الجانب الشعائرى ماتقوم به الدولة من احتكار للقضايا الاجتماعية وتغطيتها بشعارات اسلامية مثل تطبيق الشريعة الاسلامية ، والترويج للاسلام الشعائرى فى اجنزة الاعلام ، اضافة للشريعة على واقع الظلم الاجتماعى ، والترويج للتيمم السلبية من التراث الصوفى مثل الايمان والصبر والمحبة والرضاء والتوكل ومن التراث العقائدى مثل القضاء والقدر ، وتكفير الخصوم السياسيين واتهام دعاة التغيير الاجتماعى والعدالة الاجتماعية بالكفر والالحاد ، والاحتفال بالموالد وانارة المآذن ، وبناء المساجد ، والنداء للحداثة فى أجهزة اعلام ، وبناء مجمع للاديان !

ثالثا : المرحلة الفلسفية : (١٩٥٤ - ١٩٦٢) :

تبدأ المرحلة الفلسفية نفسيا أكثر منها تاريخيا وذلك بعد أن احتكرت الثورة العمل السياسى وثامت بتنفيذ بعض مطالب العدالة الاجتماعية مثل قوانين اصلاح الزراعى وبعض المطالب السياسية مثل معاداة الاستعمار والرأسمالية والاقطاع . ولكن بعد صراع الثورة مع الاخوان ، بدأت المعركة الاجتماعية فى فكر سيد قطب فى الانحسار وبرزت تعويضا عنها وشيئا فشيئا بعض المسائل النظرية التى يلغت ذروتها فى « خصائص التصور الاسلامى ومقوماته » ، وقد

بدأ هذا الانحسار واضحا في « المستقبل لهذا الدين » ثم في « نحو مجتمع اسلامي » حيث يتجاوز الاسلام النظامين الرأسمالي والشيوعي ، ويصبح قادرا على أن يعرض نفسه كنظام مستقل . ثم بدأ العرض النظري التصوري لهذا النظام أولا في « هذا الدين » ثم في « خصائص التصور الاسلامي ومقوماته » الذي طالما وعد به والذي لم يصدر الا الجزء عن المقومات » (٩٤) .

ويغلب على هذه المرحلة أربعة موضوعات رئيسية : نقد الحضارة الغربية ، وأن المستقبل للاسلام ، وخصائص التصور الاسلامي ، واخيرا حاكمية الشريعة .

فالحضارة الغربية ليست نمطا مثاليا لكل حضارة بل هي حضارة خضعت لظروفها الخاصة ولطبيعة معطياتها الدينية خاصة المسيحية ووردود الفعل عليها . فكل دين ، وليس فقط الاسلام ، تصور للانسان والحياة والكون ينشأ منه نظام . فبعد ان اكتشفت الحضارة الاوربية بعد دينها عن الحياة ، وفصل ملكوت السموات عن ملكوت الارض ، وما به من عقائد ظنية ، وسلطة كهنوتية قام بعملية رد فعل على ذلك ولجأ الى العالم ، والعالم ، والمدة ، والطبيعة . فنشأت المادية الاوربية

(٩٤) لم نستطع للاسف رصد تاريخ الطبعات الاولى لهذه المؤلفات الاربعة . ولكن طبقا لمحمد علي قطب ظهر « هذا الدين » « المستقبل لهذا الدين » ، « نحو مجتمع اسلامي » وهو في فترة اعتقاله الاول ابتداء من ١٩٥٤ أي في منتصف الخمسينات محمد علي قطب « سيد قطب » الشهيد الاعزل « ص ١٩ - ٢٠ . أما « خصائص التصور الاسلامي ومقوماته » فيبدو أنه من أواخر الخمسينات لان « الاسلام ومشكلات الحضارة » الذي صدر ١٩٦٢ يحيل اليه .

المشهوره كتيار أساسى تقوم عليه جميع مذاهبها الاقتصادية والسياسية، والرأسمالية منها والشيوعية . آمنت الحضارة الغربية بالعلم ، هذا الاله الغربى الجديد ، الذى يقوم على تصور خاص للمادة . ثم بدأت البشرية اليوم فقد الثقة فى هذا الاله الجديد بعد ان انفلتت من قيود العقيدة التى هى عبادات جديدة مثل آلهة امريكا الجديدة : الانتاج ، المال ، اللذة ، وآلهة الماركسية الجديدة ، المادة ، الاقتصاد ، وماركس . ولم تستطع هذه الالهة الجديدة ملاً الفراغ الروحى واعطاء الثقة بالنفس وراحة الضمير فانتهت الحضارة الغربية الى الخواء التام على الرغم مما يبدو فى الظاهر من زحمة وامتلاء « ان البشرية فى حاجة اليها » (٩٥) .

وقد حدث الفصل النكد فى أوروبا بعد ان اكتشفت زيف معطياتها الدينية . فبعد ان وقع الفصل بين المسيحيين واليهود رفض المسيحيون شريعة التوراة كما رفض اليهود من قبل شريعة عيسى التى اتى بها تخفيفاً لشريعة موسى . وبعد دخول الامبراطور قسطنطين المسيحية حدث تحول عظيم فيها ، فتحولت من دين الى دنيا وتم اضطهاد الفرق المسيحية المعارضة مثل « المونوفيسية » التى كان عليها أهل مصر الذين استقبلوا العرب القائلين كمخلصين لهم من الاضطهاد الدينى والقهر السياسى . كل ذلك ادى الى وقوع الزيف فى التصور النصرانى بالاضافة الى تسلط الكنيسة على رقاب المؤمنين وتهديدهم بالطرد والحرمان

(٩٥) نحو مجتمع اسلامى ص ١١ - ١٢ ، سيد قطب ، أمريكا التى رأيت وعد باصداره فى الطبعة الثانية فى العدالة الاجتماعية فى الاسلام ويقتبس منه فقرات بالفعل فى « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٨٢ - ٨٧ عن مشاهداته فى مواضع الكنيسة والمجتمع والعلاقات بين الجنسين ولكن يبدو أنه لم يصدر ولم نستطع العثور عليه أو الاهتداء اليه .

م ١٥ - الحركات الدينية المعاصرة

وانذارهم بالنار هم أخذوا من طبيبات الحياة • كانت الرهبانية مضادة للفطرة والطبيعة ، واحتكرت الكنيسة تفسير الكتاب المقدس وتفسير العلم ووقع الصراع بين الاباطرة والبابوات حتى قامت الثورة المعاصرة على الدين منذ الاصلاح الدينى حتى العصر الحاضر ، ضد هذا الفصام النكد بين الدين والحياة ، وبين التصور والنظام • وثار المجددون المنتورون على مآسى رجال الدين ورذائلهم ورفضوا الدين فى رفضهم لرجال الدين وابعدوه عن الحياة فحوت الفصل النكد (٩٦) • وهى كلها ظروف خاصة بنوعية دين بعينه ومساره فى التاريخ وليس كل دين وكل مسار ، وهو مالا يعرفه المقلدون المرددون لكل ماينتجه الغرب • وان « جناية الحضارة الراهنة وسبب فسادها الاساسى ، واهدائها للقيم الانسانية والخصائص الانسانية والقومات الفردية • • يكمن فى رفضها ابتداء ان يكون للدين — بوصفه منهجا للحياة من عند الله — هذه الاختصاصات وهذا السلطان أى رفضها لالوهية الله سبحانه ، هذا الرفض المتمثل فى اتخاذ مناهج للحياة غير منهجه ولو لم تعلن رفضها لالوهية الله جهرا — كالبلاد الشيعوية — فاتخاذ مناهج من صنع البشر هو رفض لالوهية الله قطعا (٩٧) • لقد جعل الله الانسان سيد الآلة والمادة والاقتصاد وليس خاضعا لها • « فالجاهليات القديمة كانت جاهليات جهل وسذاجة وفتوة ، أما الجاهلية الحاضرة فجاهلية علم وعقيدة واستهتار (٩٨) • اكنت الجاهليات الاولى قريية من البداوة ولكن بها أخلاق البداوة أما جاهلية اليوم فعنيفة مكشوفة حرية مبتذلة خالية من القيم •

(٩٦) المستقبل لهذا الدين ، فصل الفصام النكد ص ٢٧ — ٥٤ .

(٩٧) الاسلام ومشكلات الحضارة ص ١١٨ — ١٢٠ .

(٩٨) هذا الدين ص ٩٣ — ٩٥ .

نشأت جميع الاتجاهات الاوربية مناهضة للدين من عقلية مثالية ووضعية حسية وجدلية مادية • فبعد سيادة النص أو الدين ساد العقل وتزايد الشعور بالثقة به والجرأة على الواقع والايمان بالمنافع البشرية • ثم ساد الحس للتخفيف من صورية العقل ونشأت المذاهب الوضعية • وأخيرا سادت المادية الجدلية التى عليها قامت الماركسية • هذه الاتجاهات كلها انحرافات بشرية كرد فعل على تشويه الجامع الكنسية للتصور الدينى • وانتهت الحضارة الاوربية الى نصب الهة آخرين بدل اله الكنيسة ، آلهة العقل ، والحس ، والمادة ، وهى كلها انحرافات عن التصور الربانى (٩٩) •

أما على مستوى المذاهب الاقتصادية فقد نشأت الرأسمالية على المذهب المادى وانتهت الى الاحتكار والاستغلال وكان الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية كما يقول لينين ثم جاءت الشيوعية كرد فعل طبيعى عليها منعا للاحتكار والاستغلال وهى بالتالى تمثل تقدما بالنسبة للرأسمالية ولكنها مازالت نظاما يقوم على مذهب مادى نتيجة للفصام النكد ولا يركز على عقيدة الايمان بالله بل على أدوات الانتاج التى عندما يسيطر عليها البروليتاريا تقود العالم ومهما حاولت الماركسية تغيير وتطوير نفسها فانها تتحطم ولا يبقى منها الا الدولة والنظام البوليسى (١٠٠) • جاءت الشيوعية تفسر التاريخ تفسيراً مادياً لتعطى مبادئ الثورة الفرنسية نطاقاً أوسع من الوجودية والبرجماتية ولكنها أيضاً عجزت عن ان تمد الانسانية بعقيدة وأن مدت الغرب بعقيدة تملأ

(٩٩) خصائص التصور الاسلامى ومقوماته ص ٦٨ — ٨٤ •

(١٠٠) المستقبل لهذا الدين ص ٥٨ — ٦٤ •

فراغه الروحي والفكري لدى المثقفين وتسحر طبقة العمال المستغلين « ان الشيوعية هي النهاية الطبيعية لحضارة خالية من الروح خاوية من المثل ، مجردة من الاحلام » (١٠١) . عمرها قصير ولا تجذب الا الشعوب الاوربية .

لقد أعلن كثير من مفكري الغرب نهاية دور الرجل الابيض وتتبأ رسول بانتشار الشيوعية في آسيا والعالم العربي باستثناء الهند (١٠٢) وقد يؤكد ذلك تبني الصين للمذهب الشيوعي والعالم العربي والاسلامى في الطريق اليها . ولكن سيد قطب يرى ان النبوة صحيحة في اولها وليس في اخرها . فلقد انتهى عصر الرجل الابيض بالفعل . ولم يعد يصلح لقيادة العالم . فلقد أصيب بالعمى بعهد الماجنا كارتا الانجليزية ومبادئ الثورة الفرنسية ومبادئ الحرية الفردية التى سارت فيما يسمونه بالتجربة الامريكية . ولكن يغيب منها كلها الاعتقاد بالله نتيجة للفصام النكد . وبالتالي لم تعد صالحة للبقاء لانها لاتقوم على الانسان كقيمة بل على المادة أو الانسان الضائع الهائم على وجه كما هو الحال في الوجودية . وقد شهد شاهد من أهلها ضد الحضارة المادية القائمة لقتلها أهم خصائص الانسان وأطلق فيها صيحة مدوية بالاحطار التى تهدد الجنس البشرى من جراء الاعتداء على القوانين الطبيعية التى لاتدع المعتدين عليها بلا عقوبة وأعلن جهل العلم بحقيقة الانسان بل بأبسط حقائق تكوينه الجسدى (١٠٢)

(١٠١) نحو مجتمع اسلامى ص ٢٢ .

(١٠٢) المستقبل لهذا الدين ، فصل انتهى دور الرجل الابيض ص ٥٥

٦٩ ، نحو مجتمع اسلامى ص ٢٧ - ٤٥ .

(١٠٣) المصدر السابق ص ٧٢ .

فان الحرية والاخاء والمساواة ، كانت غايات محدودة بفترة معينة من الزمن وبأفلق معينة . فكانت تعنى الحرية الشخصية فى كل ميدان ، وكانت المساواة تعنى المساواة فى الحقوق المدنية وليس فى الحقوق الاجتماعية والاقتصادية . وظل مبدأ الاخاء مسألة نظرية صرفة . ولم تعط امريكا شيئاً على مستوى المبادئ والمثل .

ويدخل نقد الحضارة الغربية ضمن اطار فلسفة التاريخ فكما ازاح الاسلام فى نشأته الامبراطوريتين القديمتين الفارسية والرومانية وشق طريقه وسطهما ثم احتواهما كذلك يكون مستقبل الاسلام فى مواجهة النظامين العالمين الحاكمين الآن الرأسمالية والشيعوية . سيزحف الاسلام عليهما حاويا اياها ووارثا نظم العالم الجديد . هناك طريق واحد للشعوب الاسلامية الآن يؤدى بها الى العزة القومية والعدالة الاجتماعية والتخلص من عقابيل الاستعمار والطغيان والفساد ، وهو طريق الاسلام والتكتل على أساسه . لقد مزق الاستعمار العالم الاسلامى وأكله فرادى وأورث بين شعوبه الاحتقاد وربطها بالعملاء شرقا وغربا ، وروح الصليبية واحدة . والتكتل الاسلامى لاي معنى التعصب بل ان الاسلام هو الضمانة الوحيدة لوقف حركة التعصب ضد المخالفين له فى العقيدة . وتظهر صورة الطريق بقوة « انه طريق وحيد ، طريق الكرامة ، وطريق المصلحة ، وطريق الدنيا ، وطريق الآخرة . أنه الطريق الى الله فى السماء والى الخير فى الارض ، والى النصر والعزة والاستعلاء أنه هو الطريق » (١٠٤) .

لقد كان يمكن لاوروبا ان تستفيد قديما من فكرة الاسلام وأن

تستمتع بتجارة لولا أنها وقفت له بالمرصاد أبان المد الاول عندما وصل الاسلام الى حدود البرانس ثم ساقها التعصب الى طرده من الاندلس . ومع ذلك فالبشرية جائرة على الاسلام من جديد بالرغم من دعاسة التغريب في حياة المسلمين « ان الاسلام بالذات كان ثورة تحريرية حررت الفكر كما حررت الروح . حررت الفكر من الوهم والخرافة ووجهته الى تنزيه الحياة في الارض دون تخوف من الطبيعة التي عقدت بينه وبينها اواصر الصداقة والقربى وصورتها له عرضا مساعدا لاعدوا مناوئا . وحررت الروح من الهبوط والتردى وأطلقتته يرتاد الآفاق العنينا وجذب الحياة كلها اليها . لذلك نمت الحياة في ظله نموا سريعا » (١٠٥) . وقد فتح الاسلام الامصار باسم هذه الثورة التحريرية القائمة على العدل والحرية . وعندما ماينتهى الصراع بين الشيوعية والرأسمالية عندئذ يبدأ الصراع بين الفكرة الانسانية التي يمثلها الاسلام والفكرة المادية التي تمثلها الشيوعية والرأسمالية على الرغم مما يوحى الاستعمار بما بينهما من تعارض .

ان المنهج التجريبي الذي يعتز به الغرب ويفخر به لهو من نتاج الاسلام وأثره من خلال الاندلس عندما ترجم اللاتين علوم المسلمين الطبيعية القائمة على منهج التجريب المستمد ذاته من الاسلام كمنهج تجريبي ، ولقد كان الاسلام هو الذي انشأ — بطبيعة واقعية منهجية — المنهج التجريبي الذي انتقل الى أوروبا من جامعات الاندلس والذي أقام عليه روجر بيكون وفرنسيس بيكون الذي سموه افتراء — أبا المنهج التجريبي — منهجها كما قرر ذلك بريفولت ودوهرنج من

الكتاب الغربيين أنفسهم (١٠٦) • ولقد استمدت أوروبا حياتها وهى جهالتها فى الاسلام ، وأقامت عليه حضارتها ، وكان ذلك أثرا مباشرا للحروب الصليبية ولقيام دولة الاندلس فى أسبانيا واستطاع أن يؤثر أكثر مما أثرت فيه المسيحية نظرا لطبيعته الايجابية وطبيعة المسيحية السلبية فقد قدم الاسلام الفكرة كما قدم ترجمتها فى الحياة الاجتماعية، قدم التصور كما قدم النظام (١٠٧) • لقد نشأت مناهج البحث العلمى فى ظل الاسلام فى جامعات الاندلس وقد اعترف روجريكون باقتباسه المنهج التجريبيى من العالم الاسلامى • والقسم الخامس من آخر كتبه الكبرى فى البصريات منقولاً عن كتاب المناظر لابن الهيثم بالاضافة الى تأثيره بابين حزم • لقد درس العربية والعلوم الاسلامية ونقل روحها الى اوربا المسيحية ثم وقفت الكنيسة امام هذا العلم الجديد فمدت الفصام النكد المشئوم وقد آمن الصليبيون من قبل بالعالم الاسلامى « وأوا شريعة يتحاكم اليها الناس حاكمهم ومحكومهم وغنيهم وفقيرهم ، مالكهم ومعدمهم ، صاحب الارض والعامل فيها على السواء شريعة ليست هى ارادة السيد صاحب اراض ، وليست هى ارادة الامير كذلك ولا السلطان ، انما هى شريعة تجيئهم جميعا من عند الله ، ويتولى الحكم بها قضاة ، طالما وقفوا بها فى وجه الامراء والسلاطين عندما كان أحدهم يهيم بظلم الرعية أفرادا أو جماعات • وقد ظهر فى هذه الفترة أئمة أهوياء وقفوا مرات فى وجه سلاطين الممالك وكان لوقفاتهم صداها الذى تتناقله الجماهير فى الوطن الاسلامى وتعرفها جموع

(١٠٦) المستقبل لهذا الدين ص ١٠٤ •

(١٠٧) الاسلام ومشكلات الحضارة ص ٣٤ •

الصلبيين الذين احتكوا بهذا المجتمع خلال قرنين من الزمان « (١٠٨) .
بل ان الليبرالية ذاتها التي يعتز بها الغرب أثر من آثار اتصالهم بالعالم
الاسلامى . ان حركة الاصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوثر وكالفن
فى أوروبا ، وحركة الاحياء التى تفتأت منها أوروبا حتى تحكيم النظام
الاقطاعى فى أوروبا والانطلاق من حكم الاشراف ، وحركة المساواة
واعلان حقوق الانسان التى تجلت فى الماچنا كارتا فى انجلترا والثورة
الفرنسية فى فرنسا وحركة المذهب التجريبيى التى قام عليها مجد
أوروبا العلمى ، وانبعثت منها الفتوحات العلمية الهائلة فى العصر الحديث
وأمثالها من الحركات الكبرى التى يحسبها الناس أصولا فى التطور
التاريخى كلها قد استحدثت من ذلك المد الإسلامى الكبير وتأثرت به
تأثرا أساسيا عميقا (١٠٩) . ان الحركات التى دعت الى افكار الاغتراف
امام القسيس والتى تدعو الى تحطيم الصور والتمثيل الدينية والتى
ترفض التمثيل كل ذلك نشأ فى أوروبا تحت أثر الاسلام .

ولكن المهم اعادة كتابة التاريخ الاسلامى دون خلط القدماء أو
تشويه المحدثين من المستشرقين واتباعهم المؤرخين المسلمين . فالتاريخ
ليس هو الحوادث بل تفسير هذه الحوادث . والتفسير لا يتم الا من
خلال مشاركة المؤرخ الوجدانية للحادثة ، وهى غائبة تماما عن الدراسات
التاريخية المعاصرة عند الغربيين . بالاضافة الى ان الباحث الغربى يعتبر
أوروبا مركز العالم ومحوره وكل ماسواها اطراف معلقة ، وذلك اسقاط
من حاضره على ماضيه ، فاوروبا لم تكن فى الماضى محور العالم ومركز

(١٠٨) المصدر السابق ص ٩٥ .

(١٠٩) هذا الدين ص ٦٧ - ٧٥ . يشهد سيد قطب بمحمد اقبال فى
تجديد الفكر الدينى عن الاسلام ومحمد فريد وجدى فى « الاسلام دين علم » .

ثقله • كما غابت النزاهة عن الباحث الاوربي نظرا لموقفه العدائى من الاسلام نظرا لذكريات له في الاندلس وفي الحروب الصليبية وفي الاستعمار الحديث (١١٠) •

يجب اذن اعادة كتابة التاريخ متجاوزين صورته في المصادر العربية القديمة كحوادث ونكات ووقائع دعايات وخرافات وأساطير وروايات متضاربة وأقوال متعارضة ومتجاوزين صورته في أعمال المستشرقين التي حاولت نقد المصادر ولكن غابت عن نتائجها النزاهة والموضوعية • هذه الدراسات التاريخية الجديدة ، تعتمد على المراجع العربية كمصادر أولى وتفسير مادتها باخضاعها الى منطق الحوادث ذاته • ولا يمكن ادراكها الا بالتجارب والتعاطف معها حتى يمكن ادراك روح العقيدة الاسلامية وطبيعة فكرته عن الانسان والكون والحياة « ولا بد من ربط هذا كله بطبيعة الفكرة الاسلامية وما فيها من روح انقلابية ثورية » • والتاريخ الاسلامى جزء من التاريخ الانسانى وتجربة شقت طريقها ضمن التجارب الانسانية الاخرى فالامام بتاريخ الحضارات القديمة وحال الجزيرة العربية قبل الاسلام وحال المجتمعات المعاصرة ضرورى لفهم التاريخ الاسلامى نشأة وتطورا فى الماضى والحاضر والمستقبل • يتحول التاريخ حينئذ الى « عملية استيعاب وتجارب فى ضمائر الاشياء والاشخاص والازمان والاحداث • ويتصل بناموس الكون ومدارج البشرية ويصبح كائنا حيا ومادة حياة • وبعد هذه المقدمات والافكار الموجهة الاساسية يمكن تقسيم التاريخ الاسلامى الى أربعة مراحل : الاسلام فى عهد الرسول ، المد الاسلامى ، انحسار

المد الإسلامي ، العالم الإسلامي اليوم » (١١١) . على هذا النحو يمكن التفرع من الرؤية الغربية لكتابة التاريخ مع اعطاء رؤية أخرى أوسع وأشمل من باحثين أقدر على التجاوب والتعاطف مع مادة التاريخ معطين نموذجا جديدا في الدراسة ، ويرسم الطريق لاعادة بعث الأمة من اعادة كتابة تاريخها (١١٢) .

ولاقامة المجتمع الإسلامي هناك أولا فرق بين الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي الاولى ثابتة لا تتغير لانها المبادئ الاساسية للدين أما الثاني فمتجدد متغير متطور طبقا للتغير وتجديد وتطور الحياة فلا ثبات دون ثبات . الاولى من صنع الله والثانية من صنع البشر . ثانيا ، ان الصورة التاريخية للمجتمع الإسلامي ليست نهائية بل تتجدد باستمرار مادامت منبثقة من التصور الإسلامي العام . وقد انبثق من الفقه الإسلامي جانبان : العبادات والمعاملات ، الاولى اكثر استقرارا وثباتا والثانية متغيرة متطورة متجددة لارتباطها بالحاجات البشرية وقد وصلت اليها العبادات متضخمة والمعاملات ضامرة لظروف المجتمع الإسلامي القديم . ولا يخرج الامر في هذه الحالة عن أربعة احتمالات : الاول أن تكون الشريعة قد نصت على حكم معين نصا صريحا وهذا

(١١١) هذه المراحل الاربعة شبيهة أيضا بمراحل اودودي الاربعة اودودي « الإسلام اليوم » .

(١١٢) تألفت جماعة مسلمية لاعادة كتابة التاريخ الإسلامي وفق هذا المنهج . وقد قسمت الجماعة حقول البحث الى المراحل التالية : مقدمات التاريخ الإسلامي ، الإسلام على عهد الرسول ، المد الإسلامي ، الانحسار الإسلامي العالم الإسلامي اليوم . والجماعة مؤلفة من الاستاذة الشبخ صادق عرجون ، والدكتور / محمد يوسف موسى ، والدكتور / عبد الحميد يونس ، والدكتور / محمد النجار ، وسيد قطب . المصدر السابق ص ٦١ .

واجب التطبيق دون تحوير أو تبديل لانه متعلق بركن أساسى من أركان المجتمع مثل تحريم الربا أو بسمه أساسية من سماته مثل الحدود أو بمبدأ تشريعى لايتغير مثل كتابة الدين المؤجل • والثانى أن تكون الشريعة قد جاءت فيه بنص قابل للتأويل ويكون حينئذ عرضه للاجتهاد والترجيح والتوفيق مع غيره من النصوص • والثالث ان تكون الشريعة قد جاءت بمبدأ عام تدخل المسألة الخاصة فيه ضمنا دون النص عليها صراحة حينئذ يكون الامر موضع اجتهاد فى تطبيق المبدأ العام على الحالات الخاصة • والرابع أن تكون الشريعة قد سكتت عن هذا الامر ويكون حينئذ متروكا للاجتهاد المطلق على الايصدم الحكم مبدأ أساسيا من مبادئ الاسلام ولا أصلا من أصول التشريع • وعلى هذا الأساس احتفظت الشريعة الاسلامية بالثبات والمرونة •

ونحن الآن امام طريقتين : أما أن نتابع خطوات الفقه الاسلامى القديم حيث وقفت ونكملها كى تملأ الفجوة الواسعة بين الماضى والحاضر واما أن نرجع الى مبادئ الشريعة ذاتها فنجد فيها تلبية لحاجات مجتمعاتنا الحالية « وهذا فى نظرى هو الطريق المعقول ان لم يكن الطريق الوحيد » • فلا خلاف بين المبدأ والواقع (١١٢) •

والمجتمع الاسلامى مخالف للمجتمعات التى عرفتھا النظم الغربية الخمسة : الشيوعية الاولى ، الرق ، والاقطاع ، والرأسمالية ، والاشتراكية وهى فى طريقها الى الشيوعية • فالمجتمع الاسلامى يقوم على شريعة المهية كاملة منذ نشأتها على عكس النظم الغربية التى نشأت وفقا لظروف تاريخية معينة • لم يصنع المجتمع الاسلامى

الشريعة بل أن الشريعة هي التي صنعت المجتمع الاسلامى بعكس التشريعات الارضية التي ولدتها مجتمعاتنا وترتكز الشريعة الاسلامية على أربعة خصائص هي التي جعلتها قادرة على أنشاء المجتمع الاسلامى • الاولى انها بالرغم من أنها من صنع اله يعرف طبيعة خلقه قد جاءت وفقا للمقومات البشرية المشتركة العامة وأصول الفطرة الثابتة الثانية انها جاءت فى صورة مبادئ كلية عامة تقبل التفريع والتطبيق فى الجزئيات المتجددة والاحوال المتغيرة • الثالثة ان هذه المبادئ العامة شاملة لكل أصول الحياة الانسانية ، الفرد والجماعة والدولة والعلاقات الدوائية وفى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية والرابعة أن المبادئ الاجتماعية التي قامت على أساسها جاءت تقدمية ، فدفعت بالبشرية الى الامام ومازالت قادرة على القيام بهذا الدور لانها باستمرار تسبق الاوضاع الاجتماعية القائمة (١١٤) •

أما النظم الاوربية الخمس فقد قامت على دراسة التاريخ الاوربى وحده لا التاريخ البشرى العلم • فالشيوعية الاولى مجرد افتراض لادليل عليه • أما عهد الرق فهناك بعض الدلائل على وجوده فى الامبراطورية الرومانية عندما انقسم الناس الى طبقتين طبقة الاحرار وطبقة العبيد ، وهذه الاخيرة كانت تؤلف ثلاثة أرباع سكان الامبراطورية مما سبب ثورات العبيد • أما نظام الاقطاع الذي انقسم فيه المجتمع الى طبقتين أيضا طبقة الملاك الذين يملكون كل شىء الارض ومن عليها وطبقة المزارعين الذين يتبعون الارض بعهولهم ونتاجهم وأشخاصهم فهو النظام الذي جاء الاسلام ليمحوه تدريجيا شيئا فشيئا ابتداء من الضمير

حتى الواقع نفسه • ثم قامت النظم الرأسمالية ترث الاقطاع بعدد أن هبأت الحروب الصليبية الاتصال بالعالم الاسلامى والتعرف على ما فيه من وسائل للانتاج واقامة مدن تجارية فى السواحل الجنوبية لاوربا وعلى سواحلها الشمالية • وقد زاد النشاط التجارى وساعد على نشأة طبقة برجورازية استثمرت اموالها بالربا والاحتكار على عكس مايقره النظام الاسلامى وان كان يقر حق الملكية والاستثمار والارث مع تقييدها بحق الجماعة الثابت • فلما اراد رأس المال مزيدا من الربح وخرج خارج حدوده وأصبح الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية، ولما رأت المجتمعات الاوربية مآسى الرأسمالية اتجهت انجلترا أولا نحو الاشتراكية وروسيا نحو الماركسية كتطور طبيعى للرأسمالية فى حين ان النظام الاسلامى وعدالته الاجتماعية نظاما ثابتا وليس تطورا طبيعيا لنظام سابق • واذا كانت الاشتراكية الاوربية مذهبا اقتصاديا بحثنا فالنظام الاسلامى قائم على تصور للحياة ينبثق منه نظام ويتصف بالشمول ويتجاوز حدود القوميات والاجناس والوطنيات المحلية • لذلك فالمجتمع الاسلامى مجتمع عالمى خال من الفترات الجنسية أو العنصرية • صراع القوميات الحاد والحروب قائمة على أساسه • لايعرف المجتمع الاسلامى الحدود الاقليمية أو التعصب الدينى ويخدم الاخوة الدينية القائمة على حرية الاعتقاد والعبادة • والجهاد الاسلامى يهدف الى تأكيد هذه الحرية ودفع الظلم والعدوان على حرية الضمير أو على الطبقات الاجتماعية المظلومة أو على الدول المستعبدة تحت « راية حماية الضعفاء من الظلم ، الظلم كافة قياما بشرريعة الله فى العدالة الانسانية بغير ماغاية سوى تحقيق كلمة الله فى سبيل الله ••• فهى الحرب لدفع الظلم والطغيان لا للاكراه على العقيدة ولاكراهية للاخرين بسبب العقيدة انما هى الوسيلة العملية لدفع الظلم واقامة

المعدل وترتيب الامن وحماية الضعفاء • وللذميين حق الدفاع عنهم مثلهم
مثل المسلمين على سواء » • ان المجتمع الاسلامى مجتمع حر مفتوح
تملك جميع العقائد والمذاهب والآراء أن تعيش فى ظله ، وليس الاكراه
عنصرا من عناصر تكوينه ولابقائه (١١٥) •

وبلغت قمة صياغة المنهج الاسلامى فى « خصائص التصور
الاسلامى » ومقوماته الذى خرج منه الجزء الاول فقط عن « خصائص »
ولم يعط الامام الشهيد الوقت الذى يخرج الجزء الثانى منه عن
« المقومات » والذى طالما وعد فى كتبه السابقة بأنه سيخرج كتابا عدد
فيه تصور الاسلام للانسان والكون والحياة » (١١٦) • وقد حاول سيد
قطب ذلك أولا فى « هذا الدين » ووصفه للاسلام على أنه منهج للبشر
فى حدود الطاقة البشرية « وهو منهج ميسر لانه منهج عملى واقعى
متفق مع الفطرة البشرية وهو منهج مؤثر يحدث تحولا فى حياة
البشر • يعتمد على رصيد الفطرة وعلى رصيد التجربة • يقوم على
خطوط مستقرة منها انه يرى الانسانية واحدة دون تفرقة عنصرية أو
قبلية أو جنسية ويراها انسانية كريمة لا يستذلها احد • ويرى الامة
واحدة لا فرق بين مذاهبها وسائر الديانات فى ذمتها » • ولا تظهر الحاكمة
كأحد خصائصه الا فى أنه منهج متفرد « والتفرد يعنى الحاكمة ،
والحاكمة تعنى العبودية ، والعبودية تشريعية أى الالتزام بالاسلام
كمنهج حياة » (١١٧) • ثم يعدد هذه الخصائص بعد ذلك بسبع : الربانية ،

(١١٥) نحو مجتمع اسلامى ، مجتمع على ٩٢ — ١٣٥ •

(١١٦) نحو مجتمع اسلامى ص ٣٢ خصائص التصور الاسلامى

ومقوماته ص ٥ •

(١١٧) هذا الدين ص ١٥ — ٣٦ •

والثبات ، والشمول ، والتوازن ، والايجابية ، والواقعية ، والتوحيد • وتظهر المحاكمية في الخاصتين الاولى والسابعة ، والربانية والتوحيد دون أى أثر لابي الاعلى المودودي كرافد خارجي • وقد كان يهدف كله الى بيان حقيقة الالهية وحقيقة العبودية • فالربانية لاتشير الى المحاكمية بل الى مجرد أن الشريعة من التنزيل في مقابل النظم الوضعية ، والالهية مجرد دفاع عن الله كتصور في مواجهة الغرب ضمنا • والحقيقة ان كل هذه الخصائص في معظمها قد تمت صياغتها ضد الحضارة الغربية فالربانية ضد المذاهب الانسانية الفلسفية الغربية ، والثبات ضد نظريات التطور والتوازن ضد تطرف المذاهب الفلسفية وارتكازها على طرف واحد ، والايجابية ضد سلبية الهة الفلاسفة ومثالياتهم والواقعية ضد خيال الفلاسفة والادباء •

ونقد سيد قطب التصورات الاسلامية في تراثنا القديم في الكلام والفلسفة والفقہ والتفسير • فالسلطة معرفة باردة تابعة لارسطو توفق بينه وبين الاسلام • لغتها سقيمة ولاشأن لها بالمشاكل الواقعية للعالم الاسلامي • أما الكلام فليس أفضل من الفلسفة بل تابع لها وتابع مباحثه اللاهوتية المينافيزيقية الوافدة من اليونان ومن المسيحية • اما الفقه فان قسمته الى عبادات ومعاملات قسمة متأخرة لاسباب فنية أولا ثم تحولت الى أحد مظاهر التأخر • فالاسلام ليس فيه عبادات منفصلة عن المعاملات • أما التفسير فانه ابتعد عن بساطة القرآن ووضوحه • وبالتالي فانه يمكن العودة الان الى القرآن مباشرة ورؤية واقع المسلمين من خلاله دون حاجة الى عشرات المجلدات المتوسطة من علم التفسير (١١٨) •

وفي هذه المرحلة يظهر المودودي وتظهر الاشارات اليه في نقد الغرب أولا وفي الحاكمة ثانيا • وقد عرفه سيد قطب كناقد للغرب قبل ان يعرفه كمنظر للحاكمة • كما عرفه عن طريق أبى الحسن الندوى في كتابه المشهور « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » الذى كان انجيل المصلحين في الخمسينات قبل ان يعرفه مباشرة في « المصطلحات الاربعة في القرآن » أو في « الحجاب » •

وينقل تحليلاته لاوضاع الرجل بالمرأة في المجتمع الاسلامى أو في المجتمع الجاهلى (١١٩) • ويقتبس منه فقرات طويلة للاستشهاد به في علاقة الرجل بالمرأة في الاسلام ليس فقط من حيث الاتصال الجسدى بل أيضا القرابة الروحية • والمصطلحات الاربعة في القرآن هي : العبادة ، الاله ، الرب ، الدين • ويشير مرة أخرى في « خصائص التصور الاسلامى ومقوماته » الى رسالة المودودى « شهادة الحق » دون حاكمة (١٢٠) •

ص ٢٣١ كأنها هذا الرجل الفاضل العميق النافذ يصف ماتقوم به صحافة وكتاب وقصة واجهزة توجيهية كثيرة في بلادنا في الأدب وأصرار — الاسلام ومشكلات الحضارة ص ١٧٤ اقرأ هذا ، وأقرأ صفحات المرأة في صحافتنا كلها فأجد كأنها الرجل يصف ما عندنا لا ماهو واقع في ذلك العالم الراسمالي « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ١٤٧ •

(١١٩) يشير سيد قطب الى المودودى نقلا عن كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لابي الحسن الندوى » الاسلام ومشكلات الحضارة ص ٥٦ — ٥٧ ، ص ٦٩ — ٧٤ ، ص ١٤٢ — ١٥٣ •

(١٢٠) خصائص التصور الاسلامى ومقوماته ص ٨٦ •

ويبدو الانتقال من «المجتمع» الى «التصور» في « المستقبل لهذا الدين » فلا يوجد مجتمع لا يقوم على تصور ، ولا يوجد تصور لا ينشأ مجتمعا . الاسلام منهج حياة ، عقيدة ينبع منها تصور ، وتصور يخرج منه نظام . وهذا الدين ليس مجرد عقيدة وجدانية منعزلة عن واقع الحياة البشرية في كل مجالاتها الواقعية وليس مجرد شعائر تعبدية يؤدونها المؤمنون بهذا الدين فرادى أو مجتمعين فتكون لهم صفة هذا الدين ، وليس مجرد طريق الى الآخرة لتحقيق الفردوس الاخرى بينما هناك طريق آخر وطرق أخرى لتحقيق الفردوس الارضى غير منهج الدين وتنظيمات الدين (١٢١) .

هذه الخاصية الاولى للاسلام الشمول والمهيمنة التي اقلقت الاستعمار والصهيونية حتى افلح اثنتورث في الغاء الخلافة وفصل الدين عن الدولة وعلان تركيا دولة علمانية خالصة ، ومحاولات دول أخرى بعد وقوعها في قبضة الاستعمار « زحزحة الشريعة الاسلامية من أن تكون المصدر الوحيد للتشريع والاستمداد من التشريع الاوربي وحصر الشريعة في ذلك الركن الضيق المسدود ، ركن سموه « الاحوال الشخصية » (١٢٢) .

ان ما يميز المجتمع الاسلامى هو قيامه على « قاعدة المنهج الربانى ، الصادر عن علم (بدل الجهل) وكمال (بدل النقص) وقدره (بدل الضعف) وحكمة (بدل الهوى) القائم على أساس اخراج البشر

• (١٢١) المستقبل لهذا الدين ص ٤

• (١٢٢) المصدر السابق ص ٦

من عبادة العباد الى عبادة الله وحده دون سواه (١٢٣) . فالحاكمية هنا للنظام والتشيعه وليس لله في ذاته . « ان مفرق الطريق بين منهج هذا الدين وسائر المناهج غيره ان الناس في نظام الحياة الاسلامى يعبدون الها واحدا ، يفردونهم — سبحانه — بالالوهية والربوبية والقوامة — بكل مقومات القوامة فينتلقون منه وحده التصورات والقيم والموازن والانظمة والشرائع والقوانين ، والتوجيهات والاخلاق والاداب بينما هم في سائر النظم يعبدون الهة وأربابا متفرقة يجعلون لها القوامة عليهم من دون الله حين يتلقون التصورات والقيم والموازن والانظمة والشرائع والقوانين والتوجيهات والاداب والاخلاق من بشر مثلهم فيجعلونهم بهذا الملتقى أربابا ، ويمنحونهم حقوق الالوهية والربوبية والقوامة عليهم ، وهم مثلهم بشر ، عبيد كما أنهم عبيد » (١٢٤) . واتباع التشريع هو معنى عبادة الله وليس مجرد الشعائر والطقوس سوى ذلك من نظم وشرائع لا تنتج عن الالوهية هي النظم الجاهلية . « ونحن نسمى هذه النظم التي يتعبد الناس فيها الناس كما يسميها الله سبحانه وتعالى نظما جاهلية مهما تعددت اشكالها وبيئاتها وازمانها فهي قائمة على ذات الاساس الذى جاء هذا الدين يوم جاء ليحطمه وليحرر البشر منه وليقيم في الارض الوهية واحدة للناس وليطلقهم من عبادة العباد الى عبادة الله وحده بالمعنى الواسع المشامل لمفهوم العبادة ومفهوم الاله ومفهوم الرب ومفهوم الدين » (١٢٥) . لقد جاء هذا الدين ليلغى عبودية البشر للبشر في كل صورة من الصور ، وليوحد. العبودية لله في الارض كما

(١٢٣) المصدر السابق ص ٨ .

(١٢٤) المصدر السابق ص ٨ — ٩ .

(١٢٥) المصدر السابق ص ٩ .

أنها عبودية واحدة لله في هذا الكون العريض « والناس لما أن يعيشوا بمنهج الله هذا بكليته فهم مسلمون واما أن يعيشوا بأى منهج آخر من وضع البشر ، فهم في جاهلية لا يعرفها هذا الدين ، ذات الجاهلية التي جاء هذا الدين ليحطمها وليغيرها من الاساس ليخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله « (١٢٦) • ولقد أتى الاسلام ليخرج الناس من الجاهلية الى الربانية وبكل واقعهم على شريعة الله كما بكل شمائلهم على تقوى الله (١٢٧) •

ان كل مجتمع اسلامى يقوم على مبدأ حاكمية الاسلام « وكل فقه تراء تنميته وتطويره في وضع لا يعترف ابتداء بحاكمية الاسلام هو عملية استنابات للبذور في الهواء « (١٢٨) • فالواقع دون حاكمية لا يكفى • « ان أولى بوادر الهزيمة هي اعتبار الواقع ايا كان حجمه هو الاصل الذى على شريعة الله ان تلاحقه بينما الاسلام يعتبر أن منهج الله وشريعته هي الاصل الذى ينبغى أن يفىء الناس اليه وان يتعدل الواقع ليوافقه (١٢٩) • ولقد واجه الاسلام المجتمع الجاهلى العالمى يوم جاء فعده وفق منهجه الخاص ثم دفع به الى الامام •

لذلك فالاسلام منهج منفرد يقوم على شهادة ان لا اله الا الله « ومعنى الشهادة افراد الله بالالوهية وعدم اشراك أحد من خلقه معه

(١٢٦) المصدر السابق ص ١٠ — ١١ •

(١٢٧) المصدر السابق ص ٢١ •

(١٢٨) الاسلام ومشكلات الحضارة ص ١٨٥ •

(١٢٩) المصدر السابق ص ١٩١ •

في خاصة واحدة من خصائصها ، وأولى خصائص الالهوية : حق
الحاكمية المطلقة الذي ينشأ منه حق التشريع للعباد وحق المناهج
لحياتهم وحق وضع القيم التي تقوم عليها هذه الحياة» (١٣٠) . فالشهادة
لا تقوم ولا تتحقق الا بالاعتراف بأن لله وحده حق وضع المنهج الذي
تجرى عليه الحياة البشرية والا بمحاولة تحقيق ذلك المنهج في حياة
المبشر دون سواه . وكل من ادعى لنفسه حق وضع منهج لحياة
جماعة من الناس فقد ادعى حق الالهوية عليهم دعائه أكبر خصائص
الالهوية . وكل من اقره على هذا الادعاء فقد اتخذه الها من دون الله
بالاعتراف له بأكثر خصائص الالهوية . « شهادة أن محمدا رسول الله
معناها القريب : التصديق بأن هذا المنهج الذي بلغه لنا من الله هو حقا
منهج الله للحياة البشرية ، وهو وحده المنهج الذي نحن ملزمون بمحاولة
تحقيق ذلك المنهج لتحقيقه لانفسنا صفة الاسلام التي ندعيها ، وهي
لا تتحقق الا بشهادة ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . وهذه
الشهادة لا تقوم الا بافراد الله بالالهوية افراده بحق وضع منهج
الحياة . ومحاولة تحقيق ذلك المنهج الذي جاءنا به محمد من عند الله
فالاسلام هو المنهج الوحيد الذي يحرر الانسان ويطلقه من العبودية
وبتأكيد لانسانيته وعبوديته لله بالتححرر من العبودية للناس بالعبودية
لله رب الناس » (١٣١) . وما من منهج آخر في الارض يحقق هذه
الخاصية الا الاسلام . ذلك انه بربانيته التي تفرد الله بالهوية ومن
ثم تفرد بحق الحاكمية التي تشرع للناس منهج حياتهم يجعل للناس
الها واحدا وسيدا واحدا ، ويمنع ان يكون بعضهم الها لبعض لهم حق

(١٣٠) هذا الدين ص ١٥ .

(١٣١) المصدر السابق ص ١٦ — ١٧ .

الحاكمية بعضهم على بعض ، ولهم حق السيادة بعضهم على بعض في مقابل العبودية التي يتسم بها من يقرون لهؤلاء الالهية بخصائص الالهوية وقد كانت هذه الدعوة للرسول جميعا ، افراد الله بالالهوية وانكار كل خاضية من خصائصها على غير الله من عبودية الذين يتألهون فيدعون حق وضع المناهج لحياة عباد الله • ويقرهم على هذا الادعاء من لا يؤمنون بوحداية الله (١٢٢) • لم يعبد أهل الكتاب الاحبار والرهبان انما كانوا يقرون لهم فقط بحق تشريع لهم من دون الله وبحق المناهج لحياتهم بالتشريع • وهذا هو معنى عبادتهم • فالالهوية تقتضى العبودية والعبودية تنقضى الالتزام بالتشريع والاسلام وحده هو الذى يفرد الله بالعبادة حين يفرد بالحاكمية وحق وضع المنهج لحياة الناس ، ومن ثم فهو وحده الذى يطلق الناس من العبودية لغير الله • وهو المنهج الوحيد المبرأ عن الهوى الانسانى لانه يشرع لجنس أو لشعب أو لطبقة كما هو الحال فى التشريعات التى يشرعها الفرد الحاكم أو الاسرة الحاكمة أو الطبقة الحاكمة أو الامة الحاكمة أو الجنس الحاكم •

وهذه رسالة كل دين منذ نوح حتى محمد مع اختلاف التفاصيل فى كل مرحلة « اخراج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله دون سواه ، وابطال الالهيات والربوبيات الزائفة ، ورد الالهية والربوبية الى الله دون سواه » (١٢٢) • وقد أعلن القرآن ذلك فيما يسميه سيد قطب « المفصلة » اى الفصل بين أهل الدين وأهل الجاهلية « والا يجيء هذا

(١٢٢) المصدر السابق ص ١٧ — ١٨ •

(١٢٣) المستقبل لهذا الدين ص ٢٢ •

التفسير الشامل الكامل من عند الله ، والا يقيم الحياة كله على هذا التفسير الشامل الكامل ، فهي اذن اهواء البشر وهي اذن الجاهلية انتى جاء كل دين من عند الله لاخراج الناس منها ورفعهم الى الربانية والا تكون العبودية لله وحده ممثلة في التلقى عنه في هذا كله فهي العبودية للعبيد + وقد جاء دين الله كله لتحرير العباد من عبادة العبيد « (١٣٤) • الاسلام منهج «حياة» ولا يسلم المسلم ولا يؤمن المؤمن حتى يجعل منهج الله للحياة منهجه وشريعة الله للحياة شريعته ولايتخذ من عند نفسه لحياته منهجا ولا شريعة والا ادعى لنفسه بهذا حق الالهية فكفر بالوهية الله ورفض افراد الله بالالوهية ، وكفر معه كل من يقره على ادعاء حق الالهية لنفسه بادعاء حق التشريع من دون الله واتخاذ منهج غير منهج الله للحياة (١٣٥) •

وهذا هو معنى التوحيد كأحد خواص التصور الاسلامى « هناك الوهية وعبودية ، الوهية يعتز بها الله وعبودية يشترك فيها كل من عداه وكل ما عداه • وكما يتفرد الله بالالوهية كذلك يتفرد تبعاً لهذا بكل خصائص الالهية • وكما يشترك كل حى وكل شىء بعد ذلك في العبودية كذلك يتجرد كل حى وكل شىء من خصائص الالهية » (١٣٦) • وينتج عن ذلك ان يعتقد المسلم ان لا حاكم الا الله ، الا مشرع الا الله ، والا منظم لحياة البشر وعلاقاتهم ارتباطاتهم بالكون وبالاحياء وبين

(١٣٤) المصدر السابق ص ٢٥ - ٢٦ •

(١٣٥) الاسلام ومشكلات الحضارة ص ٢٩ •

(١٣٦) خصائص التصور الاسلامى ومقوماته ص ٢١٥ •

الانسان من جنسه الا الله فيتلقى من الله وحده التوجيه والتشريع ومنهج الحياة ونظام المعيشة وقاعدة الارتباطات وميزان القيم والاعتبارات ويترتب على وحدانية الالهية والربوبية ووحدانية الفاعلية والسلطان في هذا الوجود كل مايكلفه المسلم سواء مايكلفه من شعور في الضمير أو مايكلفه من شعائر في العبادة أو مايكلفه من التزام في الشريعة (١٣٧) . بهذه العبودية يتحرر الانسان لانه يخرج من عبادة العباد الى عبادة الله برد أمر التشريع والحاكمية لله « ان الناس في جميع الانظمة التي يتولى التشريع والحاكمية فيها البشر في صورة من الصور يقعون في عبودية العباد وفي الاسلام وحده يتحررون من هذه العبودية للعباد بعبوديتهم الى عبادة الله وحده

انها اخراج من شاء الله من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ورد أمرهم الى الله وحده وافراد الله سبحانه بالالهية وخصائص الالهية والسلطان والحاكمية والتشريع هي أولى الخصائص التي لاينازع الله فيها مؤمن ولا يجزؤ على مناعته اياها الا كافر ... » (١٣٨) .

والمجتمع الاسلامى مجتمع ربانى ، نظامه ربانى قائم على العقيدة الاسلامية وفي نفس الوقت لا يحرم الانتاج بالتجارب البشرية . يقوم على العدل المطلق ، والشورى فيه أساس الحكم ويستفيد من التجارب البشرية الاجراءات التنفيذية لهذين الهدفين : العدل والشورى ، ان عقيدة التوحيد تسيطر وتؤثر على مقومات النظام الاجتماعى والاسلامى

• (١٣٧) المصدر السابق ص ٢٢٤ .

• (١٣٨) المصدر السابق ص ٢٣٥ .

للفرد والجماعة والحاكم والمحكوم ، العامل وصاحب العمل ، المنتج والمستهلك ، المعطى والآخذ أى توحيد الاتجاه . ان الحاكمة فى هذا النظام الربانى لله وحده فالحاكمة فيه لا لامير ولا رعية . فالله وحده هو المشرع ابتداء . وعمل البشر هو تطبيق الشرع الالهى وتنفيذه ، وهم حتى فيما يجمعون عليه مما لم يرد منه نص يظنون مطبقين لمبادئ الاسلام لا مبدعين ولا مضيفين مبدأ جديدا لا أصل له فى الشريعة أو أن يكون مخالفا لأصل من أصولها . وهم فى الاحكام التطبيقية والتنفيذية محكومون بالمبادئ الاسياسية التى جاءت بها الشريعة غير مخيرين فى العدول عنها أى اختيار بعضها دون بعض أو فى تحويلها وهذا هو معنى آيات الحاكمة لفقهاء الامة الاستدلال واستنباط الاحكام دون أن يخرج ذلك على حدود المبادئ الاسياسية للشريعة وبذلك تظل الحاكمة لله وحده ، ويظل المجتمع الاسلامى محكوما وفق شريعته ، فاذا انحرف عن هذه القاعدة فهو يعد مجتمعا اسلاميا يحمل هذا العنوان الخاص . وهكذا نجد سمة الربانية تتحقق من توحيد الحاكمة لله . وهذه بدورها راجعة الى عقيدة التوحيد الاسلامية . بؤذه الربانية انفرد النظام الاسلامى من بين سائر النظم التى عرفتها البشرية بما فيها النظام الشيوقراطى الذى كان الحاكم يتلقى فيه سلطته اما من رجال الدين وأما من الحق الالهى ، بوصفه ظل الله فى الارض . فمعنى الربانية فى الاسلام متعلق بالنظام ذاته لا بالحاكم وسلطة الحاكم . فالحاكم فى النظام الاسلامى لا يتلقى سلطته من رجال الدين ، ولا يدعيه بحق الهى له ، أنما يستمد حقه فى تولى الحكم من البيعة الحرة كما يستمد طاعته من تنفيذ شريعة الله دون سواها وفرق كبير بين هذه القاعدة وقاعدة النظام الشيوقراطى كما عرفته أوروبا . ان الربانية فى النظام الاسلامى ربانية شريعة ونظام لربانية امراء وحكام . وقد

شرع الله تعالى للبشر بشرع بعلم كامل ويدين كامل ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير (١٢٩) •

والعبودية لله ورفض العبودية لغير الله هو عنصر الثورة في الاسلام لقد استطاع الاسلام المحافظة على الوطن الاسلامى بالرغم من كل هذه الحروب المشبوهه عليه • فقد حمى الاسلام الوطن الاسلامى فى الشرق من هجمات التتار • كما حماه فى الغرب من هجمات الصليبيين • وحين ضاع الاسلام فى الاندلس قديما وفى فلسطين حديثا ضاعت اللغة والقومية وقد حمى المماليك الاسلام دهم التتار ، ووقفوا ضد بنى جنسهم حماية للمعقيدة الاسلامية كما دافع صلاح الدين ، وهو كردى ، عن حصن الاسلام • وبقي الاسلام صامدا فى الجزائر أكثر من مائة وخمسين عاما محافظا على اللغة والقومية العربية بفضل الحركة الاسلامية التى قداها عبد الحميد بن باديس • والاسلام هو الذى دفع المهدي الى الثورة فى السودان دفاعا عن احتلال الانجليز لمصر وكذلك جاهد عثمان دنقه لنشر الاسلام فى افريقيا • والاسلام هو الذى كافح فى برقة وطرابلس الغزو الايطالى كما خرجت المقاومة من أربطة السنوسية وبجهاد عمر المختار • وفى مراكش قام الظهير البربرى بالجهاد ضد الاستعمار الفرنسى الذى اراده استعماله لرد

(١٢٩) نحو مجتمع اسلامى فصل « مجتمع ربانى » ص ١٣٦ — ١٥٢ يستهل سيد قطب حديثه عن الحاكمية بقوله « معنى آخر من معانى الربانية يشتمل على النظام الاسلامى يشار اليه هنا اشارة مجهله لانه يتعلق بنظام الحكم فى الاسلام (وسنعرض له قريبا ان شاء الله) » مما يدل على تأخر ظهور فكرة الحاكمية لديه الى المرحلة الرابعة وهى المرحلة السياسية التى تكونت فى السجن الثانى •

البربر الى الوثنية » لقد كافح الاسلام وهو اعزل لان عنصر القوة كامن في طبيعته ، كان في بساطته ووضوحه وشموله ، ملائمته للفطرة البشرية ، وتلبية حاجاتها الحقيقية كان في الاستعلاء عن العبودية بالعبودية لله رب العباد ، وفي رفض التلقى الا منه ، ورفض الخضوع الا له من دون العالمين . كان ذلك في الاستعلاء باهله على الملابس المعارضة كالموقع تحت سلطان المتسلطين . فهذا السلطان يظل خارج نطاق الضمير مهما اشتدت وطأته . ومن ثم لاتقع الهزيمة الروحية طالما عمر الاسلام القلب الضمير ، وان وقعت الهزيمة الظاهرية في بعض الاحايين « (١٤٠) . هذه العقيدة هي التي احتفظت للامة الاسلامية بحيويتها الكامنة وجعلتها قادرة على مقاومة الاستعمار وبداية نهضتها من جديد (١٤١) .

وقد تكون الحاكمة لله ولكن من خلال الانسان فالانسان خليفة الله في الارض « الانسان في التصور الاسلامي هو سيد هذه الارض وبخلافته فيها عن الله ، وكل ما فيها مسخر له بقدره الله تعالى وقد اوتى أمتى العلم بشؤونها ، هبة من الله سبحانه والاستمتاع بطبيعتها وجمالها نعمة منه خالصة . وليست الارض وحدها وكل ما فيها من احياء وأشياء ولكن كذلك السموات مهياة لمساعدة الانسان في خلافته في الارض ومراعى في بنائها دور الانسان في هذه الخلافة « (١٤٢) . الاسلام

(١٤٠) .المستقبل لهذا الدين (ص ١١٣) .

(١٤١) في التاريخ ، فكرة ومنهاج ، صحوة ليس بعدها ثبات ص ٧ —

• ١٠

(١٤٢) الاسلام ومشكلات الحضارة ص ٢٤ .

ييسلظ الانسان على عالم المادة ويسخرها له واعطائه القدرة على معرفة النواميس الكونية اللازمة له فى الخلافة واعفائه من وضع منهج لمعرفة ذاته وعون الله له بوضع هذا المنهج والزامه واتباعه (١٤٣) ، ان الابداع المادى فى هذه الارض على يد الانسان وظيفة أساسية يظهر فيه امكانياته التى أودعها الله فيه ليحقق غاية وجوده الكبرى الخلافة عن الله فى الارض « انى جاعل فى الارض خليفة » ويحقق بها العبادة عن طريق هذه الخلافة والعمل فيها باسم الله ابتغاء رضوان الله (١٤٤) •

من هذا العرض للمرحلة الفلسفية نلاحظ الآتى :

١ - ان الانتقال من المرحلة الاجتماعية الى المرحلة الفلسفية فى الخمسينيات قد تم بين جدران السجن مما يدل على غياب الممارسة السياسية والتى كانت سببا فى تحويل معركة الاسلام الاقتصادية والاجتماعية الى معركته الحضارية مع الغرب أساسا ولو كان سيد قطب حرا تطبيقا لغيابت هذه المرحلة الفلسفية ودخل الاسلام فى المعارك الفعلية • وقد تراجعت الجماعات الاسلامية المعاصرة خطوة أخرى وتحول الجانب التصورى الى عقائد ، وتحول العقل الى هوى والادراك الى انفعال • وكان سيد قطب قد تراجع هو ذاته عن محمد عبده ورشيد رضا وتلميذه الشيخ المغربى لانهم يقولون بوجود تأويل النص ليوافق مفهوم العقل وهو مبدأ أخطر (١٤٥) • ويتقوى ذلك مايسود مجتمعاتنا من اتجاهات لاعقلانية باطنية •

(١٤٣) المصدر السابق ص ٣١ •

(١٤٤) المصدر السابق ص ١٠٦ •

(١٤٥) خصائص التصور الاسلامى ومقوماته ص ٢٢ •

٢ - عدم ظهور حاكمية الله في صيغتها المحكمة الالهية . فالحاكمية في هذه المرحلة ليست لله بل للتشريع القانوني والقانون له أسسه الموضوعية في الدفاع عن مصالح الناس ، والحكم تنفيذي وليس تشريعيًا والحاكم اتى بالبيعة عن طريق الشورى . فالحاكمية هو أساس بناء المجتمع الاسلامي ، أى أنها مبدأ اجتماعي وليست مبدأ عقائديا كما سيظهر ذلك فيما بعد في المرحلة السياسية المتأخرة . وتعنى الربانية، وضعيفة الشريعة . فالجماعات الاسلامية المعاصرة لم تتأثر بسيد قطب الا في مرحلته الرابعة في آخر سنتين في حياته عندما تحولت الحاكمية لله كسلاح سياسى ضد نظام الحكم القائم تعبيراً عن صرخة المظلومين الابرياء بين جدران السجون .

٣ - تظهر الحاكمية في خصائص التصور الاسلامى مع خصائص خمسة أخرى مثل الثبات ، والشمول ، والتوازن ، والايجابية ، والواقعية . وهى بهذا المصطلح بين مصطلحي الربانية والتوحيد مما يدل عن خروجها من ثنانيا العقيدة الاسلامية وليست وافدة عليها . ولم يظهر أثر أبى الاعلى المودودى في هذه المرحلة في تصور الحاكمية ولكن في مساواة المرأة بالرجل في الاسلام وفي نقد الغرب ، ولكن تضخمت هذه الخاصية عند الجماعات الاسلامية وأصبح لها الاولوية على باقى الخصائص مثل التوازن الذى انتهى اليه التطرف أو الواقعية التى أصبحت تصلبا وتشنجا ، والايجابية التى تحولت الى تعصب وحس للظهور . وأصبحت أقرب الى الشمول والثبات .

٤ - لم تظهر في مقابل الحاكمية لله أو للشريعة الذاتية أو الانسانية بل أن سيد قطب ينقد محمد اقبال بتأكيديه على الذاتية واتهامها بالاشراقيات الصوفية العجمية التى تنتهى الى الفناء ، ورفضه تحدى

الموت واستمرار الذاتية بعده للتجربة والنماء • كما يتزعم أيضا بالوتوع تحت الاثر الغربى فى دعوته للقوة والحياة والتطور (١٤٦) •

وقد استمرت الحركات الاسلامية فى هذا التيار وانكارها الذاتية وايغالها فى التمرکز حول الله أو فى صورة الشريعة وتضحيتها بالانسان ذكرا أم أنثى • لقد رفض سيد قطب أن تكن العلوم الانسانية وريثة العلوم الدينية فى حين أن العلوم الدينية هى علوم انسانية مقلوبة لم تتحول بعد الى علوم انسانية طبيعية (١٤٧) •

٥ — لم يظهر ارتباط قوى بالثرات القديم وتأصيل التصورات الاسلامية ضد القدماء فى العلوم العقلية بل أنه هاجم الفلسفة والكلام والفقه ككل دون تمييز بين التيارات المختلفة فى كل علم واعطاء أولوية على اتجاه دون اتجاه • فابن رشد يخدم قضية سيد قطب أكثر من الفارابى وابن سينا ، والمعتزلة تؤيده أكثر من الاشاعرة ، والمالكية تؤكد واقعيته أكثر من الحقيقة • فاتهمم الفلاسفة والمنكلمين بانهم اتباع اليونان تسرع واغفال للعمليات الحضارية التى قاموا بها وتمل الحضارات القديمة لاستعمالها والرد عليها فى آن واحد • وهو نفس العيب الذى يستشرى فى الحركات الاسلامية المعاصرة التى لاتنتهى من القدماء الا الاتجاهات الحافظة •

٦ — يبدو أيضا ان هناك كثيرا من التجنى على الحضارة الغربية

(١٤٦) خصائص التصور الاسلامى ص ٢٣ — ٢٤ •

(١٤٧) هذه خلاصة معركته فى « الاسلام وهشكلات الحضارة » فى الرد على كاريل فى « الانسان ذلك المجهول » •

بالرغم من اعطاء حريات الاصلاح الدينى والتنوير والعلم حقها • الا أن ادانة ذلك كله على أنه انسانية في تعارض مع الربانية انكار للجهنم البشرى في اكتشاف زيف التراث الكنى ووضع تراث انسانى آخر بديلا عنه حتى ولو كان احادى الطرف • لقد أعتمد سيد قطب في معرفته بالتراث الغربى على مصادر مترجمة ومن نوع خاص تلك التى تهاجم الحضارة الغربية • مثل كتب العلم والايمان التى تمثل التيار الدينى المحافظ فى الغرب أو كتابات المستشرقين المنصفة للتاريخ الاسلامى فى مواجهة الغرب واهيانا على بعض التقارير الصحفية وأدب الرحلات الذى يغلب عليه المزايده فى الاخلاق والايمان • فاذا ماوضع التراث الغربى داخل اطاره فانه من الصعب نقد الغرب بالقرآن أو بأنه يجهل القرآن أو من وجهة نظر اسلامية أو مواجهته بنصوص القرآن وتقييمه بآيات الله كمسلمات أو كنتائج أو وضع الاخلاق الاسلامية فى مواجهة الانحلال الغربى أو وضع الروحية الاسلامية فى مقابل المادية الاوربية وقد سارت الحركات الاسلامية المعاصرة فى مثل هذا الرفض الاعمى لحضارة الغرب مترجمة عما بدأه الافغانى ومحمد عبده يأخذ الاسباب المقوة والعلم والمدنية • ومثل هذا الرفض للغير يشبع الحاجة الى التأكيد على هوية الذات وتحدى المغلوب للغالب خاصة اذا كان هذا الغير عدو الامس ومازال غالبا ، ومازلنا نعيش على انتاجه وابداعه •

٧ — بالرغم من ظهور فلسفة فى التاريخ لدى سيد قطب بعث الامة الاسلامية وهى فى مداها الثانى وانهيار الغرب واكتشاف واقع المسلمين الحالى فان الحركات الاسلامية المعاصرة تبدو وكأنها ككل خارج التاريخ وليس عندها الوعى الحضارى الكافى بمراحل التاريخ وتطوره، وبالتالي تخلفت عن ايجابيات سيد قطب واستمرت فى سلبياته •

رابعاً : المرحلة السياسية : (١٩٦٣ - ١٩٦٥) •

وهي المرحلة التي بدأت تتكون داخل جدران السجون والتي بلغت ذروتها باخراج « معالم على الطريق » والذي دفع حياته ثمنا له ، وهي المرحلة التي لها أبلغ الاثر على الحركات الاسلامية المعاصرة نظرا لما تحتويه من « فكر المضطهدين » ونظرا لمتشابه الظروف النفسية والاجتماعية للمفكر الراحل ولهذه الحركات (١٤٧) • لم يكد يلتئم جرح السجن طوال الخمسينيات حتى انفتح واتسع حتى تقيح في السجن الثانى فى الستينيات • فالثورة المصرية هي المسئولة عن «معالم فى الطريق» لانه لو لم يوجد سيد قطب بين جدران السجون لتطورت المرحلة الاجتماعية الى نضال ثورى ولا صبح من كبار المناضلين أمثال جيفارا وماوتسى تونج وهوشى منه والافغانى وكابوتشى والخومينى • ان الثورة المصرية هي المسئولة عن تحول « معركة الاسلام والرأسمالية » الى معركة الاسلام والجاهلية • لقد راح سيد قطب ضحية الصدام بين الاخوان والثورة فى ١٩٥٤ فلا هو استطاع تطوير « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » أو « معركة الاسلام والرأسمالية » أو « السلام السامى والاسلام » الى الايديولوجية الاسلامية الثورية التى تحفظ للعالم اصلته وتحقق ثورته ولا هو استطاع القضاء على الملكية مناهضة الاستعمار والرأسمالية والصهيونية وتحقيق العدالة الاجتماعية المثلة فى قوانين الاصلاح الزراعى القانون الاشتراكية وفى تأسيس كتلة ثالثة ، كتلة عدم الانجياز ، الشعوب الاسيوية والافريقية أو العالم الثالث •

(١٤٧) سبينا هذه المرحلة « السياسية » تجاوزا لغياب اسم أفضل وتعنى فقد الدلالة والاثر لفكر سيد قطب الاخير •

وكتاب معالم في الطريق ليس مؤلفا ذا بناء محكم ، فصول وأبواب مفصلة بل مجرد تأملات تعبر عن عذاب النفس وعزلتها في هذا العالم * يمثل تجربة روحية لسجين برىء يريد اعطاء خلاصة تجربته للأجيال القادمة . كل فصل فيها قائم بذاته أشبه بالورد الذي شراه الصوفية ولكنها هذه المرة جماعات الشباب المؤمنة (١٤٨) * وتغلب عليه العناوين الأدبية مثل « هذا هو الطريق » ، « نقلة بعيدة » أو الإيمانية مثل « استنلاء الإيمان » *

والكتاب مكون من ثلاثة عشر فصلا دون ترقيم منها أربعة مستقاه من « في ظلال القرآن » والباقي كتبت على فترات طبقا للتجارب النفسية التي مر بها المؤلف . ويعد بصدور معالم أخرى استمرارا في التعبير عن هذه التجارب (١٤٩) * والحاكمية هي الفكرة الرئيسية المسيطرة على الكتاب كله * وقد تم التركيز عليها بناء على التجربة النفسية للسجن ثم الرجوع الى الوراء واعادة قراءة كتاباته السابقة وانتقاء نصوص الحاكمية منها مع أنها كانت موجودة متناثرة من قبل داخل أفكاره الاجتماعية والفلسفية دون ان تكون بؤرة في تفكيره أو محورا لتأملاته كما حدث بعد ذلك وهو في سجنه الثاني * لاثمثل هذه المرحلة اذن فكرا

(١٤٨) لذلك طبعه طلاب كلية الهندسة بجامعة المنيا في أوراد متفرقة تم جمعها بعد ذلك في كتاب واحد . وقد صدر الكتاب حين ظهوره ثم أعيد طبعه في دمشق وبيروت ثم أخيرا في القاهرة .

(١٤٩) الفصول الأربعة هي : طبيعة المنهج القرآني ، التصور الإسلامي والثقافة ، الجهاد في سبيل الله ، نشأة المجتمع المسلم وخصائصه . معالم في الطريق ص ١٢ ، في ظلال القرآن ص ٧ ، ص ١٠٠٤ - ١٠١٦ ج ٩ ص ١٤٣١ .

واعيا شعوريا بل تمثل موقفا لاشعوريا بنساء على الظروف النفسية والاجتماعية التي عاشتها جماعة الاخوان المسلمين والتي عاشها الامام الشهيد من خلالهم • فلم تظهر فكرة الحاخمية لله ضد حاكمة البشر أو الاسلام ضد الجاهلية في المرحلة الادبية التي بدأ فيها وعيه الفنى والادبى والوطنى • ولم تظهر أيضا في المرحلة الاجتماعية التي تطور فيها وعيه الاول الى وعى اجتماعى الا فى أقت الحدود • وتعنى حاكمة التشريع من أجل اقامة مجتمع اسلامى يقوم على العدالة والحرية والاستقلال الوطنى • ولم تظهر ثالثا في المرحلة الفلسفية الا كجزء من تصور اسلامى عام يقيم مجتمعا على الربانية والتوحيد أى على الشريعة المنزلة وعلى تصور الوحدانية ، وحدانية الضمير فلا نفاق ، ووحدانية المجتمع فلا طبقات ، ووحدانية الامم فلا حروب • لم تظهر الحاكمة لله الا فى المرحلة الرابعة المرحلة السياسية التي كان فيها الامام الشهيد سجيناً للثورة المصرية ، تتحكم فى فكره سيكولوجية السجن ، ونفسية المضطهد ، وواقع البريء ووضع المظلوم • بدأ هذا الوضع النفسى الجديد يفرض نفسه على الماضى ويتحكم فى مقاييس انتقاء الافكار والتركيز على مااتفق معها حتى أصبحت محورا رئيسيا بعد أن لم تكن ذلك • ولو لم يحدث الصدام بين الاخوان والثورة ابتداء من ١٩٥٤ واستمر النضال الاجتماعى والسياسى لسيد قطب فساهم فى البناء الاشتراكى فى أوائل الستينات لامكن اسقاط الحاضر على الماضى أيضا • وبدل « معالم فى الطريق » لكان لدينا الاسلام طريق الاشتراكية أيضا مجموعة نصوص مستقاة من « فى ظلال القرآن » •

ويدور « معالم فى الطريق » على فكرة الحاكمة ومايتبعها من الجاهلية والصراع بين الاسلام والجاهلية ، والجهاد ، والصفوة • م ١٧ — الحركات الدينية المعاصرة

وكان الامام الشهيد قد تحول الى ابي أعلى مودودي آخر • صحيح
أنه يشير اليه احيانا في عجز امريكا عن تحريم الخمر في « التنقيحات »
للمودودي نقلا عن الندوى في « ماذا خسر العالم بانحطاطات المسلمين؟ »
أو مباشرة في الحاكمة عن « مبادئ الاسلام » للمودودي •

والحاكمة فكرة مستنبطة من العقيدة الاسلامية ، عقيدة
الالوهية التي تنتج عنها العبودية ، وعن العبودية تنتج الحاكمة •
« أن الالوهية تعني الحاكمة العليا ••• وان توحيد الالوهية وافراد
الله سبحانه بها معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيوخه
القبائل والامراء والحكام وردة كله الى الله ، السلطان على الضمائر ،
والسلطان على الشعائر ، والسلطان على واقعيات الحياة ، والسلطان
في المال ، والسلطان في القضاء ، والسلطان في الارواح والابدان ••
ان « لا اله الا الله » ثورة على السلطان الارضى الذي يغتصب أولى
خصائص الالوهية ، وثورة على الاوضاع التي تقوم على قاعدة من هذا
الاجتصاب وخروج على السلطات التي تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها
الله » (١٥٠) • فالحاكمة تحرر قبل أن تكون قيادا ، وانطلاق قبل أن تكون
تبتا ، واقدام قبل أن تكون احكاما • أتى الاسلام ولم تكن الغاية اقامة
دولة بالرغم من اتساع الصحراء وتشنت القبائل ولكن تحرير النفوس
عربا وفرسا وروما ، وليس استبدال طاغوت عربى بطاغوت فارسى
أو رومى فالناس عبيد لله وحده • لا حاكمة الا الله ، ولا شريعة

(١٥٠) معالم فى الطريق ص ٢٦ ، فى ظلال القرآن ج ٣ ص ٢٨٦ ،

٢٩٥ ، ٣٤١ ، ٣٦١ ، ٣٨٧ •

الا من الله ، ولا سلطان لاحد على أحد لان السلطان كله لله (١٥١) *
يبغى الاسلام تحرير الانسان من حيث هو انسان بصرف النظر عن
جنسيته وقوميته ولونه عن طريق اقرار عقيدة « لا اله الا الله » بمدلولها
الحقيقي ، وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله ، وطرد المعتدين على
سلطان الله بادعاء هذا الحق لانفسهم ، اقرارها في ضمائرهم ،
واقرارها في أوضاعهم وواقعهم (١٥٢) * والحاكمية مازالت تشريعية أقرب
منها الهية فالله يحكم من خلال الشريعة وليس من خلال احكام * ان
القلوب يجب ان تخلص أولا لله ، وتعلن عن عبوديتها له وحده بقبول
شرعه وحده ، ورفض كل شرع آخر غيره من ناحية المبدأ قبل أن تتخاطب
تفصيل الشرع يرغبها فيه * ان الرغبة يجب أن تنبثق من خلال
العبودية لله ، والتحرر من سلطان سواه لا من أن النظام المعروض
عليها في ذاته خير مما لديها من الانظمة في كذا وكذا على وجه التفصيل *
ان نظام الله خير في ذاته لانه من شرع الله ، ولن يكون شرع العبيد
يوما كشرع الله * ولكن هذه ليست قاعدة الدعوة * ان قاعدة الدعوة ان
قبول شرع الله وحده ايا كان ، ورفض كل شرع غيره ايا كان هو ذاته
الاسلام وليس للسلام مدلول سواه (١٥٣) *

وأحيانا تتفصل العقيدة في عدة مفاهيم مثل الالهية ، والربوبية ،
والقوامة ، والسلطان ، والحاكمية * فالحاكمية تتبع عن الالهية بعد

(١٥١) المصدر السابق ص ٢٩ ، في ظلال القرآن ج ٦ ص ٨٨٧ -

. ٨٩١

(١٥٢) معالم في الطريق ص ٤٠ ، في ظلال القرآن ص ٧ ، ص ١٥٦ ،

١٠٥٨ ، ١٤٤٤ ج ١٠ ص ١٥٦١ - ١٥٦٣ .

(١٥٣) المصدر السابق ص ٤١ - ٤٢ .

الربوبية والقوامة والسلطان من أجل وصف فاعلية الالهوية وتوجيهها لحياة البشر * « والقاعدة النظرية التي يقوم عليها الاسلام على مدار التاريخ البشرى هي قاعدة شهادة ان لا اله الا الله الى افراد الله سبحانه بالهوية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية ، افراده بها اعتقادا في الضمير ، وعبادة في الشعائر وشريعة في واقع الحياة » (١٥٤) .

وعلى نقيض الالهوية يأتي الشرك * والشرك يكون أما في صورة الاعتقاد والعبادة وأما في صورة الحاكمية والاتباع * الحاكمية اذن تعبير عن التوحيد العملي ، فالتوحيد في حياة الانسان على مايقول ابن القيم توحيد نظر وتوحيد عمل ، والثاني شرط الاول ، وهو ماأبرزه أيضا محمد بن عبد الوهاب في « كتاب التوحيد » . الاسلام هو اسلام العباد لرب العباد واخراجهم من عبادة العباد الى عبادة الله وحده اخراجهم من سلطان العباد في حاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم الى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده في كل شأن من شؤون الحياة * .
جاء (محمد) ليرد الناس الى حاكمية الله كشأن الكون كله الذى يحتوى الناس فيجب أن تكون السلطة التي تنظم حياتهم هي السلطة التي تنظم وجودهم ، فلا يشذوا هم بمنهج وسلطان وتدبير غير المنهج السلطان والتدبير الذى يصرف الكون كله بل الله هو الذى يعرف وجودهم في حيز الجانب الارادى من حياتهم * فالناس محكومون بقوانين نظرية من صنع الله في شأنهم ونموهم وصحتهم ومرضهم ، وحياتهم وموقعهم ، وفي حركاتهم الاختيارية ذاتها * وهم لايملكون

تغيير سنة الله وقوانينه الكونية التي تحدث هذا الكون وتصرفه • ومن ثم ينبغي أن يثوبوا الى الاسلام في الجانب الارادى من حياتهم ، فيجعلوا شريعة الله هى الحاكمة وفي كل شأن من شئون هذه الحياة تنسيقا بين الجانب الارادى في حياتهم والجانب الفطرى وتنسيقا بين وجودهم كله بشطريه هذين وبين الوجود الكونى (١٥٥) • الحاكمة اذن تشمل الجانبين اللارادى والارادى فى الانسان لذلك تبدو الحاكمة احيانا وكأنها ليست تشريعية فقط بل كونية أيضا ترجع الى أصل أشمل فى تقريره عن الوجود كله لا عن الوجود الانسانى وحده والى منهج الوجود كله لا منهج للحياة الانسانية وحدها • لذلك يصبح العمل شريعة الله واجبا لتحقيق ذلك التناسق وفى مقابل شريعة الله هناك أهواء للبشر « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن » (المؤمنون : ٧١) • فالحق الذى يقوم عليه الدين هو الحق الذى تقوم عليه السموات والارض فى الدنيا والآخرة (١٥٦) • وهنا تتحول الحاكمة الى نظرة فلسفية وليس فقط الى تشريع عملى ، ترجع فى أصولها الى التسلطية الأشعرية التى تقضى الانسان والعالم واستقلالهما وتقترب من التصور الشيعى للشريعة الكونية •

ومع ذلك فالغالب على الحاكمة هى أنها أساس يقوم عليه المجتمع الاسلامى كما يدل على ذلك الشق التالى من الشهادات فى أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله « العبودية لله وحده هى شطر

(١٥٥) المصدر السابق ص ٥٢ - ٥٣ ، فى ظلال القرآن ج ٩ ص

١٣٤٨ - ١٣٥٤ •

(١٥٦) المصدر السابق ص ١١١ - ١١٢ •

الركن الاول فى العقيدة الاسلاميه المتمثل فى شهادة أن لا اله الا الله
والتلقى عن رسول الله فى كيفية هذه العبودية هو شطرها الثانى المتمثل
فى شهادة أن محمدا رسول الله « (١٥٧) • وما يتلقاه المجتمع عن الرسول
هو الشريعة • وبالتالي تتضمن الحاكمية لله ثم الرسول ثم الشريعة
وليس كما يقول دعاة النظام الله ثم الرسول ثم أولى الامر الذين
يحكمون بغير ما أنزل الله • « أن هذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من
الناس تقر ان عبوديتها الكاملة لله وحده ، وانها لاتدين بالعبودية لغير
الله فى الاعتقاد والتصوير وفى العبادات والشعائر ولا تدين بالعبودية
لغير الله فى النظام والشرائع ثم تأخذ بالفعل فى تنظيم حياتها كلها
على أساس من هذه العبودية الخالصة « (١٥٨) • فقبل أن يقرر الناس
اخلاص عبوديتهم لله فانهم لا يكونون مسلمين ، وقبل ان ينظموا
حياتهم على هذا الاساس فلا يكون مجتمعهم مسلما •

لذلك بالرغم من سيطرة فكرة الحاكمية المستنبطة من الالهية
والعبودية فى المرحلة السياسية الاخيرة الا أن قضايا العدالة الاجتماعية
لم تختف بتاتا • فالعدالة الاجتماعية أحد مظاهر الحاكمية • فقد
ظهر الاسلام والمجتمع العربى بأسوء ما يكون عليه المجتمع من سوء
توزيع الثروة والعدالة فقد تملكت الفئة القليلة المال والتجارة ، وتعامل
بالرأى اضعافا مضاعفة ، والكثرة لاتملك الا الجوع والبؤس وشظف
المعيش • اصحاب الثروات هم اصحاب الجاه والشرف ، والاغلبية
المبائسة لاشرف ولاقيمة • لم يهدف الاسلام الى تغيير الوضع الاجتماعى

• (١٥٧) المصدر السابق ص ٩٢

• (١٥٨) المصدر السابق ص ٩٦

بتغليب طبقة على طبقة وقاب الاية من سيادة الاقلية الى سيادة الاغلبية ولكن بتحرير النفوس من خلال « لا اله الا الله » . فالعدالة الاجتماعية لا بد وأن تنبثق من تصور اعتقادي شامل برد الامر كله لله . كما كان الظلم فاشيا والدعارة منتشرة . ولم يكن الاسلام دعوة اصلاحية اخلاقية اجتماعية فالاخلاق فيه تنبثق من عقيدة « لا اله الا الله » . لم يبدأ الاسلام اذن دعوة قومية أو دعوة اجتماعية أو دعوة اخلاقية بل دعوة « لا اله الا الله » في القلوب والعقول ، قاعدة الالهية الواحدة لازالة ادران النفوس التي فشلت النظم الارضية في ازالتها بكل تشريعاتها وقوانينها » (١٥٩) .

وفي مقابل حاكمية الله توجد حاكمية البشر ، وفي مقابل المجتمع الاسلامي يوجد المجتمع الجاهلي . المجتمع الاسلامي هو وحده المجتمع المتحضر والاسلام هو وحده الحضارة في مقابل المجتمعات الجاهلية المغلقة . المجتمع الاسلامي لا يحتاج الى وصفه بأنه متحضر لان الاسلام هو المتحضر والمجتمع الاسلامي لا يكون الا متحضرا (١٦٠) . حين تكون الحاكمية العليا في مجتمع الله وحده متمثلة في سيادة الشريعة الالهية تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحررا كاملا وحقيقيا من العبودية للبشر ، وتكون هذه الحضارة

(١٥٩) المصدر السابق ص ٢٩ — ٣٢ .

(١٦٠) يذكر سيد قطب بأنه بعد ان اعلن عن كتابه « نحو مجتمع اسلامي متحضر » ثم حذف متحضر نقده كاتب جزائري يكتب بالفرنسية (اظنه مالك بن بنى) على ان ذلك دفاع نفسية داخلية عن الاسلام تحرم الكاتب من مواجهة المشكلة على حقيقتها ، المصدر السابق ص ١١٧ — ١١٨ في ظلال القرآن ص ٦٠١ — ٦٠٢ .

الانسانية (١١١) . فالمجتمع الذي يخضع بعض افراده للبعض الآخر إنما هو مجتمع بعضه أرباب وبعضه عبيد ، ومن ثم فهو متخلف أو بالمصطلح الاسلامى مجتمع جاهلى . فالمجتمع الاسلامى هو المجتمع المتقدم والمجتمع الجاهلى هو المجتمع المتخلف . المجتمع الاسلامى مجتمع مهيمن عليه اله واحد ، والمجتمع الجاهلى تتحكم فيه روابط الجنس واللون والقوم والارض . اذا كان الناس فى الجاهلية يعبد بعضهم بعضا فان المجتمع الاسلامى وحده هو الذى يتحرر فيه الناس جميعا من عبادة بعضهم ويعبد الجميع الله وحده . هذا هو مفترق الطريق والتصور الذى أعطاه الاسلام للبشرية ورصيد الامة وليس من منتجات الحضارة الغربية ولا العبقريّة الاوربية شرقية أم غربية . المجتمع الجاهلى هو المجتمع غير المسلم . هذا يعنى موضوعيا كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده فى التصور الاعتقادى وفى الشعائر التعبدية وفى الشرائع القانونية وبالتالي يدخل فيه جميع المجتمعات القائمة اليوم فى الارض فعلا . فالاسلام لا يعرف الا نوعين اثنين من المجتمعات : مجتمع اسلامى ومجتمع جاهلى . المجتمع الاسلامى هو المجتمع الذى يطبق فيه الاسلام عقيدة وعبادة وشريعة ونظاما وخالقا وسلوكا والمجتمع الجاهلى هو المجتمع السدى لا يطبق فيه الاسلام ولا تحكمه عقيدته وتصوراته وقيمه وموازينه ونظامه وشرائعه ، وخالقه وسلوكه (١٦٢) .

(١٦١) المصدر السابق ص ١١٩ فى ظلال القرآن ج ٦ ص ٩٠٥ .

(١٦٢) المصادر السابق ص ١١٦ فى ظلال القرآن ج ٨ ص ١٢٢٠ -

لقد واجه الرسول قديما الجاهلية التي تقوم على حاكمية البشر والشذوذ بهذا عن الوجود الكونى ، والتصادم بين منهج الجانب دى فى حياة الانسان والجانب الفطرى • ولكن جاهلية اليوم ية أصلية جذرية أساسية لأنها تتعلق بمقومات الحياة وأنظمتها خفف منها هذه الخدمات المادية الضخمة وهذا الابداع المادى « هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله رض وعلى أخص خصائص الالهوية وهى الحاكمية • انها تستند كمية الى البشر فتجعل بعضهم لبعض أربابا لا فى الصورة الساذجة التى عرفتها الجاهلية الاولى ولكن فى صورة ادعاء وضع التصورات والقيم ، والشرائع والقوانين ، والانظمة وضاع بمعزل عن فهم الله للحياة وفيما لم يأذن به الله • فينشأ هذا الاعتداء على سلطان الله اعتداء على عباده • وما مهانة الانسان فى الانظمة الجماعية ، وما ظلم الافراد والشعوب بسيطرة رأس والاستعمار فى النظم الرأسمالية الا أثرا من آثار الاعتداء على ان الله ، وانكار الكرامة التى قررها الله للانسان (١٦٣) • حاكمية اذن اعتداء على الله أى اعتداء على الانسان بفرض نظام الهى عليه •

والحاكمية لاتعنى التشريع وحده بل تعنى أيضا أصول الاعتقاد الحكم فاصول الاخلاق وأصول السلوك وأصول المعرفة • مثل فى الاعتقاد والتصور وفى الاوضاع السياسية والاجتماعية

والاقتصادية التي تقوم عليها وفي التشريعات القانونية وقواعد الاخلاق والسلوك بل وفي النشاط الفنى والنشاط الفكرى ، فالحاكمية تصور فى الثقافة تشير الى مصدرها الدينى * أما فى العلوم البحتة فيأخذ المسلم من أى مصدر شاء * وعليه أن يطلع على آثار الجاهلية ليعرف كيف تنحرف وكيف يصحح هذا الانحراف ورد المجتمع الجاهلى الى التصور الاسلامى « ان اتجاهات الفلسفة بجملتها ، واتجاهات تفسير التاريخ الانسانى بجملتها ، واتجاهات علم النفس بجملتها — عدا الملاحظات والمشاهدات دون التفسيرات العامة لها — ومباحث الاخلاق بجملتها — واتجاهات دراسات الاديان المقارنة بجملتها ، واتجاهات التفسيرات والمذاهب الاجتماعية بجملتها فيما عدا المشاهدات والاحصائيات والمعلومات ، ان هذه الاتجاهات كلها فى الفكر الجاهلى أى غير الاسلامى قديما وحديثا متأثرة متأثرا مباشرا بتصورات اعتقادية جاهلية » (١٦٤) *

أن حكاية ان الثقافة تراث انسانى لا وطن له ولا جنس ولا دين صحيحة فى العلم وليس فى الثقافة * أن لدى المسلم الكفاية من بيان ربه الصادق عن تلك الشئون وفى السموات وفى المستوى الذى تبدو فيه محاولات البشر فى هذه المجالات هزيلة ومضحكة (١٦٥) * بل ان الاتجاه التجريبي ذاته الذى يعتز به الغرب والذى قامت عليه الحضارة

(١٦٤) المصدر السابق ص ١٤٠ فى ظلال القرآن ج ١٢ ص ١٩٠٢ —

١٩٠٦ و ص ١٩٣٩ — ١٩٤٨ *

(١٦٥) المصدر السابق ص ١٤١ انظر أيضا مقالنا — موقفنا من التراث

الغربى ، « قضايا معاصرة » ج ٢ ص ٣ — ٣٣ .

الصناعية الاوربية الحاضرة لم ينشأ ابتداءً في أوروبا بل نشأ في الجامعات الاسلامية في الاندلس في المشرق مستمداً اصوله من التصور الاسلامي وتوجيهاته الى الكون وطبيعته الواقعية ثم استقلت النهضة العلمية في أوروبا بهذا المنهج واستمرت تنميه وترقيه بينما ركذ وترك نهائياً في العالم الاسلامي بسبب بعد هذا العالم تدريجياً عن الاسلام بفعل عوامل بعضها كامن في تركيب المجتمع وبعضها يتمثل في الهجوم عليه من الصليبية والصهيونية . ثم قطعت أوروبا ما بين المنهج الذي اقتبسته وبين اصوله الاعتقادية الاسلامية وشردت به نهائياً بعيداً عن الله في أثناء شرودها عن الكنيسة التي كانت تستطيل على الناس بغيا وعدوانا باسم الله وبالتالي تغير نتائج الفكر الاوربي . أما الاسلام فانه لايفضل بين العلم وصاحب العلم . فالعلم الذي ينقطع عن العقيدة الايمانية ليس العلم الذي يبيغه القرآن . العلم الاوربي يبعد عن الله . « اتجه المنهج الاوربي الى النهضة العلمية الحديثة مع الاسف بسبب تلك الملابس النكدية التي قامت في التاريخ الاوربي خاصة بين الكنيسة الغاشمة ثم ترك آثاره العميقة في مناهج الفكر الاوربي كلها وفي طبيعة التفكير الاوربي . وترك تلك الرواسب المسماة بالعداء لاصل التصور الديني جملة — لا لاصل التصور الكنسي وحده ولا الكنيسة وحدها — في كل ما انتجه الفكر الاوربي » (١٦٦) .

(١٦٦) معالم في الطريق ص ١٤٧ .

يتحدث سيد قطب عن تجربته الشخصية مع الفكر الغربي قائلاً انه لتعريف الحضارة لم يكن الكاتب قد تخلص من ضغط الرواسب الثقافية في تكوينه العلمي والنفسي من المصادر الاجنبية الغربية على الحس الاسلامي . وبالرغم من وضع الاتجاه الاسلامي الا ان هذه الرواسب كانت طمس

والمجتمعات الجاهلية أربعة : المجتمعات الشيعوية والمجتمعات الوثنية المجتمعات اليهودية والنصرانية والمجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسامة . فالمجتمعات الشيعوية في رأى سيد قطب مجتمعات ملحدة تنكر وجود الله اصلا وترجع الفاعلية الى المادة أو الطبيعة وفي حياة الانسان الى الاقتصاد أو أدوات الانتاج . وتقيم نظاما العبودية فيه للحزب على فرض أنه ممثل للقيادة الجماعية وما يترتب على ذلك من اهدار لكرامة الانسان باعتبار ان المطالب الاساسية لها هي مطالب الحيوان : الطعام والشراب والمبلس والمسكن والجنس وحرمانه من حاجاته الروحية : العقيدة في الله ، حرية اختيارها ، حرية التعبير عنها وعن فرديتها التي تتجلى في الملكية الفردية واختيار نوع العمل والتخصص وفي التعبير الفنى عن الذات . فهو مجتمع ينكر وجود الله ويفسر التاريخ تفسيراً مادياً ويطبق مايسميه الاشتراكية العلمية نظاماً . وعندما تكون المادة في أية صورة هي القيمة العليا سواء في النظرية كما في التفسير الماركسي للتاريخ أو في صورة الانتاج المادى كما في أمريكا وأوروبا فان هذه المجتمعات تكون متخلفة أى بالمصطلح الاسلامى جاهلة . والمجتمع الاسلامى لا يحقر المادة الا في النظرية لأنها مكوّن من مكونات الكون ولا في الانتاج لانه من مقومات الخلافة في الارض ولكنه لايعتبرها القيمة العليا المتى من أجلها تهدر قيمة الانسان . في المجتمع الجاهلى تتغير القيم وتتبدل ، ولا تستقر على حال ولا ترجع الى أصل كما

صورة وتبنيه الرؤية الواضحة . . قضى المؤلف أربعين سنة من عمره عرف الجاهلية على حقيقتها وعلى انحرافها وضآلتها وقزائتها وجعجعتها وانتعاشها وغرورها وادعائها وعلم اليقين أنه لايمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين في التلقى ، المصدر السابق ص ١٤٤ - ١٤٨ .

يزعم التفسير المادى للتاريخ والاشتراكية العلمية • وعندما يكون الجنس هو أساس الاسرة يكون ذلك هو التخلف الحضارى فالمرأة ليست زينة أو غواية • لقد اغرت الأخلاق فى المجتمعات الحديثة وشاعت العلاقات الجنسية • وواضح من هذا الوصف للمجتمعات الاوربية الشيعوية منها والرأسمالية القوالب التقليدية مثل الايمان والالحاد ، والتعارض بين المادة والروح • فالمجتمعات الشيعوية ترفض الدين الذى صورته الكنيسة وهو ليس بدين ، والمجتمعات الاوربية تلجأ الى الطبيعة تكتشف بداخلها عن مكوناتها دون كبت يؤدى الى الانهيار أو النفاق • ومازال الدين ينمو نموا رأسماليا فى التصور والتأكيد على حق الملكية الفردية وحق الارث وكان « الرد على الدهرين » عند الافغانى مازال سارى المفعول « (١٦٧) •

اما المجتمعات الوثنية فى الهند واليابان والفلبين وافريقيا فيقوم تمورها الاعتقادى على تأليه غير الله كما تقوم الشعائر التعبدية لشتى الآلهية والمعبودات وتقيم الانظمة والشرائع المستمدة من العبادة والكهنة والسدنة والسخرة والشيعوع أو هيئات مدنية علمانية تملك سلطة التشريع دون الرجوع الى الله • لها الحاكمة العليا باسم الشعب أو باسم الحزب أو باسم كائن من كان ذلك لان الحاكمة العليا لاتكون الا لله ولا تزال الا بالطريقة التى بلغها عن رسله •

أما المجتمعات اليهودية والنصرانية فى أرجاء الارض جميعا فانها تقوم على تصور اعتقادى محرف يجعل للالوهية شركاء بالنبوة أو

(١٦٧) المصدر السابق ص ٩٨ — ٩٩ ص ١١٦ فى ظلال القرآن ج ٨

بالتثليث • كما تنبثق شعائرها التعبدية ومراسمها وطقوسها عن هذه الاعتقادات الضالة • أما أنظمتها وشرائعها فإنها لاتقوم على العبودية لله وحده بالافترار له وحده بحق الحاكمية العليا التي لاتكون الا لله • وقد وصفهم الله بالشرك لانهم جعلوا هذا الحق للاخبار الرهبان يشرعون لهم من عند أنفسهم ويقبلون ما يشرعون لهم • أما المجتمعات التي تزعم لنفسها انها مسلمة فبالرغم من أنها تعتقد بألوهية الله وتقدم الشعائر التعبدية له الا أنها لاتدين بالعبودية له في نظام حياتها، وتعطى اخص خصائص الالهوية لغير الله ، فتدين بحاكمية غير الله ، وتتلقى من هذه الحاكمية نظامها وشرائعها وقيمها وموازينها وعاداتها وتقاليدها وكل مقومات حياتها تقريبا (١٦٨) • هي المجتمعات التي لا تنكر وجود الله ولكن تجعل له ملكوت السموات وتعزله عن ملكوت الارض فلا تطبق شريعته في نظام الحياة وتبيح للناس أن يعبدوا الله في البيع والكنائس والمساجد ولكن تحرم عليهم أن يطالبوا بتحكيم شريعة الله في حياتهم وهي بذلك تنكر أو تعطل الالهوية ، ألوهية الله في الارض التي نص القرآن عليها « وهو الذي في السماء اله وفي الارض اله » (الزخرف : ٨٤) ان الحكم الا لله ، امر ألا تعبدوا الا اياه ••• ذلك الدين القيم » (يوسف : ٤٠) • وتعلن هذه المجتمعات أما العلمانية وعدم علاقتها بالدين أصلا وأما احترام الدين ولكن تخرجه من نظامه

(١٦٨) يذكر سيد قطب آيات الحاكمية المشهورة « ومن لم يحكم بما انزل اليه فاولئك هم الكافرون » (المائدة : ٤٤) « الم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما انزل اليك وما انزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به •• فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » — (النساء ٦١ — ٦٥) « وان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول » (النساء : ٩٥) •

الاجتماعى لانها تنكر الغيب وتقيم نظمها على العالمية التى تناقض الغيب وأما تكون الحاكمة فيها لغير الله يشرع مايشاء ويدعى انها من عند الله • والاسلام يرفض الاعتراف باسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها • فالحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده وتلتقى مع سائر المجتمعات فى صفة الجاهلية • وليس لاحد أن يقول بشرع يشرعه هذا شرع الله الا أن تكون الحاكمة العليا لله معلنة وأن يكون مصدر السلطات هو الله لا الشعب ولا الحزب ولا أى من البشر • ولا يكون هذا لكل من يريد أن يدعى سلطان باسم الله الذى عرفته أوربا ذات يوم باسم الثيوقراطية أو الحكم المقدس • وليس شىء من هذا فى الاسلام • وما يملك أحد أن ينطق باسم الله الا رسوله « ليس المجتمع الاسلامى هو الذى يضم ناسا ممن يسمون أنفسهم مسلمون بينما شريعة الاسلام ليست هى قانون هذا المجتمع وأن صلى وصام وحج البيت الحرام • وليس المجتمع الاسلامى هو الذى يبتدع لنفسه اسلاما من عند نفسه يسميه الاسلام المتطور (١٦٩) •

وعلاقة المجتمع الاسلامى بالمجتمع الجاهلى علاقة انفصال وتضاد وحرب فلا وجود لاحدهما مع وجود الآخر • ولا واسطة بينهما ولا انصاف حلول ولا تعايش سلمى • ليست وظيفة الاسلام اذن ان يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة فى الارض ولا الاوضاع القائمة فى كل مكان • لم تكن هذه وظيفته يوم جاء ولن تكون هذه وظيفته اليوم ولا فى المستقبل • فالجاهلية هى الجاهلية ، هى الانحراف عن العبودية

لله وحده وعن المنهج الالهي في الحياة واستنباط النظم والشرائع والقوانين والعادات والتقاليد والقيم والموازين من مصدر آخر غير المصدر الالهي • الاسلام هو الاسلام ووظيفته هي نقل الناس من الجاهلية الى الاسلام • الجاهلية هي عبودية الناس للناس بتشريع بعض الناس للناس بما لم يأذن به الله كائنة ما كانت الصورة التي ينم بها هذا التشريع • والاسلام هو عبودية الناس لله وحده بتلقيهم منه وحده تصوراتهم وعقائدهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازنينهم، والتحرر من عبودية العبيد ••• ان الاسلام لايقبل انصاف الحلول مع الجاهلية لان ناحية التصور ، فاما اسلام أو جاهلية • وليس هناك وضع آخر نصفه اسلام ونصفه جاهلية فيقبله الاسلام ويرضاه • فنظرة الاسلام واضحة في ان الحق لايتعدد وان ماعدا هذا الحق فهو الضلال ، وهما غير قابلين للتبليس والامتزاج وأنه أما حكم الله وأما حكم الجاهلية • وأما شريعة الله وأما الهوى • فهما أمران لا ثالث لهما ، أما الاستجابة لله والرسول ، وأما اتباع الهوى ، أما حكم الله وأما حكم الجاهلية ، اما الحكم بما أنزل الله واما الفتنة عما أنزل الله • وظيفة الاسلام اذن هي اقصاء الجاهلية من قيادة البشرية وتولى هذه القيادة على منهجه الخاص • هذه الجاهلية خبثت قديما وخبثت حديثا • لا يوجد شيء اسمه ديمقراطية الاسلام أو اشتراكية الاسلام • ان الانتقال من الجاهلية للاسلام نقلة بعيدة لا واسطة ولا ترقيع • والنفس البشرية فيها الاستعداد للانتقال الكامل من حياة الى حياة • ان الاسلام لا يتخذ المبررات له من النظم الجاهلية (١٧٠) •

ولا يمكن الالتقاء بين المجتمعين لان المسألة في حقيقتها مسألة
كفر وايمان ، مسألة شرك وتوحيد ، مسألة جاهلية واسلام • ان الناس
ليسوا مسلمين كما يدعون وهم يحيون حياة الجاهلية • والدعوة اليوم
انما تقوم لتزهد هؤلاء الجاهلين الى الاسلام ولتجعل منهم مسلمين من
جديد •• اننا نحن الذين نقدم الاسلام للناس ليس لنا أن نجارى
الجاهلية في شئ من تصوراتها ولا شئ من أوضاعها ولا شئ من
تقاليدھا التي يثند ضغطها علينا • ان وظيفتنا الاولى هي احلال التصورات
الاسلامية والتقاليد الاسلامية في مكان الجاهلية ولن يتحقق هذا
بمجاراة الجاهلية والمسير معها خطوات أول الطريق ••• لن يكون
هذا بأن نجارى الجاهلية في بعض الخطوات ••• اننا نعيش وسط
جاهلية واننا اهدى طريقا من هذه الجاهلية وانها هوة فاصلة لايقام
فوقها معبر للالتقاء في منتصف الطريق ولكن ينتقل عليه أهل الجاهلية
الى الاسلام سواء كانوا ممن يعيشون في الوطن الاسلامى ويزعمون
انهم مسلمون أو كانوا يعيشون في غير الوطن الاسلامى ••••• ان
المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة وليست
شيئا آخر على الاطلاق ، وان خصومهم لاينقمون منهم الا الايمان
ولا يسخطون منهم الا العقيدة • انها ليست معركة سياسية ولا معركة
اقتصادية ولا معركة عنصرية بل معركة عقيدة أما كفر وأما ايمان أما
جاهلية وأما اسلام • فاذا اضطر المسلم الى التعامل مع الجاهلية دون
أن يقطعها وينزوى وينعزل عنها فانما هي المخالطة مع التميز والاختذ
والعطاء مع الترفع والصدع بالحق في مودة والاستعلاء بالايمان في
تواضع • التعامل بالبدن مع الانفصام بالروح ، المؤمن هو الاعلى سندا
ومصدرا وادراكا وتصورا للحقيقة والوجود ، وتصورا للقيم والموازن
م ١٨ — الحركات الدينية المعاصرة

وضميرا وشعورا ، وخلقنا وسلوكا ، وشريعة ونظاما (١٧١) • ويتكون المجتمع الاسلامى بثلاثة انفار وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر فان هذه العقيدة ذاتها تقول لهم انتم الان مجتمع ، مجتمع اسلامى مستقل ، منفصل عن المجتمع الجاهلى الذى لا يدين لهذه العقيدة ولا تسود فيه قيمها الاساسية • • والثلاثة يصبحون عشرة ، والعشرة مائة والمائة الفا ، والالف اثنى عشر الفا ، ويبرز ويتقرر المجتمع الاسلامى وفى الطريق تقوم المعركة بين المجتمع الوليد والذى انفصل بعقيدته وتصوره ووجوده عن المجتمع الجاهلى الذى أخذ منه افرادة • وهكذا ينشأ المجتمع الاسلامى ويتكون المجتمع المسلم • وينشأ من أنتقال افراد ومجموعات من الناس العبودية لغير الله الى العبودية لله اقامة نظام حياة هذه الجماعة على العبودية • عندئذ يولد مجتمع جديد من المجتمع الجاهلى القديم • وقد ينضم المجتمع الجاهلى القديم الى المجتمع الاسلامى الجديد وقد لا ينضم • وقد يهادن المجتمع المسلم الجديد أو يحاربه وان كانت السنة قد جرت على أن يشن المجتمع الجاهلى حريا لاهوادة فيها سواء على طلائع هذا المجتمع فى مرحلة نشوئه أو على المجتمع نفسه بعد قيامه فعلا • طبيعى الا ينشأ المجتمع المسلم ويتقرر وجوده الا اذا بلغ درجة من القوة يواجه بها المجتمع الجاهلى القديم بقوة الاعتقاد والتصور ، وقوة الخلق والبناء النفسى ، وقوة التنظيم والبناء الجماعى (١٧٢) •

(١٧١) المصدر السابق ص ٢٧٣ — ١٧٦ — ٢٠١ •

(١٧٢) المصدر السابق ص ٩٧ — ٩٨ فى ظلال القرآن ص ١٤ ص

وجنسية المسلم عقيدته • وجاء الاسلام ليرد الانسان الى ربه
وليجعل هذه السلطة الوحيدة التي يتلقى منها موازينه وقيمه • هناك
حزب واحد لا يتبدد هو حزب الله وأحزاب أخرى كلها للشيطان
وللطاغوت • وهناك طريق واحد يصل الى الله ، وليس كل طريق يؤدي
اليه • هناك نظام واحد هو النظام الاسلامي وماعداه من النظم فهو
جاهلية « أفحكّم الجاهلية يبيغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم
يفقهون » (المائدة : ٥٠) • هناك شريعة واحدة هي شريعة الله ، وماعداها
فهو هوى • وهناك حق واحد لا يتعدد وماعداه هو الضلال • وهناك
دار واحدة هي دار السلام وما عداها فهو دار حرب علاقة المسلم بها
أما القتال وأما المهادنة على عهد امان • كل أرض تحارب المسلم في
عقيدته . وتصده عن دينه وتعطل عمل شريعة فهي دار حرب ولو كان
فيها أهله وعشيرته ، قومه وماله وتجارته • وكل أرض تقوم فيها
عقيدته وتعمل فيها شريعة فهي دار السلام • ولو لم يكن له فيها أهل
ولا عشيرة ولا قوم ولا تجارة • الوطن دار تحكّمها عقيدة ومنهاج
حياة وشريعة من الله • لا وجود لشعب مختار انما الشعب المختار
الامة المسلمة • لا اسلام في أرض لا يحكمها الاسلام ، ولا تقوم فيها
شريعته ، ولا دار اسلام الا تلك التي يهيمن عليها الاسلام بمنهجه
وقانونه • وليس وراء الايمان الا الكفر وليس دون الاسلام الا الجاهلية :
وليس بعد الحق الا الضلال (١٧٣) •

الاسلام اذن في حالة جهاد دائم ضد الجاهلية • والجهاد ليس

كما يقول المدافعون عنه ضد اتهام المستشرقين له للدفاع فقط وليس الهجوم فيخلطون بين منهج السياسة المادية التي تحول بين الناس وبينه والتي تعبد الناس للناس وتمنعهم من العبودية لله . ان هذا الدين اعلان عام لتحرير الانسان في الارض من العبودية للعباد ومن العبودية لهواه ايضا وهى من العبودية للعباد وذلك باعلان الوهية الله وحده سبحانه - وربوبيته للعالمين ! ان اعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها الثورة الشاملة على حاكمة البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها والتحرز الكامل من كل وضع في أرجاء الارض المحكم فيه للبشر بصورة من الصور أو بتعبير آخر مرادف . الالهية فيه للبشر في صورة من الصور ذلك أن المحكم الذى مرد الامر فيه الى البشر ومصدر السلطات فيه هم البشر هو تأليه للبشر ، يجعل بعضهم لبعض أربابا من دون الله . أن هذا الاعلان معناه انتزاع سلطان الله المعتصب ورده الى الله وطرد المعتصبين له الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم فيقومون منهم مقام الارباب ، ويقوم الناس منهم مكان العبيد . ان معناها تحطيم مملكة البشر لاقامة مملكة الله فى الارض (١٧٤) . فالجهاد اذن من طبيعة الاسلام لتحرير الوجدان البشرى وأعلان حرية العقيدة ضد الغفلة والقهر الذى يسود نظم البشر . فقد تعهدنا « الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » (آل عمران : ٦٤) . ومملكة الارض لاتقوم بأن يتولى الحاكمة فى الارض رجال بأعيانهم - وهم رجال الدين - كما كان الامر فى سلطان الكنيسة ، ولا رجال ينطقون باسم

الالهة كما كان الحال فيما يعرف باسم الشيوقراطية أو الحكم الالهى المقدس ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هى الحاكمة ، وأن يكون مرد الامر الى الله وفق ماقرره من شريعة دينية ... وقيام مملكة الارض وازالة مملكة البشر ، وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبه من الجهاد وردة الى الله وحده ، وسيادة الشريعة الالهية وحدها ، والغاء القوانين البشرية . كل ذلك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان لان المتسلطين على رقاب العباد والمغتصبين لسلطان الله فى الارض لايسلمون فى سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان ... أن هذه الاعلان العام لتحرير الانسان فى الارض من كل سلطان غير سلطان الله باعلان الوهية الله وحده وربوبيته للعالمين لم يكن اعلان نظريا فلسفيا سلبيا إنما كان اعلانا حركيا واقعيا ايجابيا ، اعلانا يراد له التحقيق العملى فى صورة نظام يحكم البشر بشر بشريعة الله وبخروجهم بالفعل من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده بلا شريك (١٧٥) .

ويواجه هذا التحرير بعقبات اعتقادية وتصورية وأخرى مادية واقعية وثالثة سيانسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية . وفى مقدمتها عقبات السلطان السياسى القائم على العوالم الاعتقادية التصورية والعنصرية والطبقية الاجتماعية والاقتصادية وليس المهم البيان بل الحركة . هذا الدين يرد العالمين الى ربهم وينتزعهم من العبودية لغيره . وبالعبودية الكبرى فى نظر الاسلام يقرر أنها لا تكون الا لله وان من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه

في هذا المدين وقد نص الرسول على أن الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي صار بها اليهود والنصارى مشركين مخالفين لما أمروا به من عبادة الله وحده الاسلام اعلان عام لتحرير الانسان من العبودية للعباد . فهو يهدف ابتداء الى ازالة الانظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمة البشر للبشر وعبودية الانسان للانسان . . ان النظام الذي يحكم البشر في الارض يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وحده وذلك بتلقى الشرائع منه وحده (١٧٦) . الانطلاق الحركي للاسلام في صورة الجهاد بالسيف الى جانب الجهاد بالبيان ليس حركة دفاعية فقط بل حركة اندفاع وانطلاق لتحرير الانسان في الارض دفاعا عن الانسان ذاته ورد العدوان البشري عليه . الجهاد اذن هو اعلان عام لتحرير الانسان من العبودية للعباد ، وتقدير الوهية لله وحده وربوبيته للعالمين وتحطيم مملكة الهوى البشري في الارض واقامة مملكة الشرعية الالهية في عالم الانسان (١٧٧) . لا بد من ازالة العقبات بالقوة فالجهاد ضرورة للدعوة كي تكون عبودية الناس كلهم فيها لله .

والناس ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة ، وأهل ذمة ، وأهل حرب ، القسم الاول مسلم مؤمن به ، والثاني مسالم له آمن والثالث مخالف له محارب دعاه أهل الصلح والهدنة للاسلام فصار الناس قسمين أهل ذمة ومحاربين له . ولما كان أهل الذمة تحت أمن الاسلام أصبح هناك مجتمعان مجتمع الاسلام ومجتمع الحرب، وكلاهما

(١٧٦) المصدر السابق ص ٦٩ — ٧١ .

(١٧٧) المصدر السابق ص ٧٢ — ٧٥ .

ضدان لا يجتمعان * « لا يتعايش الحق والباطل في هذه الارض وأنه متى
قام الاسلام باعلانه العام لاقامة ربوبية الله للعاملين ، وتحريم
الانسان من العبودية للعباد رماه المغتصبون لسلطان الله في الارض
ولم يسالموه قط وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس من سلطانهم
ويدفع عن الانسان في الارض ذلك السلطان الغاصب » (١٧٨) *

ان الجهاد في الاسلام لا يحتاج الى مبررات ادبية بل مبرراته
فيه ذاته * « تقرير الوهية الله في الارض ، وتحقيق منهجه في حياة
الناس ومطاردة الشياطين ، وتحطيم سلطان البشر الذي يتعبد الناس،
والناس عبيد الله وحده * لايجوز أن يحكمهم أحد من عباده بسلطان
من عند نفسه وبشريعة من هواه ورأيه * * * أنها مبررات التحرير
العام للانسان في الارض * * اخراج الناس من العبودية للعباد الى
العبودية لله وحده بلا شريك » (١٧٩) * وكان جواب المسلمين اذا ماسألهم
أحد عن الاسلام : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى
عبادة الله وحده * * * وهذا المبرر الذاتى قائم ابتداء ولو لم يوجد
خطر الاعتداء على الارض الاسلامية وعلى المسلمين فيها * انه مبرر
في طبيعة المنهج وواقعيته وطبيعة المعوقات الفعلية في المجتمعات
البشرية لا من مجرد ملابسات دفاعية محدودة ومقوتة * فالاسلام
يبدأ بتحرير البشر مما وقع عليهم من اعتداء من سلطان البشر الممثل
في الانظمة السياسية * ان الانطلاق بالمذهب الالهى تقوم في وجهة

(١٧٨) المصدر السابق ص ٧٦ *

(١٧٩) المصدر السابق ص ٨٣ — ٨٤ في ظلال القرآن ج ١١ ص

١٧٢٧ — ١٧٢٨ *

عقبات مادية من سلطة الدولة ونظام المجتمع وأوضاع البيئة ، وهذه كلها هي التي ينطلق الاسلام ليحطمها بالقوة كي يخلو له وجه الافراد من الناس يخاطب ضمائرهم وأفكارهم بعد أن يحررها من الاغلال المادية ، ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار (١٨٠) . أن النظم الجاهلية بمعاداتها النظم الاسلامي انما تدافع عن بقائها بالهجوم عليه . حقا أنه لم يكن بد لهذا الدين أن يدافع المهاجمين له . الان مبرر وجوده في صورة اعلان عام لربوبية الله للعاملين ، وتحرير الانسان من العبودية لغير الله وتمثل هذا الوجود في مجتمع تنظيمي حركي تحت قيادة جديد غير قيادات الجاهلية وميلاد مجتمع مستقل متميز لايعترف لاحد من البشر بالحاكمية لان الحاكمية فيه لله وحده . أن مجرد وجود هذا الدين في هذه الصورة لابد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من حوله — القائمة على قاعدة العبودية للعباد — ان تحاول سحقه دفاعا عن وجودها ذاته ، ولا بد ان يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه هذه ملابسة لابد منها تولد مع ميلاد الاسلام ذاته . وهذه معركة مفروضة على الاسلام فرضا ولا خيار له في خوضها . وهذا صراع طبيعي بين وجودين لايمكن التعايش بينهما طويلا لابد للاسلام أن يدافع عن وجوده ولا بد أن يخوض معركته دفاعية مفروضة عليه فرضا ان من طبيعة الوجود الاسلامي ذاته ان يتحرك الى الامام ابتداء لانتقاذ الانسان في الارض من العبودية لغير الله هذه طبيعة هذا الدين ، وهذه وظيفته بحكم أنه أعلن عام لربوبية الله للعاملين وتحرير الانسان من كل عبودية لغير الله في الناس أجمعين

القضية هي قضية الوهية الله وعبودية العباد (١٨١) •

ان من حق الاسلام أن يبدأ الهجوم على الجاهلية أن لم تبادلته الجاهلية بالمهجوم • حتى اذا لم تهاجم الجاهلية الاسلام فان الاسلام لا يتركها تزاول عبودية البشر للبشر ، ولا يدعها دون أن يمد اليها دعوته الى التحرير العام • لايهادنها الاسلام الا أن تعلن استسلامها لسلطانه في صورة اداء الجزية ضمانا لفتح ابوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها •••• كان الاسلام مضطرا لخوض معركة لا اختيار له فيها بحكم وجوده الذاتى ووجود المجتمعات الجاهلية الاخرى التى لا بد أن تهاجمه • والاسلام بذاته يتحرك ابتداء فيدخل المعركة • الاسلام منهج الهى جاء ليقرر الوهية الله فى الارض وعبودية البشر جميعا لاله واحد • ويصب هذا التقرير فى قالب واقعى ، هو المجتمع الانسانى الذى يتحرر فيه الناس من العبودية للعباد بالعبودية لرب العباد • فلا تحكمهم الا شريعة الله التى يتمثل فيها سلطان الله أو بتعبير آخر تتمثل فيها الوهيته • فمن حقه أن يزيل العقبات كلها من طريقه ليخاطب وجدان الافراد وعقولهم دون حواجز أو موانع مصطنعة من نظام الدولة السياسى أو أوضاع الناس الاجتماعية •••• ان من حق الاسلام أن يتحرك ابتداء • فالاسلام ليس نحلة قوة ولا نظام وطن ولكنه منهج اله ونظام عالم • ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز عن الانظمة الاوضاع التى تغل عن حرية الانسان فى الاختيار • وحسبه أنه لايهاجم الافراد ليكرههم على اعتناق عقيدته انما يهاجم الانظمة والاوزاع ليحرر الافراد من التأثيرات المفسدة للفسطة لحرية

الاختيار • من حق الاسلام أن يخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ليحقق اعلانه العام بربوبية الله للعاملين وتحرير الناس أجمعين • وعبادة الله وحده لا تتحقق في التصور الاسلامي وفي الواقع العملي الا في ظل النظام الاسلامي فهو وحده النظام الذي يشرع الله فيه للعباد كلهم ••••• تشريعا واحدا يخضع له الجميع على السواء • أما في سائر الانظمة فيعبد الناس العباد لانهم يتلقون التشريع لحياتهم من العباد وهو من خصائص الالوهية اختصاصا وعملا سواء ادعاها قولا أم لم يعلن هذا الادعاء • فأياها بشر آخر اعترف لذلك البشر بذلك الحق فقد اعترف له بحق الالوهية سواء سماها باسمها أم لم يسمها ••••• الاسلام منهج يتمثل في تجمع تنظيمي حركي يزحف لتحرير كل الناس والتجمعات الاخرى لاتمكنه من تنظيم حياة رعاياها وفق منهجه هو • ومن ثم يتحتم على الاسلام أن يزيل هذه الانظمة بوصفها معوقات للتحرير العام • وهذا معنى أن يكون الدين كله لله فلا تكون هناك دينونة ولا طاعة لعباد من العباد لذاته كما هو الشأن في سائر الانظمة التي تقوم على عبودية العباد للعباد (١٨٢) •

قد يتأجل الجهاد الى حين لمقتضيات المعركة ولكن ذلك لايعنى أيقافه أو التخلي عنه • الاسلام منهج الله للحياة البشرية • وهو منهج يقوم على افراد الله وحده بالالوهية متمثلة في الحاكمية ، وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية ••••• وحيثما وجد التجمع الاسلامي الذي يتمثل فيه المنهج الاسلامي فان الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام مع ترك مسأة العقيدة

الوجدانية لحرية الوجدان • فاذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد فهذه مسألة خطة لا مسألة مبدأ ، مسألة مقتضيات حركة لا مسألة عقيدة (١٨٣) •

ولتحقيق ذلك لابد من قيادة • فالعالم الآن على حافة الهاوية • والمجتمع في حاجة الى قيادة جديدة • والمسكران الغربي والشرقي على حافة الافلاس في عالم القيم بالرغم من الازدهار المادي • وبالرغم من تعاونيهما معا واقتباس كل نظام ماينقصه من النظام الآخر • فقد استعارت النظم الغربية بعض الانظمة الاقتصادية مثل الاشتراكية كما انتهت النظم الشرقية بعقيدتها الجماعية الى اقتصارها على الدولة لانها نظم تعارض الفطرة البشرية وتقوم على التسلط والدكتاتورية • لقد قام الغرب بنهضته العلمية التي أدت دورها منذ القرن السادس عشر حتى بلغت الذروة في القرن التاسع عشر ولكنها لم تعد قسادرة على أن تقدم جديدا بل ظهرت مآسى العلم وتطبيقاته في القرن العشرين • كما أدت الوطنية والقومية أدوراها وأفلست بفعل حربين أوروبيتين طاحنتين • كما فشل النظامان الرأسمالي والشيوعي ، الفردي والجماعي ولم يعيدا يقدمان للبشرية أى تقدم وازدهار • فقيادة الغرب أوشكت على الزوال والانسانية في حاجة الى قيادة جديدة (١٨٤) •

والاسلام وحده هو القادر على هذه القيادة الجديدة لما يملكه من قيم ومنهج فهو المنقذ للبشرية من حافة الهاوية • ولما كانت الجاهلية

(١٨٣) المصدر السابق ص ٩٠ - ٩١ .

(١٨٤) المصدر السابق ص ٥ - ٧ في ظلال القرآن ٦ ٢ ص ١٢٩ -

سائدة في الارض ولا خلاص منها الا بالربانية فان مهمة القيادة الاسلامية رد الناس الى الوهية الله وحده وربوبيته وقوامته وحاكميته وسلطانه وشريعته ، ونزع المجتمع من قيادته الجاهلية الوثنية مثل الكهنة والذمة والسحرة والعرافية أو السياسية والاجتماعية والاقتصادية(١٨٥) . وفي الاسلام وحده تتوفر شروط القيادة . فهو أولا لايتنكر للابداع المادى في الارض لان الانسان خليفة الله في الارض . فالخلافة هنا تعنى الابداع المادى والانتاج والسيطرة على قوانين الطبيعة . ثانيا : بعث الامة من جديد لان الاسلام لايقوم الا بأمة . فالعقائد المجردة لاتقود البشرية قبل أن تتمثل في مجتمع . الامة ليست قوما أو أرضا بل جماعة بشرية تتحد بتصوراتها للكون وبأنظمتها وقيمها . وقد انقطع وجود هذه الامة منذ توقف الحكم بشرية الله . وبالتالي لابد وأن تعود هذه الامة وأن يستمر وجودها عن طريق بعثها من جديد . ثالثا ، أن تكون لهذه الامة القيادة بعد البعث بالرغم من المسافة الشاسعة بين مرحلة البعث ومرحلة القيادة ، وبالرغم من رصيد الغرب الضخم من العلم والثقافة والتي لا يمكن للبشرية التنازل عنها بسهولة . رابعا ، مؤهلات الامة لايمكن أن تكون الابداع المادى في هذه المرحلة وهو الضرورة الذاتية لوجودها باعتبارها خليفة الله في الارض أى عبادة الله وتحقيقا لغاية الوجود الانسانى . لابد من مؤهل العقيدة والمنهج الذى يسمح بالحفاظ على نتاج الابداع المادى (١٨٦) .

(١٨٥) المصدر السابق ص ٥٦ .

(١٨٦) المصدر السابق ص ٨ — ١٠ .

وهذا كله يتطلب قيادة . يتطلب طبيعة تعقد العزم وتشسير في الطريق ، تمضى في خصم الجاهلية المضاربة الاطناب في خصم الارض جميعا . تمضى وهى تراول نوعا من العزلة من جانب ونوعا من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة (١٨٧) . وتحتاج هذه الطبيعة الى « معالم في الطريق » لتعرف طبيعة دورها ، وحقيقة وظيفتها ، وصنب غايتها ، ونقطة البدء ، وتعرف حقيقة موقفها من الجاهلية ، اين تلتقى مع الناس وأين تفترق ، وتعرف خصائصها وخصائص الجاهلية من حولها : كيف تخاطب الجاهلية بلغة الاسلام ، وقيم تخاطبها ، ومن أين تلتقى هديها وكيف فالكتاب اذن يصف الخطوات العملية لتحقيق حاكمية الله وتدمير حاكمية البشر . بالرغم من أنه يحتوى على مجرد مبادئ عامة دون اعداد تنظيم انقلاب فعلى . يعطى فقط الروح والفكر ويجبر عن القصد والهدف .

وتتحقق هذه القيادة عن طريق تربية الصفوة وأعدادها . والصفوة ظاهرة تاريخية يمثلها جيل الصحابة ، هذا الجيل القرآنى الفريد . وليس المهم شخص الرسول كمركز للدعوة لا تقوم بدونه بل تربية جيل قادر على الاستمرار بها . وقد تحقق هذا الجيل في ثلاث مراحل عن طريق القرآن وتوجيهاته أولا الى المتصور في نفوس الصفوة ثانيا الى تغيير مجرى التاريخ .

أولا : كان النبع الاول هو القرآن . والحديث من آثار ذلك النبع . لم يكن الرصيد حضارة أو ثقافة أو علما أو مؤلفات أو دراسات . كانت هناك حضارة اليونان والرومان التى مازالت أو باتميش

عليها اليوم وكانت هناك حضارة الفرس والهند والصين وكلها تحيط بالجزيرة العربية كما كانت اليهودية والنصرانية تعيش في قلبها . ولكن للأسف اختلطت اليناابيع فضاعت الاجيال وأخذ المسلمون تصوراتهم من فلسفة اليونان والرومان وأساطير الفرس واسرائيليات اليهود ولاهوت النصارى ، واختلط ذلك بالقرآن تنتج علم الكلام والفقه والاصول وتخرجت اجيال تختلف عن الجيل الاول .

ثانيا : في منهج التلقى لم يقرأ الجيل الاول القرآن بقصد الثقافة والاطلاع أو التذوق والاستمتاع بل لتلقى أوامر الله وللعمل بها فور سماعها كما يتلقى الجندي في الميدان الامر اليومي . لذلك لم يطلب أحد الاستكثار من الايات بل طلب أقل قدر منها للعمل بها أولا . كان لدى هذا الجيل شعور التلقى للتنفيذ ، وكان هذا الشعور العملى هو الذى يفتح لهم فيما بعد آفاق المعرفة والبحث والاطلاع لم يكن المهم نقل التكاليف بل كان المهم اختلاط القرآن بذواتهم وتحويله الى منهج لحياتهم والى طاقة وحركة . ليس القرآن كتاب معرفة نظرية بل منهاج حياة « وقرآن فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » (الاسراء : ١٠٦) . نزل وفقا للحاجات المتجددة والنمو المطرد فى الافكار والتصورات وفى المجتمع والحياة وفقا للمشكلات العملية فى حياة المسلمين الواقعية . فالآية وصف لواقع ، وتحديد لمسار حركة ، واطلاق للطاقتات ورسم لمنهج عمل . منهج القرآن منهج للتنفيذ والعمل . وفى الطريق يلتقى الانسان بالجمال الفنى فى القرآن ، وبالقصص الرائع فى القرآن ، وبمشاهد القيامة ، وبالناطق الوجدانى بالتبعية وليس بالاصالة (١٨٨) .

ثالثاً : بداية عهد جديد في حياة الفرد ، وقلب من الجاهلية الى الاسلام وفصل بينهما * « كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضى المسلم في جاهليته وحاضره في اسلامه ، تنشأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلى من حوله وروابطه الاجتماعية * فهو قد انفصل نهائياً من بيئته الجاهلية وأتصل نهائياً ببيئته الاسلامية ، حتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطى في عالم التجارة والتعامل اليومي * فالعزلة الشعورية شئ والتعامل اليومي شئ آخر * وكان هناك انخلاع من البيئة الجاهلية ، وعرفها وتصورها ، وعادتها وروابطها ، ينشأ عن الانخلاع من عقيدة الشرك الى عقيدة التوحيد ، ومن تصور الجاهلية الى تصور الاسلام عن الحياة والوجود ، وينشأ من الانضمام الى التجمع الاسلامى الجديد بقيادته الجديدة ، ومنهج هذا المجتمع وهذه القيادة كل ولائه وكل طاعته وكل تبعيته » (١٨٩) *

والجاهلية الاولى التى قضى الاسلام عليها عادت من جديد « نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التى عاصرها الاسلام أو أظلم * كل ماحولنا جاهلية * تصورات الناس وعقائدهم : عاداتهم وتقاليدهم ، موارد ثقافتهم ، فنونهم ، وآدابهم ، شرائعهم وقوانينهم ، حتى الكثير مما نحسبه ثقافة اسلامية ، ومراجع اسلامية ، وفلسفة اسلامية ، وتفكيراً اسلامياً ، هو كذلك من صنع هذه الجاهلية » (١٩٠) *

وكما قضى الاسلام على الجاهلية الاولى فان المطلب الحالى هو القضاء على هذه الجاهلية الثانية * ثم لا بد لنا من التخلص من ضغط

° (١٨٩) المصدر السابق ص ١٩ - ٢٠ .

(١٩٠) المصدر السابق ص ٢١ .

المجتمع الجاهلى والتصورات الجاهلية والتقاليد الجاهلية والقيادة الجاهلية فى خاصة نفوسنا • • ليست مهمتنا أن نصلح مع واقع هذا المجتمع الجاهلى ولا أن ندين له بالولاء له • فهو بهذه الصفة ، صفة الجاهلية ، غير قابل لان نصلح معه • أن مهمتنا أن نغير انفسنا أولا لنغير هذا المجتمع اخيرا • ان مهمتنا الاولى هى تغيير واقع هذا المجتمع • مهمتنا هى تغيير هذا الواقع الجاهلى من أساسه ، هذا الواقع الذى يصطدم أصطداما أساسيا بالمنهج الإسلامى وبالتصور الإسلامى والذى يجرمنا بالقهر والضغط أن نعيش كما يريد لنا المنهج الإلهى أن نعيش • أن أولى الخطوات فى طريقنا هى أن نستعلى على هذا المجتمع الجاهلى وقيمه وتصوراتنا قليلا أو كثيرا لنلتقى معه فى منتصف الطريق • كلا أننا وإياه على مفترق الطريق • ونحن نسايره خطوة واحدة فاننا نفقد المنهج كله ، ونفقد الطريق وسنلقى فى هذا عنتا ومشقة ، وستفرض علينا تضحيات باهظة ، ولكننا لسنا خربين • اذا نحن شئنا أن نسلك طريق الجيل الاول الذى أقر الله به منهجه الإلهى ونصره على منهج الجاهلية (١٩١) •

ومن هذه المرحلة الرابعة والاخيرة فى حياة الامام الشهيد نستخلص النتائج الآتية :

١ - تأثرت الحركات الإسلامية المعاصرة - مع الاسف - بهذه المرحلة الرابعة والاخيرة فى حياة سيد قطب والتى لاتمثل الا جانبا ضئيلا فى فكرة نظرا لانها تعبر عن نفس المواقف النفسية التى مر بها الاثنان من اضطهاد وسجن وتعذيب وبراءة وظلم • توحدت فى هذه المرحلة

واسقطت من حسابها المراحل الأدبية والاجتماعية والفلسفية فأعضاؤها ليسوا أدباءً وليسوا ثواراً وليسوا فلاسفةً • ليس منهم من يمثل حركة الأدباء الثبان كما كان سيد قطب في بداية حياته مع جيله من الأدباء • وليس منهم من نزل في الشوارع دفاعاً عن الجياع والمحرومين والمعدات الخاوية كما كان ينادى الإمام الشهيد في المرحلة الاجتماعية وليس منهم من طور خصائص التصور الإسلامى أو أكمل مقوماته التى لم تسعفه حياته لإكماله أو حقق مشروعه لتقذ الغرب وأعاده كتابة التاريخ الإسلامى •

٢ — ان الحركات الإسلامية المعاصرة بعدما أصابها من اضطهاد وقهر نتيجة اخطاء في التحليل السياسى نشأ فيها صراع على السلطة مع النظم القائمة • هذه الحركات هى التى أثرت في الإمام الشهيد بعد أن انضم اليها وهو في خضم المرحلة الاجتماعية وهى التى فرضت عليه تجاربها النفسية ، تجارب الاضطهاد والظلم والبراءة ، فخرج فكره الأخير يعبر عن فكر المضطهدين واعاد قراءته فكرة القديم من خلال سيكولوجية الاضطهاد ، فأسقط تجربته الحاضرة تجرية الاضطهاد على ماضية الحافل بالنضال الادبى والاجتماعى والفكرى وأسقط كل شىء فيه حتى خرج « معالم في الطريق » ليكشف عن صورة هذه الحركات في نفسه وان لم يكن هو الذى اخرج هذه الصورة • بهذا المعنى لم يؤثر سيد قطب في الحركات الإسلامية المعاصرة بل هى التى أثرت فيه • ويبدل على ذلك ظهور هذه الفكرة واختفائها « في ظلال القرآن » الذى يشمل الخمسينات كلها اذ تختفى الفكرة في الاجزاء الاولى قبل أن يتحول فكره الى فكره المضطهدين ثم تعظم وتظهر الإشارة الى المودودى في الاجزاء التالية تباعاً ويظهر بصورة واضحة م ١٩ — الحركات الدينية المعاصرة

ابتداء من الاجزاء ٨ — ١١ (المجلد الثالث) أثناء الاعتقال الاول كما يقتبس منه فقرات طويلة في صلب تفسيره (ج ٨ ، ج ٩) .

٣ — ظهرت الحاكمة عند سيد قطب كاعلان تحرري للانسان فالحاكمة حركة انطلاق وتحرير وثورة وتغير ، حركة ابداعية شاملة من أجل حرية الاعتقاد وحرية الاختيار ولكن للاسف تحولت الحاكمة في الحركات الاسلامية المعاصرة الى كبت وقهر وطغيان وترمت وطاعة عمياء . كما ان التحرر عند سيد قطب يبدأ من الفرد وليس من الدولة في حين أن الحركات الاسلامية المعاصرة بدأت من الدولة وتركت الافراد في تخلفهم وترمتهم وعمائهم .

٤ — لا يفرق هذا التحرير العام بين مسلم وذمي ، بل الحاكمة تحرير للانسان من حيث هو انسان بصرف النظر عن عقيدته وجنسه وقد تراجعت الحركات الاسلامية المعاصرة عن هذا التصور الشامل ووقعت في الطائفية والحصار العقائدي وكأنها ليست مطالبة باعلان التحرير الشامل . وقد يشارك أهل الذمة في العالم الاسلامي في التصور الاسلامي للانسان والحياة والكون نظرا لمعايشتهم حضارة واحدة .

٥ — الجاهلية عند سيد قطب تشير أساسا الى النظم الغربية الاقتصادية الرأسمالية والشيوعية أو السياسية مثل القومية والوطنية أو الاجتماعية مثل العلمانية أو الفلسفية مثل الوضعية والمثالية والتجريدية ولا تشير الى مجتمعاتنا الحالية الا بقدر تبعيتها لهذه النظم الغربية وتقليدها لها — أما الحركات الاسلامية المعاصرة فانها جعلت الجاهلية مجتمعاتنا الاسلامية ونظمنا القائمة وحولت المعركة من الاسلام في مواجهة الغرب الى الاسلام في مواجهة المسلمين . وكان

نقد الغرب عند سيد قطب قائما على علم بالثقافة الغربية وانفتاح عليها وتقدير لجهدها ولظروفها في حين انعزلت الحركات الاسلامية المعاصرة عن ثقافة الغرب وعادتها عن جهل بها وبظروفها . واذا كان سيد قطب قد وصف المجتمعات الشرقية بأنها ملحدة لان تصورهما للانسان وللكون وللحياة لا ينبثق عن التصور الاسلامي فان الحركات الاسلامية المعاصرة جعلت هذا الوصف سلاحا فتاكا لانظمة الغير واتهاما يبيح دماء اصحابه .

٦ - اذا كان سيد قطب قد وصف علاقة المجتمع الاسلامي بالمجتمع الجاهلي على أنها علاقة تضاد وتعارض فان المسلمين لا ينغزلون عن المجتمعات الجاهلية الا شعوريا ولكنهم يظلون فيها الى أن تحين الفرصة لتغييرها لايسايرونها وفي نفس الوقت لايقاطعونها أو يبنزورون وينغزلون عنها بل « المخالطة مع التمييز » والاخذ والعطاء مع الترفع ، والمدع بالحق في مودة ، والاستعلاء بالايمان في تواضع . ولكن الحركات الاسلامية المعاصرة خاصة جماعة التكفير والهجرة حولت هذه العزلة الشعورية الى عزلة جسدية اجتماعية ومنعت كل صور التعامل مع المجتمع الجاهلي أمعانا في الانفصال . ان العزلة الشعورية التي يصفها سيد قطب شرط الاستعلاء وهي عزلة صحيحة خلاقة تمنع من الذوبان والتسطيح والتوضع ، تحولت الى عزلة مرضية وانعزال عن المجتمع وكراهية وعداء للاخرين . تحول الاستعلاء الى غرور ، والتمايز الى انفصال .

٧ - ظهرت النزعة العملية واضحة عند سيد قطب فالاسلام حركة ونشاط ، وجهد ، والمنهج الاسلامي منهج حركي يهدف الى التغيير والتطوير . ولكن الحركات الاسلامية المعاصرة حولت هذه النزعة العملية الى خروج فعلي على النظم القائمة والى نشاط دائم وحركة مستمرة تظهر وسط السكون والخراب . فالحركة الاسلامية حياة وتطور ونماء وحركة الجماعة الاسلامية موت وسكون وذبول .

خاتمة :

ويمكن تلخيص النتائج العامة للبحث كالآتي :

١ - كان سيد قطب مرآة لتطور الحياة الأدبية والاجتماعية والثقافية والسياسية في مصر . وعندما كانت الحياة في مصر طبيعية سليمة صحية حدث التطور لدى مفكرينا أيضا على نحو طبيعي سليم صحى . ولكن ما أن بدأت الازمة في حياتنا ، أزمة حصار الفكر والمفكرين ، والقضاء على حرية الفكر ، وتخوين كل الاتجاهات باستثناء اتجاه السلطة القائمة واضطهاد كل المعارضين نشأ فكر المضطهدين وظهر سلوك الجماعات السرية بين الحين والآخر في غياب حرية التعبير والنشاط العلنى . وقد وقع ظلم صارخ على نشاط الحركات الاسلامية المعاصرة . في كل أرجاء العالم الاسلامى وليس في مصر وحدها ضد جماعة الاخوان المسلمين في مصر ، والجماعة الاسلامية في باكستان . . . الخ . وطالما لم يرفع هذا الظلم ولم يرد الاعتبار لها سيظل فكر المضطهدين سائدا وسلوكهم مهددا ونشاطهم ساريا . ولما كانت جماعة الاخوان المسلمين هي التنظيم الام للحركات الاسلامية المعاصرة فان ما وقع عليها من اضطهاد منذ ١٩٥٤ ابان الثورة المصرية هو المنبع الرئيسى لهذه الحركات . ولن ينضب هذا النبع ما لم يرفع الحظر عن النشاط الاسلامى العلنى للحركات الاسلامية وتنظيمها الام خاصة وأنها تتمتع بشعبية من رصيدها النضالى الطويل منذ نشأة الجماعة في ١٩٢٧ في الاسماعيليه في مواجهة جنود الاحتلال حتى ١٩٥٤ أى أكثر من ربع قرن . ثم تحولت منذ ذلك الوقت الى نشاط سرى أو شبه علنى على مدى ربع قرن آخر . أى أنها اختلطت بتاريخ البلاد لحوالى نصف قرن وأصبحت جزءا من

تراثها الوطني • ولا يجدى غض البصر عن نشاط الجماعة أو تبرك الدعوة والتسامح مع أعضائها والسماح بنشاطها في الجامعات وذلك لأن سيف القانون مازال مسلطا عليها يستعمل اذا مازاد النشاط عن حده في نظر الدولة • فهو نشاط تحت سلاح الارهاب وليس نشاطا شرعيا قانونيا • وهو نشاط في رأى البعض كجزء من صفقة لتحقيق مصلحة مشتركة بين الحركات الاسلامية والنظام تقوم بتطهير الجامعات من الحركات اليسارية في مقابل تأييد الدولة لهذه الجامعات على أن يقتصر نشاطها في الجامعات • فاذا ما زاد النشاط عن الانفاق وخرج عن الموضوعات الدينية المحددة له الى الموضوعات السياسية هذبت الدولة • وكل طرف متربص بالآخر ، يظن أنه يستعمل الآخر لحسابه الخاص • فالدولة تستعملهم ضد خصومها السياسيين ، وفي نفس الوقت تراقب نشاطهم وتحجمه وتوجهه لتحقيق أغراضها الخاصة والجماعات الاسلامية تظن أنها تستعمل الدولة لحسابها الخاص نظرا لانها تقضى على الحاد وكفر الجماعات اليسارية من الجامعات والتي هي خصم الطرفين • وفي نفس الوقت تستعد وتكسب أنصارا ، ويظهر نشاطها وتصبح قوة جذب للشباب أمام ضعف الدولة • وتستعمل الجماعات الاسلامية الدولة مرحليا حتى يقوى نفوذها فتنتقض عليها لانها البديل الوحيد في ظنها ولكنها لاتود الاسراع بذلك كما أسرع التنظيم الام اعنى الاخوان المسلمون بمحاولة الانقضاض على الثورة في ١٩٥٤ واستعجال الحكم الاسلامي • وحتى يضيع جو الضعيفة التاريخي والرجية في الاخذ بالثأر مما لحق بالتنظيم الام من ظلم واضطهاد فانه لايكفى فقط السماح بالنشاط الاسلامي العلني بل يجب رفع الغبن القانوني عن الجماعة وذلك بالغاء قرار الحل ومصادرة الممتلكات وارجاع المركز العام لها وتعويض أسر الشهداء والمعتقلين والمعتدين ، والاعتراف

بدور الجماعة الوطنى والتربوى على مدى نصف قرن ، والافسيطل
هذا الجو النفسى « معمل تفريخ » لاعضاء جدد أكثر جذرية من الاجيال
السابقة .

٢ - أن غياب حرية التعبير لجميع الاتجاهات الفكرية والسياسية
المستقلة عن نظام الدولة وعما تسمح به ومالا تسمح به جعل نشاط
الحركات الاسلامية أكثر انتشارا لأنها أكثر قوة وأصلية وتعبيرا من
تراث الامة وأقرب اتصالا بجماهير الشعب ، وأن عدم وجود أى نشاط
فكرى أو سياسى هو الذى يسمح بسرعة انتشار الحركات الاسلامية .
لذلك فان اعطاء الجميع حق التعبير وحرية الممارسة يجعل الحياة
الثقافية والسياسية أكثر غنى وتنوعا ، فلا تبقى الحركات الاسلامية
الفارس الوحيد فى الميدان . وأن هذا التعدد فى الاتجاهات سيسمح
بالحوار الوطنى بينها جميعا ، وبأعمال العقل ، وبالاختيار عن روية
وتدبير ، ويقل الانفعال ، وتخف حدة التشنج . وهو الشرط الاساسى
لتحقيق الوحدة الوطنية التى تنصهر فيها الامة من خلال وحدة فكرها
أولا وجعل البرهان والدليل هو محك التعامل ومقياس الاختيار .

٣ - أن تدخل الدولة فى الحوار الوطنى بين الاتجاهات المختلفة
ونصرة فريق على فريق أو تبني اتجاه وتخوين كل الاتجاهات الاخرى
ومطالبة الجميع بتبرير ما اختارته وتبنيه يقضى على حرية الفكر بالقضاء
على المساواة بين الاتجاهات فى القوة وجعل البرهان والدليل والحجة
وحدها هى وسيلة التعامل وليس الاعتقال والادانة والاثام . ويكون
مقياس نجاح كل اتجاه هو مدى اقناعه الجماهير بشرعيته ومدى
انجازاته على مستوى الواقع فى المعارك الاجتماعية والسياسية
والاقتصادية . فلم تتحول الحركات الاسلامية الى معارضة للنظام

الا بعد أن انصرت عن الممارك الاجتماعية بالاعتقال واخراجها عن الممارسة الوطنية كما حدث لسيد قطب وهو في خضم الحركة الاجتماعية في أوائل الخمسينات واخراجه منها بالاعتقال الاول في ١٩٥٤ وعلى هذا النحو يضيع فكر المصطفيين ومايتسم به من سرية وباطنية وعزلة وعدوانية ويتحول الى فكر شرعى علنى متجه نحو الخارج مفتوحا على الآخرين معاورا كافة الاتجاهات المعارضة .

٤ - تطوير الفكر الدينى المعاصر الذى بدأ بداية طيبة عند الافغانى والكواكبي بمناهضة الاستعمار والاقطاع والتسلط والظلم والطغيان وتحويل الاسلام الى حركة ثورية للمسلمين تحافظ على أصالتهم ووحدتهم . ولكن للأسف خبا هذا الفكر الى النصف عند محمد عبده ثم خبا النصف الى النصف عند رشيد رضا . ثم حاول أن ينهض من جديد على يد حسن البنا وهو تلميذ رشيد رضا ثم سيد قطب لاحقا بالافغانى من جديد. ولما كان من عيوب الفكر الاصلاحى هو شجاعته على الواقع وتقليديته فى الفكر فان تطوير الفكر الاصلاحى النظرى ودفعه خطوات أكثر نحو التنوير الدينى ومايمثله من استقلال للعقل وحرية الارادة ، والاخذ بأسباب القوة والعلم والتقدم ونظام المشورى يسمح بتطور الفكر الدينى من داخله وتتم حمايته من التمسب والتشنج والتصلب والعدوانية والعزلة . وما أسهل أن يتم ذلك . فمن الملاحظ مثلا فى فكر الامام الشهيد أنه يغلب عليه التكرار ، تكرار الحدىس الواحد وترديد نفس الافكار . كما يلجأ الى الخطابة دون أحكام نظرى لبناء الافكار وهو ما يحدث أيضا لدى الحركات الاسلامية المعاصرة . كما يغلب على الحاكمة التصور الشيبى لها . فالحاكمة والخلافة والالوهية

عقيدة « من خارج النطاق الأرضي ومن خارج المحيط البشري » (١٩٢) ••
حقيقة جاءت الى البشرية من مصدر رباني من وراء الواقع البشري
ومن وراء الوجود المادي مما يوقع في الشيوقراطية والتسلطية لاغفال
مصالح الناس ووضعية الشريعة • وما أسهل العودة الى الواقع كطرف
مقابل للالوهية والمنهج الاسلامي ذاته منهج واقعي • وما أسهل أن
يكون طريق معرفة الحاكمة ليس فقط هو الرسول بل أيضا العقل
والمصلحة • ومادامت ليس هناك قوانين في كل شيء فلا بد من الاستنباط
والاجتهاد وبالتالي لا بد من معرفة كيفية عمل العقل البشري في الواقع
البشري •

أنه يصعب نقد مصلحة البشر ودافعهم كمصدر مستقل للتشريع
لان مصلحة البشر متضمنة في شرع الله • ولكن المهم معرفتها بمنهج
واقعية واحصائية سماها الاصوليون القدماء تحقيق المناط وتخريج
المناط وتنقيح المناط أو السبر والتقسيم ••• الى آخر ماقلوه في مناهج
استنباط العلل عامة والعلة المؤثرة أو المناسبة أو الملائمة خاصة • صحيح
أن الله يعلم وأن البشر لا تعلم ولكن العلم الالهي ذاته لا يعرف الا من
خلال العلم الانساني • فما التفكير الرباني ان هو الاعرض له من وجهة
نظر الانسان ان الحاكمة ذاتها ان هي الا مجرد مبدأ أو صورة في
حاجة الى مضمون واقعي في زمان ومكان معينين والمجتمع محدد في
التاريخ • فالمهم معرفة مدلولها بالنسبة للنظام الاقطاعي والراسماني
أو التسلط في واقع المسلمين الحاليين في مصر والحجاز أو إيران •
لا يكفي أن تكون الحاكمة مجرد شعار يكون الجانب السلبي فيه أكثر

من الجانب الايجابي أو يكون الرفض فيه أكثر من القبول بل تكون مضمونا وبرنامجا للعمل الوطنى تبدأ بتطوير الواقع وبالتعامل مع ما هو موجود أى إعادة تفسير الالوهية والربانية بالواقعية والايجابيه وكلها من خصائص التصور الاسلامى . فاذا حدث تطوير سيد قطب وروافد الفكر الدينى المعاصر مثل حسن البنا والمودودى من الداخل أمكن الاقلال من هذا الجانب الغيبى الالهى الذى يعتمد على الصفوة وتغليب الجانب الواقعى الانسانى الذى يعتمد على الجماهير وقدراتهم . وبالتالي يمكن أيضا معرفة مضمون النظم الجاهلية والفرق بينها وبين النظام الاسلامى وهما مجتمعان متعاوضان أم هناك درجات بينهما ، ويكون حنيئذ المطلوب هو زيادة النظام الاسلامى والاقلال من النظام الجاهلى فيحدث التقدم فى المجتمعات الاسلامية دون هدمها أولا من أجل إعادة بنائها ثانيا : لا يمكن اذن ايقاف نشاط الحركات الاسلامية المعاصرة التى تستعمل للعنف الا بتطوير فكرها من منابعه الاولى .

٦ - اظهار اليسار الاسلامى وتقوية الاسلام الثورى حتى يظهر البديل الاسلامى لتفسير الجماعات الاسلامية وحتى يجد الشباب نلا الحسينيين الاسلام والتقدم ، الايمان والتنمية ، الشعائر والتعبير الاجتماعى . العقائد والعدالة الاجتماعية ، الدين والثورة ، ولكن للاسف هذا التيار ، وهو الوحيد القادر على احتواء الجماعات اليسارية والجماعات الدينية ، فى وقت واحد ، هو فى نظر الدولة ماركسيه مقنعة متخفية تحت ستار الدين ، وفى نظر الجماعات الاسلامية ذاتها ماركسيه صريحة وفى نظر الجماعات الماركسيه مشروع مستحيل أو على أكثر

تقدير نقص في الشجاعة والممارسة الفعلية هي التي ستحيله الى ماركسية فعلية .

٧- الحركات الاسلامية المعاصرة هي في النهاية مسؤوليتنا نحن كباحثين ومثقفين ومواطنين . فهي حتمية ماحدث في جيلنا من مآسى وأحزان . وقد تكون أيضا مسئولية الدولة أقبل من مسئولينا نحن باتباعها أساليب العنف والقمع ضد حركات هي المسئولة عن نشأتها . والعنف لا يولد الا العنف ، دائرة مغلقة لانهاية لايمكن ايقافها وكسرها الا من خلال مسئولية الباحث وقيام دولة تقوم على البحث والعلم . والدولة أكثر قدرة على التحليل والفهم من الجماعات الاسلامية . والاحتواء الطبيعي أكثر قدرة على التعامل مع الخصوم من الاصطدام والمناطحة .

المراجع : مؤلفات سيد قطب (مرتبة ترتيبيا زمانيا طبقا للطبعة الاولى) •

- ١ — الشاطيء والمجهول (بلا تاريخ أو ناشر) •
- ٢ — مهمة الشاعر في الحياة (دار الشروق)
- ٣ — المدينة المسحورة (دار الشروق)
- ٤ — طفل من القرية (لجنة النشر للجامعيين) •
- ٥ — اشواك (دار سعاد مصر)
- ٦ — التصوير الفني في القرآن (دار الشروق)
- ٧ — مشاهد القيامة في القرآن (دار الشروق)
- ٨ — النقد الادبي ، أصوله ومنهجه (دار الشروق)
- ٩ — العدالة الاجتماعية في الاسلام (دار الشروق)
- ١٠ — معركة الاسلام والرأسمالية (دار الشروق)
- ١١ — السلام العالى والاسلام (دار الشروق)
- ١٢ — في التاريخ ، فكرة ومنهاج (دار الشروق)
- ١٣ — دراسات الاسلامية (دار الشروق)
- ١٤ — هذا الدين (دار الشروق)
- ١٥ — المستقبل لهذا الدين (دار الشروق)
- ١٦ — نحو مجتمع اسلامى (دار الشروق)
- ١٧ — خصائص التصور الاسلامى (دار الشروق)
ومقوماته
- ١٨ — في ظلال القرآن (ستة اجزاء) (دار الشروق)
- ١٩ — تفسير آيات الربا (دار الشروق)

- ٣٠ — تفسير سوري الشورى (دار الشروق)
٣١ — الاسلام ومشكلات الحضارة (دار الشروق)
٣٢ — معالم في الطريق (دار الشروق)

وللاسف لم نستطع الاطلاع على المؤلفات الآتية أما لانها نفذت أو لانها غير موجودة داخل مصر أو لانها لم تصدر *

- ١ — نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر (نقد)
٢ — الاطيانف الاربعة (بالاشتراك مع اخوته الثلاثة) (نقد)
٣ — اخراج الروح (نقد)
٤ — فقه الدعوة (نقد)
٥ — كتب وشخصيات (١٩٣) (نقد)
٦ — معركتنا مع اليهود (١٩٤) (خارج مصر)
٧ — اسلام أو لااسلام (خارج مصر)
٨ — حلم الفجر (ديوان شعر) (لم يصدر)
٩ — لحظات مع الخالدين (لم يصدر)
١٠ — وطن ينهار (لم يصدر)
١١ — امريكا التي رأيت (لم يصدر)

وقد أعلن عن قرب صدورهما في الطبعة الثانية للعدالة الاجتماعية في الاسلام *

(١٩٣) طبع فيما بعد « كتب وشخصيات » أيضا في دار الشروق
١٤٠١ هـ — ١٩٨١ وهو يمثل المرحلة الادبية .
(١٩٤) وجدت نسخة في المغرب مطبوعة في دار الشروق ١٤٠٠ هـ —
١٩٨٠ م .

النهضة الإسلامية المعاصرة

(خطة بحث)

أولا : الجذور التاريخية للنهضة الإسلامية *

١ - تمتد النهضة الإسلامية الحديثة تاريخيا الى الاصلاح الدينى فى القرن الماضى بل ويمتد عند البعض الى القرن الثامن الهجرى الى ابن تيمية وتلميذه ابن القيم حتى محمد بن عبد الوهاب فى القرن الحادى عشر • وتصل الى مدرسة الافغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا وسعيد قطب والكواكبي وعبد القادر الجزائرى وعبد الحميد بنى باديس والبشير الابراهيمى • وقد تحول البعض منها الى حركات اجتماعية وسياسية مثل المهديّة والسنوسية ورابطة علماء المسلمين بالجزائر • نجح البعض فى تأسيس دول اسلامية مستقلة منذ محمد بن عبد الوهاب بينما لم يقدر البعض الآخر ذلك بالرغم من أثره البالغ على الحركات الوطنية التى انتسبت اليها مثل المهديّة • وانقطع فريق ثالث عن التواصل وظل رائدا فى مرحلة الرواد مثل الكواكبي •

كتبت هذه الخطة عام ١٩٨٠ بناء على د. ابراهيم سعد الدين من منتدى العالم الثالث من أجل اجراء بحث حول الموضوع بالتعاون مع جامعة الدول العربية وفى نفس الوقت الذى كان يعد فيه كتابا حول « الحركة الاسلامية » كجزء من مشروع « المستقبلات العربية البديلة » التابع لجامعة لجامعة الامم المتحدة • وقد عقدت بالفعل ندوة لذلك فى تونس عام ١٩٨٢ • وهذه صياغة ثانية من المسودة الاولى فى خريف ١٩٨٧ بعد ان اخذ أحد كبار الصحفيين النسخة الوحيدة المصورة من المشروع •

٢ — ومنذ هزيمة العرب في يونيو ١٩٦٧ بدأت مظاهر العوده الى الاسلام تأخذ شكلا فعليا في حياة الناس وممارستهم اليومية • كانت الدعوة قائمة باستمرار على مختلف العصور وفي أعماق الشعور الاسلامي ولكنها لم تظهر الى السطح الا بعد الهزيمة كمؤشر فعلى على صحة هذه الدعوة وعلى توقيتها • وقد ظهر ذلك على جميع المستويات : القيادة السياسية والمؤسسات الدينية ، والثقافية الشعبية • في صورتين :

(أ) أن البعد عن الله هو السبب الاول في الهزيمة •

(ب) أن العوده الى الايمان هو الطريق الى النصر •

٣ — وقد استرعت هذه الحركة انتباه المسلمين وغير المسلمين منذ انتصار الثورة الاسلامية في ايران ١٣٩٩ / ١٩٧٩ ، وتحديث العالم العربي عن صحوة الاسلام ، يقظة الاسلام ، الاحياء الاسلامي ، الاصولية الاسلامية • وصاحب ذلك في شتى أرجاء العالم الاسلامي وخاصة في مصر ظهور الجماعات الاسلامية كظاهرة في جرم الجامعات • واندلعت الحرب العراقية الايرانية ، وظهرت الاضطرابات في الحرم المكي •••• الخ كل ذلك ليحول الحركة الاسلامية من مجرد اصلاح ديني الى تغيير شامل في نظم الحكم وثورة على الاوضاع القائمة •

ثانيا : المظاهر المختلفة للنهضة الاسلامية •

وتبدو النهضة الاسلامية حاليا وعند البعض في عده مؤشرات مرئية حسية قد تكون كذلك بالفعل وقد لا تكون مثل :

١ — الجماعات الاسلامية ونشاطها في كل انحاء العالم الاسلامي

وعلى اختلاف مسمياتها ، الجماعة الاسلامية ، الحركة الاسلامية ، النهضة الاسلامية ، الدعوة الاسلامية ، الاصلاح الاسلامي ... الخ .
ونظرا لقدرتها على التنظيم وفي مواجهة تنظيمات سياسية بيروقراطية حكومية فانها تبدو نشطة وحاضرة في الشارع وبين الجماهير وكأنها تعمل بين أهليها وفي وطنها .

٢ - الشعائرية مثل الزى وخاصة الحجاب والنقاب ، وفصل الطلبة عن الطالبات ، وعدم السلام بالايدي بين الرجال والنساء ،
..... الخ .

٣ - كثرة بناء المساجد ، والآذان بمكبرات الصوت ، واقامة الصلوات داخل الكليات ، وتخصيص أماكن للصلاة للطلبة والطالبات ، وايقاف الاعمال الجارية أثناء أداء الفرائض ، وتحول المساجد الى دور للمناسبات وعيادات طبية ، ومدارس للتعليم ، وفصول للتقوية .

٤ - نشر كتب التراث ، ورواح الكتب الدينية ، وكثرة المعارض الاسلامية ، ومسابقات حفظ القرآن ، وتبادل المصاحف كهدايا ، وتعلق الآيات القرآنية وكتابتها على قطع البلاستيك وتعليقها في العربات .

٥ - انتشار المجلات الدينية ، وتأسيس الجرائد الدينية الملحفة بالجرائد الاسبوعية ، وتخصيص صفحات للفكر الديني .

٦ - كثرة البرامج الدينية في أجهزة الاعلام مثل : العلم والايمان . المصحف المفسر ، هدى النور ، والاعلان عن الصلوات أثناء البرامج الترفيهية ، والتواشيع الدينية والبداية بالقرآن والختام به .

٧ — المتابعة بتطبيق الشريعة الإسلامية ، وتكوين اللجان في مجلس الشعب لهذا الغرض ، والمعركة حول قاتون الأحوال الشخصية ، والصراع بين الدينية والعلمانية ... الخ .

٨ — ظهور الطائفية واشتدادها الى درجة الحرب الاهلية في لبنان ، والمتوتر الطائفي في صعيد مصر ، وازدواجيه الولاء الديني والوطني في كثير من أنحاء الوطن العربي في سوريا والعراق والخليج العربي .

٩ — الغزل بين القومية والاسلام ، ومحاولة أنصار التيار القومي أخذ الاسلام في الاعتبار كثقافة وحضارة وهوية قومية . فالاسلام عروبي أنزل للعرب وبلغة العرب ولتوحيد العرب .

١٠ — كثرة المؤتمرات والابحاث حول الهوية والتجريب ، الاصلية والمعاصرة ، والتراث والتجديد حيث يبرز الدين كعنصر رئيسي في الاشكال .

١١ — ظهور التزمّت الديني الفكري في إعادة تحريم « الفتوحات الملكية » لابن عربي وإعادة تكفير طه حسين « في الشعر الجاهلي » ، ومصادرة كل كتاب به فكر ديني مستنير ، وتحريم كل مجلة بها نقد للاوضاع القائمة .

١٢ — ظهور البنوك الاسلامية والانفتاح الاقتصادي على الغرب ، وشركات توظيف الاموال ، فالتزمّت الفكري يقابله انفتاح اقتصادي ، وكان الاول غطاءً المثالي وتشريع له .

ثالثا : العوامل التي ساعدت على ظهور النهضة الاسلامية *

وقد ساعدت على تكوين النهضة الاسلامية عدة عوامل أهمها :

١ — فشل الاتجاهات العلمانية في التحديث مما جعل الجماهير تعود الى ذاتها بعد أن سئمت وضع نفسها كتجارب لمذاهب الآخرين * وأشهرها ثلاثة :

(أ) الليبرالية العلمانية الغربية والتي ارتبطت في إحدى لحظاتها بالحركة الوطنية فقد أنتهت الى التغريب والقضاء على الهوية والولاء للآخر *

(ب) الاشتراكية العربية أو القومية العربية والتي سادت ابان الثورات العربية الاخيرة * وبالرغم من انجازاتها الضخمة من أجل التحرير الوطني والاستقلال الاقتصادي الا أنها جاءت كبديل عن الحركة الاسلامية ، وقامت باستبعاد هذا المنافس الشرعي الخطير من الحياة السياسية ، وظلت على الهامش أو في السجون في مصر وسوريا والعراق *

(ج) الماركسية في أفغانستان واليمن الديموقراطية أو في تحالف مع حزب البعث في سوريا والعراق وحصارها من جماهير الشعب ومن ثقافته الوطنية *

٢ — التحدي للأخر وهو الغرب ضد محاولاته لتشويه الحضارة الاسلامية بعد أن استنمر العالم الاسلامي ثم انحسر عنه * وييعن على هذا التحدي صورة الاسلام في الاستشراق وفي علوم الانثروبولوجيا الثقافية *

م ٢٠ — الحركات الدينية المعاصرة

٣ - قدرات الشعوب على أخذ مصائرهما بأيديها بدليل ثوراتها الاخيرة ونجاحها في التحرر من الاستعمار ثم اندلاع الثورة الاسلامية الكبرى في ايران ، وبقظة الجمهوريات الاسلامية في اواسط آسيا ، وانتشار الحركات والاحزاب الاسلامية النشطة في ربوع العالم الاسلامي .

٤ - المحافظة التقليدية كنتاج تاريخي مستمر منذ القرن الخامس حتى الآن وعلى مدى الف عام حيث ازدوجت الاشعرية بالتصوف ، ايدولوجية السلطة وايدولوجية الطاعة ، مما يجعل الدين الوعاء الطبيعي للحركات الفكرية والسياسية .

رابعا : خصوصيات الحركات الاسلامية .

بالرغم من وجود تيار عام يجمع بين كل حركات النهضة الاسلامية المعاصرة الا أن كل قطر اسلامي له خصوصيته التي تجعله متميزا عن القطر الآخر . ويمكن التمييز بين أربعة مناطق رئيسية :

مصر ، والسودان ، والصومال ، وتتميز هذه المنطقة بالآتي :

- (أ) تراث لبييرالى طويل واتصال بالغرب على مدى عدة أجيال .
- (ب) ظهور حركات اسلامية قوية ونشطة مثل الاخوان المسلمون .
- (ج) الناصرية فيها قوية خاصة في مصر ، حصيلة الثورة الحديثة .
- (د) رفض العنف ، والاتجاه نحو التغيير السلمى ، وفشل محاولات التغيير بالعنف .

(هـ) نشاط الحركة الشيوعية خاصة في السودان ، والتصام

الشيوعيين بالحركات الوطنية .

(و) انتشار الطرق الصوفية بين عامة الناس كعنصر
استقطاب رئيسي .

٢ — الشام (سوريا ، لبنان ، الاردن ، فلسطين) والعراق .
وتتميز هذه المنطقة الشمالية من شبه الجزيرة العربية بالآتي :

(أ) ظهور القومية العربية كمنافس للإسلام مما يسبب
أحيانا لدى السكان ولاء امزدوجا أو محاولة للاختيار أو التوفيق .
(ب) اشتداد العلمانية نظرا لارتباط المنطقة بالغرب الحديث منذ
مدة طويلة .

(ج) وجود كثير من المسيحيين خاصة في لبنان مما يجعل الولاء
للعروبة بديلا مطروحا باستمرار عن الهوية الاسلامية .

(د) خطورة الطائفية خاصة في لبنان وسوريا والعراق مما يؤدي
أحيانا الى الحرب الاهلية .

٣ — المغرب العربي (ليبيا ، تونس ، الجزائر ، المغرب ،
موريتانيا) ويمتاز بالآتي :

(أ) اتحاد الاسلام بالوطنية كما هو الحال في تونس والجزائر
والمغرب ، وغياب القومية كعنصر متوسط بين الاسلام والوطنية .

(ب) تحول الاسلام الى أسلوب حياة ، ونمط حضارة ، ثقافة
وفن ، كما هو واضح في العمارة العربية والموسيقى الاندلسية .

(ج) الارتباط بالشرق عند جماهير الشعب بالرغم من ارتباط
بعض المثقفين بالغرب مما يسبب خلفا بين الجماهير والقادة .

(د) ظهور بعض التفرقات العرقية بين البربر خاصة في الجزائر
والمغرب .

- (هـ) وجود الدولة القوية على مدى التاريخ خاصة في المغرب
- (و) ارتباط الاسلام بالطبيعة والحياة خاصة في المغرب أكثر من ارتباطه بالحلال والحرام كما هو الحال في المشرق
- (ز) عشق الثقافة الشرقية واللهجات الشرقية خاصة المصرية ، والتتلمذ على أيدي أساتذة المشرق • فلا توجد حركة مشرقية الا ولها ارتداداتها في المغرب •

٤ - شبه الجزيرة العربية • وتمتاز بالآتي :

- (أ) القبلية العشائرية ، وعدم وجود علاقات اجتماعية الا من خلال القبيلة •

(ب) اجتماع الثروة النقضية مع المحافظة الدينية جعل الاسلام يستعمل كأكبر مشرع وحارس للاستيلاء على الثروة •

(ج) مخاطر الثورة العربية أولا ثم الثورة الاسلامية ثانيا جعل النظم السياسية تمثل أداة تهر دفاعا عن نفسها •

(د) مخاطر الوهابية الجديدة في الداخل التي ترى البون الشاسع بين آراء محمد بن عبد الوهاب وما يجري حاليا في الحجاز •

(هـ) وجود بعض أنظمة أكثر ليبرالية وانفتاحا على أطراف شبه الجزيرة في الشمال (الكويت) والشرق (البحرين وعمان) والجنوب (اليمن) مما يجعل الوسط التقليدي محاطا بأطراف أكثر التصاقا بالحدثة •

(و) وجود الحرم الشريف في مكة وموطن ميلاد الرسول وذكريات الصحابة يجعل الحجاز قبلة للمسلمين جميعا ، ويعطيها نوعا من الزعامة الدينية •

(ز) وجودها وسط الصحراء جعلها أقل تعرضا للحدائثة وأكثر ارتباطا بالتقليد .

(ح) نظرا للثروة النفطية والحكم القبلي ، تركزت الثروات في أيدي العائلة الحاكمة والتي يضرب بها المثل في الغنى والنفرب والاسراف في نفس الوقت الذي يموت فيه الالاف من المسلمين جوعا وقحطا في تشاد وغيرها من المناطق الصحراوية .

هذه الخصوصيات تؤخذ في الاعتبار عند وصف الحركات الاسلامية المعاصرة كتيار عام حتى يظهر الجدل بين الخاص والعام .

هذا مجرد تخطيط عام في حاجة الى توثيق ، واطار شامل يحتاج الى مأسد الفراغات بالبحث العلمي الرصين والمسح الاجتماعي الدقيق .

الحركات الدينية المتطرفة

(ورقة موقف)

(1) هل فكر الجماعات الدينية « المتطرفة » هو الفكر الاسلامى

الصحيح ؟

يصعب الاجابة على هذا السؤال لسببين : الاول أنه يصعب التعرف على فكر الجماعات الدينية تعرفا علميا دقيقا نظرا لانها مازالت فى ايدى أجهزة الامن ، تعتبرها خطرا على الامن العام ، فى أحرار القضايا ، وفى ملفات السجون . والقدر الضئيل المعروف عنه لم يطبع طبعا علمية محققه حتى يمكن التحقق من مصادره ثم يقرأ من كفه المتخصصين للحصول على وجهه نظر متكاملة عنه ، والانطباعات العامة لدى بعض الباحثين عنه لا تكفى لتكوين رأى علمى دقيق . والثانى أنه لا يوجد شيء يسمى الفكر الاسلامى « الصحيح » لان الفكر الاسلامى نتاج التاريخ ، وحصيلة عدد من القوى السياسية والاجتماعية المتصارعة كما هو واضح فى الفرق الاسلامية ، وكلها شرعية ، تنتسب الى الاسلام ، وتعتمد على الكتاب والسنة كمصدر أساسى لها ، وتعلم قواعد التفسير ، وتخلص النية . والنصوص من الاتساع والتنوع الى حد أنها تسمح بكل هذه الاتجاهات والمعتقدات والنظريات أو كما يقول الشاعر « وكلهم الى رسول الله منتسب » . وعادة مايكون الفكر « الصحيح » هو فكر السلطة فى مقابل الفكر

اجابة على أسئلة فى الندوة الرابعة لبحث الحركات الدينية المتطرفة
بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية يوم الاربعاء ١٢/٥/١٩٨٢ .

« الضال » وهو فكر المعارضة • أو ينقلب الحال فيكون فكر المعارضة هو الفكر « الصحيح » وفكر السلطة هو الفكر « الضال » وذلك لتقويض السلطة والاحلال محلها فهو اذن سلاح ذو حدين • وغالبا مايصبح الفكر « الضال » بعد أن يصل الى السلطة هو الفكر « الصحيح » ويصبح الفكر « الصحيح » للسلطة بعد أن ينهار النظام هو الفكر الضال • فكلمة الصحيح اذن تقوية للذات واتهام الغير ، دفاع عن النفس ودرأ لاطثار الغير ، ويكون المك في النهايه ليس الى « الصحة النظرية » أو « الخطأ النظرى » بل لمن بيده الامر ولمن تكون السلطة ، ولمن يكون الحكم • وتاريخ البلاد الناميه وانقلاباتها المتكررة شاهد على ذلك •

ويؤيد ذلك مايعرف في العلوم الانسانية باسم « نظرية التفسير » سواء تفسير النصوص أو تفسير الظواهر ، وهي جزء من نظرية الفهم أو المعرفة بوجه عام • فلا يوجد معنى موضوعى للنص مستقل عن القارئ ، أو الفاهم ، يدركه الجميع في حياذ تام وبموضوعية كاملة • فهذا ادعاء وغرور انسانى ، وعود الى اعتبار فهمى الخاص فهو « الموضوعى » وفهم الآخرين هو « الذاتى » وبالتالي يكون فهمى هو « الصحيح » وفهمه هو « الباطل » • فما دام النص مكتوب فى لغة طابعها الاشتياه على فرض صحة النقل والرواية وطالما أن الانسان محدود بظروفه النفسية والاجتماعية والتاريخية فان تأويل النص يكون ضروريا للفهم • والتأويل ذاته انما يعكس ظروف الانسان ووضعه الاجتماعى عن طريق اسقاطها على النص فيظن الانسان أنه فهم النص « الموضوعى » فى حين أنه قرأ نفسه ، وعبر عن احتياجاته وفهم الفهم « الصحيح » وعندما يتطابق الموقفان الحيان ، الموقف الاول للنص ومعناه وليس النص هو الذى يعطى معناه للانسان • ويحدث

الفهم « الصحيح » عندما يتطابق الموقفان الحيان ، الموقف الاول
تذى خرج منه النص ، والموقف الثانى الذى يوجد فيه الانسان .
هذا التطابق بين الماضى والحاضر هو الذى يجعل الفهم ممكنا . وبالتالي
ذان فهم النص هو مجرد قراءة الحاضر فى الماضى أو التعرف على الماضى
فى الحاضر . فالحاضر هو الذى يعطى الماضى معناه . وانما يرجع
التخلاف فى التفسير أساسا الى خلاف فى المواقف الحاضرة المنفسية
والاجتماعية والسياسية والتاريخية .

ولما كان سلاح العقائد فى المجتمعات التقليدية من أمضى الاسلمة
ومن أقوى العوامل فى الحراك الاجتماعى فانه سرعان ما يتم استخدامه
من كافة القوى الاجتماعية والسياسية . كل منها يسقط أهدافه على
النص ويقرأها فيه . فالخلاف فى التفسير هو فى حقيقة الامر صراع
بين القوى الاجتماعية والسياسية ولا يوجد واحد منها « صحيح »
والباقى « باطل » الا لهذا الذى يحسم الصراع لحسابه ويستولى على
السلطة فيعم تفسيره ، ويفرز اتجاهه ، ويسود المذهب الرسمى للدولة
فى مقابل الاتجاهات الاخرى التى تصبح من قوى المعارضة المناهضة
للسلطة ويشهد على ذلك التاريخ القديم والحديث للفرق الدينية فقد
سادت « الاشعرية » كمذهب رسمى للدولة « السنية » فى مقابل فرق
الخوارج والشيعة أساسا والمعتزلة بدرجة أقل ، بعد أن حسم الصراع
بين الدولة الاموية من ناحية والشيعة والخوارج من ناحية أخرى
لصالح الامويين وانتهت المعارضة من الخارج ، ثم حسم الصراع من
جديد بين الدولة الاموية وأوائل المعتزلة لصالح الامويين وانتهت
المعارضة من الداخل .

ويتكرر التاريخ بالنسبة للصراع بين الدولة العلمانية القائمة التى

تقوم على الشرعية وبين قوى المعارضة الاسلامية الممثلة في الاخوان المسلمين أولا ثم في الجماعات الاسلامية ثانيا ، حزب التحرير الاسلامي التكفير والهجرة ، جماعة الجهاد الخ .

ومن التاريخ القديم يمكن اعطاء الامثلة الآتية :

١ - بعد انتصار الدولة الاموية ابتداء من يزيد واستقرارها بدأت تفرز عقائدها ضد معارضيها من الشيعة والخوارج أولا ثم من المعتزلة ثانيا . تصور علماءها التوحيد على أنه أساسا الايمان بالله ، قادر قدرة مطلقة ، وأنه يخلق الأشياء من عدم بالقدرة ، وأنه يسيطر على الطبيعة بالارادة ، وأنه موجود في كل مكان ، يرى ويسمع كل شيء ، لا يقف أمامه قانون ، ولا يستطيع أحد أن يعارضه ، كل شيء بمشيئته وبأذنه (١) .

وكان الهدف من هذا التصور هو اعادة البناء النفسى لجماعات المعارضة القائدة لجماهير المسلمين على الخوف من هذه القدرة المطلقة والارادة النافذة والتي تتوحد السلطة السياسية بها ، وتنفذ الى قلوب الجماهير من خلالها ، فتحثها على الطاعة والتسليم والرضا بالمشيئة والتي يصعب بعدها التمييز بين مشيئة الله ومشيئة السلطان . في حين أفرزت قوى المعارضة الداخلية من المعتزلة تصورا آخر يقوى في النفوس المعارضة والاستمرار في المطالبة بالشرعية في نظام الدولة ، وهو التصور الذي يجعل من التوحيد الايمان بالله كمبدأ عام شامل ، يتصف بصفات عامة وشاملة مثل « العدل » حتى يمكن به القضاء على

(١) هناك لوحة فنية على مدخل مبنى مباحث أمن الدولة بها عين مفتوحة مثل عيون قدماء المصريين ومكتوب عليها من أسفل « عين الله الشاهرة » .

تسلط الامويين وتكبرهم واعتلائهم رقاب الناس ، وأمام هذا المبدأ يتساوى الجميع ويعقله كل الناس •

٢ - كما أفرزت الدولة القائمة على الملائحية عقيدة القضاء والقدر ، وأن الانسان ليس له الخيرة من أمره ، وأنه كالريشة في مهب الريح ، وأنه كالجثة الهامدة يقبله الله كيف يشاء ، وأنه لا يستطيع من أمره شيئاً ، لا في حياته ولا في مماته • ثم خففت العقيدة بأخرى أكثر ذكاء لاحتواء المعارضة وهي عقيدة « الكسب » الاشعري التي تعطى للانسان قدرة على الفعل ولكنها مشروطة بتدخل الارادة الالهية حتى يمكن للفعل أن يتم في لحظة اتيان الفعل • ولكن ليس للانسان قدرة قبل الفعل أو بعد الفعل على أن ينتمه بنفسه • ومن ثم فهو غير مسؤول عن شيء ، وما لم تتدخل الارادة الالهية في فعله ، ويتعلق هو بها كتعلق الراكب بالمركبة فإنه لن يقدر على فعل شيء • وفي مواجهة هذه العقيدة أكدت قوى المعارضة الداخلية (المعتزلة) والخارجية (الخوارج) على حرية الانسان ، وقدرته على الفعل قبل الفعل وأثناء الفعل وبعد الفعل ، كما أثبتت مسؤوليته عن أفعاله الداخلية منها (مثل الهداية والتوفيق) أو الخارجية أى أفعال الشعور وأفعال الجوارح •

٣ - وأكدت الدولة القائمة دور الوحي والنبوة ، وطعنن في قدرة الفعل على الاستقلال بالرأى ، وأنه في حاجة الى وحي عليه من النبى ، فالنقل أساس العقل • ولما كانت سلطة التأويل للنقل ترجع الى الدولة نتج عن ذلك تبعية العقل للنظام القائم وبالتالي تمحي حرية التفكير • في حين أكدت قوى المعارضة العقيدة المضادة من أن العقل أساس النقل ، وأن العقل قادر على الاستقلال بالرأى ، والتمييز بين الحسن

والقبيح ، وادراك الغائية في الكون ، وأن الحسن والقبيح موضوعيان في الافعال والاشياء ، وليس مرتبطان بارادة خارجية ، ارادة الله أو ارادة السلطان ، وبالتالي يمكن دفع الوصايا عن الانسان والدفاع عن استقلال عقله وحرية ارادته •

٤ - كما أفرزت الدولة عقيدة أن هذا العالم لا يحكمه قانون ثابت ، وأن قوانين الطبيعة لا تقوى على شئ أمام ارادة الله المطلقة بدليل المعجزات ، وأن الشمس قد تشرق من المغرب وتغرب من المشرق باذن الله ، وأن الحجر قد لا يسقط ويظل معلقا في الفضاء باذن الله ، وأن السهم قد لا يصيب الرمية ويظل معلقا في الهواء باذن الله • وكما لا يوجد قانون ثابت في الدنيا كذلك لا يوجد قانون ثابت في الآخرة • فقد يعاقب الله المحسن ، ويثيب المذنب ، وقد يدخل المؤمن في النار ، والكافر في الجنة • في حين أكدت قوى المعارضة قوانين الطبيعة الثابتة ، وأنه لا تحدث معجزات الا طبقا لقوانين طبيعية أخرى ثابتة لا نعلمها حتى الآن ، وأن هذا العالم يسير طبقا لقانون ، وأن العالم الاخر أيضا يسير طبقا لقانون ، فيثاب المحسن ، ويعاقب المذنب ، ويدخل المؤمن الجنة والكافر النار وأننا نعيش في عالم يحكمه قانون • وبالتالي يرتبط الحاكم بالمحكوم برباط القانون وليس برباط مشيئة الحاكم المطلقة ، وحقه المطلق على المحكوم •

٥ - ثم نشرت الدولة عقيدة « الأرجاء » على لسان أهل السنة المرجئة وجعلت المسلم بشهادتيه بلسانه حتى ولو أضمر الكفر ، ويرجىء الحكم على أعماله حتى يوم القيامة فالعمل ليس جزءا من الايمان بل خارج عنه • كل من قال : لا اله الا الله محمد رسول الله ، أصبح جزءا من الامة الاسلامية • وبالتالي يمكن التغاضي عن عمل الحكام

حتى تسقط حجة الشرعية ، وانه لا فرق بين يزيد بن معاوية والحسين بن علي ، فالله يتولاهما يوم القيامة • في حين جعلت المعارضة خاصة الخارجية العمل جزءا لا يتجزأ عن الايمان ، وأن من لا عمل له لا ايمان له • والعمل وحده مقياس الايمان حتى يمكن الحكم على الحكام طبقا لاعمالهم وليس طبقا لاقوالهم •

٦ - وقد أصدرت الدولة حكما شرعيا من فقهاء أهل السنة بطاعة أولى الامر طبقا للآية المشهورة « ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » (المائدة ، ٥٩) مادام النظام قد استتب ، وملكت الدولة أسباب القوى والمنعة ، وأصبح أمل المعارضة ضعيفا في الوصول الى الحكم ، فالاعتراف بالامر الواقع هو الاجدى من التمسك بالشرعية النظرية (مالك بن أنس) • في حين أصرت المعارضة على الشرعية في صور مختلفة ضد حجة الامر الواقع ، فاستمر الخوارج في قتال أئمة الكفر ، وجعل المعتزلة « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » أصلا من أصول الدين حتى تستمر الامة في مواجهة الحكام ، وفصلوا في « عزل » الامام قدر تفصيلهم في « تنصيب » الامام (٢) •

هذه أمثلة من تاريخ الفرق الذي تعلمه الجماعات الاسلامية جيدا مما يجعلها استمرارا للخلاف القديم مع تغيير الظروف السياسية والاجتماعية من حيث الوقائع وان لم تتغير الاساليب • فالدولة القائمة لا شرعية لانها لا تحكم بالكتاب والسنة ولأن النظام الحالي

(٢) انظر مقالنا : « اليمين واليسار في الفكر الديني » الطليعة ، اكتوبر ١٩٧٦ • الجزء السابع : اليمين واليسار في الفكر الديني •

أتى نتيجة انقلاب عسكري ورث النظام العلماني القديم قبل ١٩٥٢ الذي أتى نتيجة للانفصال عن الخلافة الاسلامية وتمزيقا لها . وان عقائد الجماعات الاسلامية لتمثل قوى المعارضة في مواجهة عقائد الدولة التي تمثل النظام المستتب وتفرز المذهب السائد القديم ، الاشعرية ، بالاعتماد على فقهاءها الجدد ، مشايخ الازهر ، ويدل على ذلك الامثلة الآتية :

١ - تتمسك الجماعات الاسلامية الحالية بفكر فقهاء أهل السلف الذين قاوموا فقهاء السلطان مثل ابن حنبل وابن تيمية والذين انتهوا الى السجن ولاقوا شتى أصناف التعذيب . فقهاء السلف هم الحارسون للشرع ، المدافعون عن مصالح الامة ، المتصدون للحكام لم يكن نموذجهم من الفلاسفة أو المتكلمين أو فقهاء « الحيز والنفاس » أو الصوفية بل كان علماء الامة على مدى التاريخ من الفقهاء والمصلحين من السلف والخلف منذ أحمد بن حنبل حتى سيد قطب . فقد تمثلوا فكر المعارضة في مواجهة فكر الدولة .

٢ - قرأت الجماعات الاسلامية نفسها في التاريخ ، ووجدت في « مجموعة فتاوى ابن تيمية » خير معبر عن حاضرها . فقد كان حكم المنتار اسلاميا في مظهره لا اسلاميا في جوهره « يحكمون بشريعة مغلقة من الديانات السابقة اليهودية والمسيحية والوثنية ومن الشريعة الاسلامية » . وقد أفتى ابن تيمية بكفرهم ووجوب قتلهم . وهو نفس الحال اليوم ، وحكام اليوم الذين لا يحكمون بالشريعة وان كانوا يحرصون على مظاهر الاسلام مثل الشهاداتتان ، والشعائر ، وبناء المساجد ، فتتار الامس مثل مسلمي اليوم ، وحكام اليوم مثل جنكيز خان !

٣ — ظهرت فكرة « الحاكمية » تأكيدا للشرعية في مواجهة النظم
اللاشرعية القائمة كما كان الحال بين الحسين ويزيد ، والخوارج
والشيعة في مواجهة الدولة الاموية • فالحاكمية تمثل سلاح المعارضة
العقائدى في مواجهة النظام القائم ، وتقوضه من أساسه لانه لا يحكم
بشرع الله •

٤ — ورفض الموالاتة للكفار والمشركين والصليبيين انما جاء نظرا
لان النظام القائم قد والا هم على حساب المؤمنين ، فاعترف بالصهيونية ،
وحالف الصليبية ، وعادى المسلمين ، وهو محرم بنصوص القرآن
والحديث التى تحرم الموالاتة مثل : « يأبىها الذين آمنوا لا تتخذوا
اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه
منهم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين » (المائدة ، ٥١) • وابرار
التعارض بين المؤمنين والكفار ، بين الاسلام والجاهلية انما جاء نتيجة
لتمسيح الامور ، والقضاء على الهوية الوطنية •

٥ — ان اعتبار القلة المؤمنة هى القادرة على تغيير النظام انما
جاء نتيجة للاوضاع القائمة التى تعتمد على الكم دون الكيف ، ولكنه
كم كغشاء النحل ، وقد كان ذلك سبب هزيمة المسلمين بحفنة من اليهود •
والقرآن ينص على الكيف في مواجهة الكم ، فالقلة المؤمنة خير من الكثرة
الكافرة •

٦ — واذا كان الامل يعود في قلوب المسلمين بفضل الجماعة
الاسلامية من أجل اعادة الدولة الاسلامية طبقا لحركة التاريخ ،
ونبؤات الرسول فانما ذلك كرد فعل على هزائم المسلمين وروح اليأس
والاستسلام أمام أعداء الامة •

لا يوجد اذن فكر صحيح ، وفكر خاطيء ، بل يوجد فكر في ميدان الصراع بين القوى الاجتماعية والسياسية المتعارضة ، ومدى تعبير كل منها عن الشرعية •

٢ — ما معنى ومدى امكانية تطبيق الشريعة الاسلامية ؟

« تطبيق الشريعة الاسلامية » شعار ينادى به فريقان • الاول الدولة القائمة ، والثانى الجماعة الاسلامية المعارضة ، شعار يرفعه الحاكم ، وشعار يرفعه المحكوم • وعند كل فريق له معنى معين ، واستخدام خاص ، وهدف يرمى اليه ، كل طبقا لموقفه من الحكم ، الاول لتدعيم شرعيته والثانى لانتزاع هذه الشرعية وتقويضها • وقد رفع هذا الشعار فى الآونة الاخيرة من جانب النظام على النحو الاتى :

١ — احتياج النظام القائم الى مزيد من الشرعية بعد أن قل رصيدها التاريخى من الشرعية الثورية كما كان الحال فى الستينات ، وبعد صراع على السلطة واقتضاء أحد أجنحتها الذى كان يمثل هذه الاستمرارية التاريخية ، وبعد اشتداد المعارضة السياسية أولا والدينية ثانيا ضد سياسات النظام • ولما كانت الشرعية الرئيسية فى البلاد وللمدين وللشريعة الاسلامية ، فقد لجأ النظام لهذه الشرعية الدينية فى وجدان الناس لتدعيم شرعيته السياسية الخاصة ونظامه فى الحكم باعلان التزامه بها •

٢ — الزايدة على المعارضة الدينية المثلة فى الجماعات الاسلامية ، والاسراع برفع شعارها حتى لا يكون لها مبرر لوجودها وحتى لا

تستجيب الجماهير لندائها مادامت الدولة قائمة على تنفيذ هذا المطلب بما لها من قوة وسلطان ومجالس تشريعية ولجان وبنود في الدستور ، وتصريحات للقادة ، خاصة اذا كان سلوك رئيس الدولة ومظاهره كلها اسلامية (٣) .

٣ - تبرئة الذمة ، ذمة الحكام ، أمام الناس ، بأنهم مخلصون للإسلام ، ويسعون لتطبيق الشريعة حتى يمحي مبرر وجود أية حركة اسلامية تتنادى بهذا المطلب ، خاصة وأن الحكام يعلمون مدى التخلف في الوعي السياسي للناس . فتفتتح بأن الحكام قد أدوا واجبهم وأن الباقي على الله ! وقد تكون تبرئة الذمة أمام الله أيضا ، فقد قام الحكام بمحاولة تطبيق الشريعة ولكن الواقع كان أقوى منهم ، وانما الاعمال بالانبيات وكأن الله تخفى عليه مالا ترى الا عين وما تكن الصدور !

٤ - البعد عن الجانب السياسي والاجتماعي في الشريعة الاسلامية دفاعا لا شعوريا وأحيانا شعوريا عن النظام القائم واللجوء الى قانون الاحوال الشخصية فتصول فيه الدولة وتداول ، وتقييم المعارك ، وتعقد الندوات ، وتستفتى الكبار ، وتدخل فيه الجمعيات النسائية ،

(٣) لذلك كان سؤال المحققين باستمرار في قضية اغتيال الرئيس السابق عن مدى الخلاف بينه وبين الجماعات اذا كان قد كون لجنة في مجلس الشعب لتقنين الشريعة ، وجعلها المصدر الرئيسي للتشريع في الدستور ، وجعل الإسلام الدين الرسمي للدولة . الخ . انظر دراستنا « الاصولية الاسلامية » جذورها التاريخية ، وروافدها الفكرية ، وانفجاراتها السياسية (دراسة في التحقيقات حول اغتيال الرئيس) الجزء الخامس . م ٢١ - الحركات الدينية المعاصرة

وتكثر حوله الافلام ، مبادام الامر لا يتعدى نطاق الزواج والطلاق ،
وتتعدد الزوجات ، والحضانة ، وملكية الشقة ، ومقدار المهر والصداق •

أما النظام الاسلامى السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، نظريته
فى الملكية ، وفى الاجور وفى الزراعة وفى الصناعة ، نظريته فى الشورى
والمبيعة ، نظريته فى وجوب خلع الحكام والخروج عليهم ، نظريته فى
استقلال القضاء وعدم جواز عزل القاضى ، نظريته فى الحسبة والرقابة
على الاسواق ، نظريته فى بيت المال والخراج ، نظريته فى تحرير أراضى
المسلمين وجهاد الكفار والمعتدين • كل ذلك غير مقصود بتطبيق الشريعة
الاسلامية !

٥ — انتفاء الحدود والدعوة الى تطبيقها ، وكأن الشريعة
الاسلامية لا تحتوى الا على العقوبات والردع والاقتصاص ، والقتل ،
والرجم ، والجلد ، والتعذيب ! وكأن القصد هو ارهاب الناس وتخويفهم
من الشريعة الاسلامية وليس تطبيقها ! أما اعطاء حقوق الناس قبل
مطالبتهم بواجباتهم ، وايجاد عمل للعاطل وقوت للفقير قبل قطع
يد السارق ومنع الاثارات الجنسية فى الصحف وأجهزة الاعلام وتوفير
سبل استقرار الحياة الزوجية قبل رجم الزانى فكل ذلك غير وارد
وكان الغاية من تطبيق الشريعة هو عقاب الناص والقصاص منهم ! أما
قطع يد الحاكم اذا سرق ، ورجم الشريف اذا زنا فذلك أيضا غير وارد
لان تطبيق الحدود موجه ضد الاغلبية أولا دون الاقلية ، وأن تحريم
شرب الخمر على المصرين المسلمين وليس على الاجانب السياح بما
فيهم العرب المسلمون تنشيطا للسياحة ! وان قتل المرتد اذا أعلن كفره

وامتنع عن الصلاة وأداء الشعائر مثل ما تفعل المعارضة السياسية
الملحدة !

٦ — الغاية اذن من رفع هذا الشعار « تطبيق الشريعة الاسلامية »
هو الحد من التغيير الاجتماعى ، وايقاف عملية التطور الطبيعى
للمجتمعات ، والدفاع عن النظام القائم وارهاب الناس ، والمزايدة
على الجماعات الاسلامية ، والتغطية على المشاكل الاجتماعية والسياسية
الجوهرية والمتستر عليها ، والابتعاد عنها لانها حكر على السلطة
تقرر فيها ما تشاء أو لانها سياسة صرفة ولا سياسة فى الدين ولا دين
فى السياسة أو لانها من عند الله الحاكم فيها بما يشاء ! يستخدم
هذا الشعار فى معرض « النفاق » الدينى مما يسبب غضب الجماعات
الاسلامية وثورتها على من يتمسح بالدين لضرب الدين *

ولما كانت المجتمعات الاسلامية كلها حكاما ومحكومين تمر
بمرحلة من التخلف ، نظرا لطبيعة المرحلة التى تمر بها بعد ألف
عام من سيادة الاشعرية المزدوجة بالتصوف منذ هجوم الغزالي على
العلوم العقلية والدعوة للتصوف كطريق للخلاص حتى الدولة العثمانية
وقبيل الاصلاح الدينى الاخير ، فان « تطبيق الشريعة الاسلامية »
يعنى عند الجماعات الاسلامية المعارضة نفس المعنى الذى يعنيه عند
الحكام بهدف سياسى آخر وهو تفويض النظام لما كانت الدولة تحكم
بالقانون الوضعى وليس بالشريعة الاسلامية بالرغم مما تضعه الدولة
فى دساتيرها وقوانينها ومؤسساتها من مظاهر للنفاق الدينى * ونظرا
لنقص فى وعيها السياسى والاجتماعى فان تطبيق الشريعة الاسلامية
ظن أيضا مجرد تعبير عن الحاكمة استنباطا من مبدأ عام دون أن

يقدم برنامجا اجتماعيا سياسيا محددًا لمعرفة مدى اتقائه واختلافه مع برامج الاتجاهات والقوى والاحزاب الاخرى • مما يدل على أن هذا الشعار مازال موجها أساسا ضد النظام القائم كمعول لتقويض كيان الدولة • أى أن جانبه الهدمى أكبر بكثير من جانبه البنائى • وأن الرفض والمعارضة فيه أقوى من الوضع والاثبات •

ومع ذلك فإن تطبيق « الشريعة الإسلامية » الذى لا ترفضه الجماعات الإسلامية لأنه يحقق شعارها بوعى سياسى حاضر ودون رغبة فى تقويض نظام الدولة القائم أو الثأر منها والذى لا ترفضه الدولة القائمة لأنه لا ينافسها فى السلطة ، ولا ييغى القضاء عليها بل يساعدها على تكوين مشروع قومى لها يحمى الشباب ، ويجدد طاقاته ، ويكون عونًا لها لا خارجا عليها ، هذا التطبيق يجمع بين مبادئ الإسلام ومتطلبات الثورة ، ويصنع الإسلام من خلال روح العصر ومطالب الجماعة ومصحة الأمة • ويعنى الآتى :

١ — تأسيس مجتمع يقوم على الحرية والديمقراطية تنفيذًا لقول الله « لا اكره فى الدين » وتأكيدًا على مبادئ الإسلام فى « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » ، ووظيفة « الحسبة » وهو ما يعنى بلغة العصر ضرورة المعارضة السياسية ، وحرية الصحافة ، وضرورة الرقابة على مؤسسات الدولة ، وانتخاب مجالس نيابية ، والتزام الحاكم بإرادة الأمة ومصحة الشعب • فأى قهر للحريات وأى منع للرأى ، وأى تكفير لاجتهاد يخرج عن الحكم الإسلامى •

٢ — تحقيق نظام اجتماعى يقوم على أكبر قدر ممكن من العدالة والمساواة • فمشكلة المسلمين الثانية ، بعد مشكلة القهر والتسلط

والطغيان ، هي مشكلة الفقر والجوع والحرمان وسوء التغذية حتى يضرب بمجتمعاتهم المثل في الفقر والغنى في آن واحد ، فقر الاغلبية وهلاكها من الجوع والقحط وغناء الاقلية وبطانتهم وتكديسهم الاموال في البنوك الاجنبية • فالمال مال الله على ما هو معروف في نظرية « الاستخلاف » أودعه كوديعة بين أيدي الانسان ، له حق التصرف ، والاستثمار ، والانتفاع ولكن ليس له حق الاستغلال أو الاحتكار أو الاكتناز • وما تعم به البلوى ، ويمس صالح المسلمين يكون مشاعا بين الناس ، ويوجه لصالح الامة مثل الماء والكلاى الزراعة والنار أى الصناعة • أما التجارة فكما يقول ابن خلدون لا تزيد انتاجا ، ومن يعيش عليها يكون طفيليا على المجتمع • لا يسمح الاسلام بنظام اجتماعى يقوم على التفاوت بين الطبقات ، فالمجتمع الواحد الذى فيه انسان واحد جائع تبرا ذمة الله منه •

٣ - توجيه الامة كلها الى الوقوف في مواجهة أعدائها ، الاستعمار والصهيونية • فقد أخذ الاستعمار أشكالا متعددة منذ الحروب الصليبية حتى أشكال الاحلاف العسكرية والتسهيلات والمعونات المالية • والصهيونية مازالت تحتل أراضى المسلمين بالتعاون مع الاستعمار • وبالتالي تكون المواجهة بين الحق والباطل ، بين العدل والظلم بين الايمان والكفر ، بين الاسلام والجاهلية • وينحول هذا التقابل في الوعى الاسلامى المعاصر الى وجهته الصحيحة ضد الاعداء فى الخارج بدل أن يتوجه نحو قسمة المجتمع فى الداخل الى قسمين وشق الجبهة الوطنية ، وأحداث الفتن ، وضياع الشوكة •

٤ - تجنيد الجماهير لتحقيق هذا المشروع بدل التسبيب والتنميع

السعى وراء الدنيا وحظوظها أو الهجرة وترك البلاد ، وبالتالي يكون للجهاد معنى ، ويتحقق ككريمة كما تنادي به الجماعة الاسلامية ، وتجنّد طاقات الشباب ، ويتدرب على القتال للذود عن البيضة ، وحماية الديار ، وتقوية الثغور ، وحراسة الحدود ، وتشديد الحصون ، وفكويين المكتائب وارسال السرايا ، والنداء للجهاد ، وطلب الشهادة •

٥ - توحيد الامة بعد أن تقطعت أوصالها ، وتمزقت اربا حتى يسهل ابتلاعها من أعدائها « أن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » (الانبياء ، ٩٢) • وبالتالي تتحقق الوحدة بين مشروع الامة القومية في قيام الوحدة بين شعوب المنطقة وبين مطلب الجماعة في توحيد الامة الاسلامية ، ويتوحد مطلب الواقع ومطلب المبدأ ، فلا خلاف بين القومية والاسلام ، فالوحدة القومية أحد مراحل الوحدة الاسلامية الشاملة •

٦ - الدفاع عن استقلال الامة وحيادها وعدم انحيازها شرقا أو غربا ، فالشرق والغرب كلاهما يريد نهب ثروات المسلمين واحتلال أراضيهم ، والقضاء على هويتهم ، ومحو تاريخهم • وبالتالي يتحقق مطلب الدولة في عدم الانحياز ويتحقق مطلب الجماعة الاسلامية في مواجهة الامة لاعدائها « لا شرقية ولا غربية » وقد كانت الحركة الاسلامية أول من اكتشف فكرة الاسيوية الافريقية وعدم الانحياز(١) •

وعلى هذا النحو يصبح شعار « تطبيق الشريعة الاسلامية » ممكن

(١) مالك بن نبي : فكرة الاسيوية الافريقية •

التطبيق لا خلاف عليه بين الدولة أو أى نظام قائم وبين الجماعة الإسلامية الحالية أو أية دعوة إسلامية في المستقبل (٥) .

٣ - ماهى العوامل التى أدت الى ظهور الجماعات الدينية «المتطرفة»؟

ان الحكم « بالتطرف » على الجماعات الإسلامية هو حكم مسبق أو حكم قيمة يحتوى على الرغبة فى اذانة الممارسة لصالح النظام السياسى القائم . فالتطرف هنا يعنى الخروج على النظام لما كان طاعة النظام هو مقياس السلوك الاجتماعى الرشيد ! وأحيانا يكون التطرف رد فعل على تطرف آخر ، فالتطرف فى الجهاد رد فعل على التمايع والمصالحة والتسليم بأهداف الأعداء ، والتطرف لصالح الفقراء رد فعل على نهب الأغنياء ، واستعمال العنف رد فعل على عنف مضاد تقوم به الدولة بأجهزتها القمعية أو بسيطرتها على وسائل الاعلام فتمنع الحوار ، وتقهو الرأى المعارض فلا يجد وسيلة أخرى للتعبير عن نفسه الا تغيير الوضع بالقوة .

ومع ذلك يمكن رصد بعض العوامل التى أدت الى ظهور الجماعات الإسلامية على النحو التالى : -

١ - ان المطلع على تاريخ الإسلام ويكون فى نفس الوقت غيوراً عليه شاباً طاهراً بفكرها وممارستها الحالية ، لم تغره مطامع الدنيا ، ولم تفسده أوضاع المجتمع ليحزن أشد الحزن ، ويشعر بالمرارة والاسى

(٥) وقد حاولنا تحقيق هذا المشروع فى « اليسار الإسلامى » انظر العدد الاول ، ١٩٨١ .

إذا ما قارن الماضي بالحاضر ، ماضى الاسلام التليد ، وحضارته الزاهرة ، ومجده وآثاره وفتوحاته وانتصاراته ، إذا ما قارن ذلك كله بأوضاع المسلمين اليوم ، بهزائمهم وتخلفهم ، بضياح دولتهم وشوكتهم ، بنظمهم التسلطية القائمة على القهر والطغيان ، وبأوضاعهم الاجتماعية المزرية ، ويتقدم غيرهم من الشعوب التي كانت تعلم من المسلمين بالامس فأصبحت سادة لهم اليوم يتعلم المسلمون منهم ، وينسون دينهم . هذه القراءة المتطهرة للتاريخ هي التي دفعت أعضاء الجماعة الاسلامية الى الانضمام الى أية دعوة تهدف الى العودة الى عزة الاسلام ، ونصرة المسلمين ، وتتجاوز أحداث العصر ، وتنتهي عصر الانهيار والانحطاط ، وتعيد الى الاسلام مكانته ودولته ، تحقيقا لنبؤة الرسول انه لا يصلح آخر هذه الامة الا ما صلح به أولها . وكلما ازدادت الازمات ، وتوالت الهزائم زاد الارتباط بالاسلام كمنقذ وحيد للمسلمين والشاهد في التاريخ والآثار . فلو اتبع الخلف آثار السلف لنهض من جديد ، وقام من كبوته . هذا الاحساس بدورة التاريخ هو الاساس الوجداني الذي تقوم عليه الصحوة الاسلامية في قلوب الناس والتي منها تتبلور الجماعات الاسلامية وتأخذ أشكالها الحالية التي تفرضها الظروف الوقتية في الماضي القريب .

٢ - ولقد قام الاصلاح الديني من نفس الدافع ولنفس الهدف . وبدأ بداية طيبة منذ الافغانى الذى حدد مشروع نهضة المسلمين وشروط قيام دولتهم بمواجهة الاستعمار في الخارج والتسلط في الداخل ، والدعوة الى وحدة الامة ، وجاهد لتحقيق ذلك المشروع ، وقامت حركات وطنية في كل أرجاء العالم الاسلامى ، وأسس في مصر الحزب الوطنى ، وقامت الثورة العراقية على مبادئه ، ودبت الحياة في الامة

الاسلامية من حديد ، ولكن الاصلاح الدينى هبط الى النصف عند محمد عبده بايثاره الوطنية الضيقة على الجامعة الاسلامية الشاملة ، وبتفضيله مناهج التربية والتعليم الطويلة المدى على مناهج الانقلابات السياسية وتغيير السلطة القصيرة المدى ، وبتراجعه عن الثورة العربية وتعاونه مع أعدائها فى الداخل وفى الخارج بعد أن انضم اليها وشارك فيها ، وتفرقته بين الدين والسياسة فى قوله المشهور « لعن الله ساس ويسوس » ! ثم هبط الى النصف مرة أخرى على يد رشيد رضا ، ووضع واقع المسلمين كله فى القرآن فى تفسير المنار بدلا من أن يضع واقع القرآن فى واقع المسلمين فتتفجر الثورة ، وتحول الاصلاح على يديه الى سلفية وقل ارتباطها بحياة الناس اليومية • وعاد الاصلاح من جديد يأخذ (١) دورة جديدة على يد حسن البنا تلميذ رشيد رضا فى دار العلوم من أجل اعادة اصدار المنار ولكن الصحوه الاصلاحية الجديدة ظهرت فى حركة « الاخوان المسلمين » عقائد واضحة بسيطة ، واسلام كلى شامل ، وتنظيم جماهيرى فعال ، وتدريب واعداد لجند الاسلام • واستطاعت الحركة الجديدة أن تفرض نفسها على المساحة الوطنية المصرية فى الاربعينات وفى أوائل الخمسينات ، وكانت احدى روافد الضباط الاحرار ، وقبل الثورة فى ١٩٥٢ كانت قاب قوسين أو أدنى من النصر لولا جماهيرية الوفد وشعبيته الكاسحة فى انتخابات ١٩٥١ • فالجماعات الاسلامية ، وليد الاخوان المسلمين ، استمرار لهذه الصحوه الاسلامية ولكن من خلال الصيغ والاشكال التى فرضتها الظروف •

(٦) حسن البنا : مذكرات الدعوة والداعية ص ٢٥٤ — ٢٥٥ الشهاب ،

٣ - ولكن بعد اضهاد الاخوان ابان الثورة المصرية (١٩٥٢ - ١٩٧١) وحدث أبشع صدام بين أنجح تنظيم سياسى حديث عقد آمال الامة عليه وأنجح تنظيم عسكرى تحققت الثورة عليه فى مارس ١٩٥٤ ظهر الاسلام والثورة نقيضين ، وتحول الاسلام الى داخل السجون ، يلقى أعضاؤه أبشع أنواع التعذيب البدنى والمعنوى ، فنشأ ثار مبدئى بين الاسلام والثورة ، وظهر الاسلام معاديا للثورة ، والثورة معادية للاسلام بصرف النظر عن أدبيات الدعاية حول الاشتراكية فى الاسلام التى كثرت فى الستينات ، وتحول داعية الاسلام الاول ، وأكبر مفكر شهده العالم الاسلامى منذ أبى الاعلى المودودى ، وهو الامام الشهيد سيد قطب ، تحول من « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » ومن « معركة الاسلام والرأسمالية » ومن « السلام العالمى والاسلام » حيث كان قد بدأ فى صياغة الاسلام الثورى أو الثورة الاسلامية كملتقى لكافة الاتجاهات الوطنية ، وكتبوتقة للحركة الوطنية المصرية فى أواخر الاربعينات ، تحول ذلك كله الى « معالم فى الطريق » ، وقسمة العالم الى أبيض وأسود ، والناس الى مؤمنين وكافرين ، والمجتمع الى اسلام وجاهلية ، تعبيرا عن « سيكولوجية الاضطهاد » وانه لا سبيل الى اللقاء أو التعاون أو التوسط بين الطرفين ، وانه لا بقاء لاحدهما الا بفناء الآخر ، وأن الحاكمة لله وليست للبشر ، وأن لا اله الا الله تحرير لوجدان البشر من رق الطاغوت ، وأن المنوط بتحقيق هذا المثل هم القلة المؤمنة ، الجيل القرآنى الجديد ، الصفوة المختارة (١٧) .

(٧) انظر بحثنا : اثر الامام الشهيد سيد قطب على الحركات الاسلامية

المعاصرة فى هذا الجزء .

وفي داخل السجون وعلى البرشى تكونت الجماعات الاسلامية من نقاش حول مصير الاخوان وأسباب محنتهم واضطهادهم ، واستحالة التعاون مع الدولة الكافرة أو نظم الحكم التي لا تقبل تطبيق شرع الله . فلولا اضطهاد الاخوان ، ولولا توقف نشاطها لما خرجت الجماعات الاسلامية شاردة على الحركة الاسلامية وتعتبر عن ظروف اضطهادها .

٤ - ولما احتاجت الدولة الى الشرعية ، واحتاج النظام الجديد في مايو ١٩٧١ الى نوع من التأييد الشعبي خاصة وأنه لم يكن له رصيد تاريخي كما كان للنظام في الستينات ، اعتمدت على أعداء النظام السابق أي الاخوان المسلمين وشكلهم الجديد الذي تكون داخل جدران السجون أي الجماعات الاسلامية . وكما كشف النظام الجديد عن مرحلة من مراحل الردة عن النظام السابق ازداد اعتماده على ضحاياه تدعيما لاركانه ضد معارضييه من الطلاب آخر أجيال الناصرية في الجامعة . وحدث نوع من اتفاق المصالح بين الدولة والجماعات ، الدولة تستخدم الجماعات لتصفية الجامعة من التكتلات والتنظيمات والاندية الناصرية والنقدية بوجه عام أي ضد خصومها السياسيين ، والجماعات تستعمل الدولة وسلطانها تأكيدا لسلطتها ، وتقوية لنظامها ، ونشر لدعوتها ، وتأسيسها لجماعتها ، فنشأت الجماعات بتدعيم من الدولة وعلى مرأى ومسمع منها .

٥ - استعملت الدولة للمحافظة الدينية خاصة بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ كدليل على النصر وأحد أسبابه لما كان البعد عن الدين أحد أسباب هزيمة يونيو ١٩٦٧ . وظهرت الحمية الدينية في أجهزة الاعلام . وكثرت الشعائر والمظاهر ، واقامة الشعائر ، وزيادة البرامج الدينية ،

وصفحات الفكر الدينى ، وصاغت الدولة أيديولوجية لها تعتمد فى أساسها على الايمان ، وأطلقت شعار « العلم والايمان » ، وركزت على قيم الاصاله والصلابة ، ودعت الى احترام التقاليد ، وسنت قانون العيب •

٦ - ولكن منذ معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية فى مارس ١٩٧٨ انتهى عصر الوفاق بين الدولة والجماعات الدينية وبدأ الخلاف • فقد أراد كل فريق أن يقوم بدوره الخاص ، وتحقيق أهدافه الخاصة ، استمرار الدولة استعمالها لتأييد سياساتها ضد خصومها السياسيين واستمرار المجاعات فى الحصول على تأييد الدولة • فقد أدت المعاهدة واستمرار الجماعات فى الحصول على تأييد الدولة • فقد أدت المعاهدة والقوى الوطنية فى مصر على رفضها سواء الليبراليون (الوفد) أو الناصريون أو الماركسيون أو الحركات الاسلامية • وكان هناك حد للتعاون بين الدولة والجماعات لا يصل الى حد التعاون على التسليم بالصهيونية والوقوع فى براثن الاستعمار وتحت مناطق النفوذ ، وفى سياسة الاحلاف • واتفقت جميع قوى المعارضة على برنامج عملى واحد وهو رفض المعاهدة المصرية الاسرائيلية وما يتبعها من اجراءات التطبيع ، ورفض التحالف مع الاستعمار ، ورفض سياسة الانفتاح ونتائجها على الاقتصاد الوطنى ومستوى الحياة الاجتماعية للاغلبية ، ورفض جميع الاجراءات الاستثنائية المكبلة للحريات وجميع مظاهر الفساد والانحلال فى الدولة ورفض عزلة مصر عن محيطها العربى والاسلامى • نشطت الجماعات الاسلامية كأحد فصائل المعارضة • ولما كانت أكثرها تنظيما واقتناعا وقدرة على الفعل فقد حدث على يدها انفجار ٦ أكتوبر ١٩٨١ •

٧ - نهاية الايديولوجيات العلمانية للتحديث مثل الليبرالية

(قبل ١٩٥٢) والاشتراكية العربية (بعد ١٩٥٢) والماركسية وفشلها في احداث تغييرات جذرية في تاريخ البلاد ونهضة شاملة تحمى الامة . فقد تعاونت الليبرالية مع الغرب وأصبحت موالية له . ومن خلالها نشأ الاقطاع وازدهرت الرأسمالية ، وتدخل القصر والاستعمار في الحياة النيابية . كما انتهت الاشتراكية العربية الى مزيد من احتلال الاراضى ، وتكوين طبقة جديدة ، وتعذيب فى السجون ، واضهاد للحركة الاسلامية ، وقضاء على الحريات ، وسيادة الانحلال والفساد . أما الماركسية فانها مجتثة الجذور من تاريخ الامة ، تدّين بالولاء للغرب ، ولا تجد لها رصيذا فى قلوب الناس . لم يبق اذن الا الجناح الآخر ، الحركة الاسلامية لما لها من رصيد تاريخى ، وتعاطف شعبي ، وامكانيات تربوية وأخلاقية ، وقدرة على التنظيم والمقاومة ، وأهداف عليا . وبالتالي ظهرت الجماعات الاسلامية كبديل محتمل لنظام الحكم السابق ، والاكثر احتمالا من الليبرالية والقومية والماركسية . وبدأ الناس يتساءلون لقد جربنا كل شئ فلماذا لا نجرب الاسلام هذه المرة ، وهو ما نعرفه أكثر من غيره (٨) ؟

٨ - كان لانتصار الثورة الاسلامية فى ايران أثر غير مباشر على ثقة الحركات الاسلامية بقدرتها على الفعل . فقد حيت الجماعة الاسلامية الثورة الاسلامية فى ايران ونشرت صور الخميني على غلاف مجلاتها ، وتظاهرت ضد قدوم الشاه الى مصر ، وحيث نضال المجاهدين فى افغانستان . وبالرغم من ضيق أفق الجماعات واعتبار أن

(٨) انظر بحثنا : نشأة الاتجاهات المحافظة فى وطننا العربى الراهن قضايا عربية ، يناير ١٩٨٠ ، الجزء الخامس .

الخلاف العقائدى بين الشيعة والسنة مانعا من التحالف الثورى ، الا
أن نمط الثورة الاسلامية فى ايران التعاون بين الجيش والشعب كان
أحد نماذج الثورة الاسلامية المقبلة فى مصر (٩) .

٤ — ما هو العمل والحل ؟

ليست الجماعات الاسلامية مرضا خبيثا يجب اجتنائه أو داء
عضالا يجب القضاء عليه أو ظاهرة مرضية تجب معالجتها أو تنظيما
اجراميا لا بد من تقديمه للمحاكمة وانهاؤه داخل السجون والمعنقلات .
فلو كانت هذه هى النظرة لاستمرت الجماعات ولقويت ، ولازدادت
شوكتها والتاريخ القريب شاهد على ذلك منذ واقعة الاستيلاء على
البنية العسكرية على يد حزب التحرير الاسلامى فى ١٩٧٤ الى مقتل
الشيخ الذهبى على يد جماعة التكفير والهجرة فى يوليو ١٩٧٧ حتى
اغتيال الرئيس السابق على يد جماعة الجهاد فى أكتوبر ١٩٨١ . وفى
كل مرة يزداد عدد المتهمين ، ويتسع انتشار الجماعات . وليس الهدف
هو القضاء عليها ، ومنعها من الانتشار وانتشال أعضائها من الضلال
وارجاعهم الى حظيرة المسلمين وذلك بارشاد رجال الدين الذين يقومون
بواجبهم ويحل مشاكل الشباب وزيادة عدد الاندية الرياضية !
فالجماعات الاسلامية ظاهرة صحية فى مضمونها وان كان الشكل هو
الذى فرضته الظروف ، ظروف الحركة الاسلامية خاصة ابان الثورة
المصرية . وان الحل الوحيد ، فيما يبدو ، هو اعادة النظر فى العوامل

(٩) هذا واضح من أقوال عبود الزهر فى قضية اغتيال السادات
الجزء السادس : الاصولية الاسلامية .

التي ساعدت على نشأتها ثم تحويل هذه العوامل نحو اشكال أكثر صحية وأكثر شرعية من الاشكال التي ظهرت فيها الجماعات حتى الآن •

ويمكن تحديد ذلك على النحو الآتى :

١ - ضرورة عودة الاخوان المسلمين كبرى الحركات الاسلامية المعاصرة ، والموروث الشرعى لحركة الاصلاح الدينى والباعث على نهضتها من جديد والتي أحييت فى قلوب المسلمين أمل الدولة الاسلامية وعزة الاسلام ، ونصرة المسلمين • جهادهم التربوى من أجل اعداد الشباب معروف ومشهود ، وجهادهم فى فلسطين أثار اعجاب الجيش النضالى ، وحربهم الانجليز فى قناة السويس فى ١٩٥١ بالتعاون مع الضباط الاحرار كان فخرا للحركة الوطنية المصرية • وتوطيد أواصر الصداقة والتعاون بين أرجاء العالم الاسلامى كان بداية الحركات الحالية للوحدة العربية وللجامعة الاسلامية (١٠) •

وقد كان الاخوان قاي قوسين أو أدنى من النصر قبيل الثورة المصرية وبعدها لولا حدوث الشقاق بين أعضاء مجلس قيادة الثورة ، ووقوع الصراع على السلطة بين الثورة والخوان ، وحدث أكبر مأساة فى تاريخ مصر الحديث التى شقت الامة الى قسمين ، وقسمت وجدانها شقين ، الاسلام والثورة ، الدين والوطنية ، حاكمة الله وحاكمة البشر • فلا يمكن فى مصر أو فى أى بلد اسلامى أن يغيب تنظيم اسلامى شرعى قادر

(١٠) أنظر مقالنا ماذا خسرت مصر بالقضاء على الاخوان ؟ وماذا كسبت مصر ، من جماعة الاخوان • الجمهورية ١٩٧٦/٣/٢٠ ، ١٩٧٦/٥/١٠ الجزء السابع : اليهين واليسار فى الفكر الدينى •

على التعبير عن الاسلام باعتباره تاريخ الامة وروحها ، والمعبر عن مطالبها ، ووعاء وحدتها الوطنية ، وبوتقة اتجاهاتها السياسية .
فالجماعات الاسلامية هي الجماعات الشاردة نظرا لغياب التنظيم الام القادر على احتواء أبنائه . ويمكن للجماعة الاسلامية أن تكون جناحا جذريا داخل التنظيم الام كما يمكن لجماعات الهداية والرشاد ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجمعية الشرعية ، وأنصار السنة المحمدية ، والازهر وغيره أن تكون جناحا لينا طيعا في مقابل جناح الشباب الذي تمثله الجماعات الاسلامية . ولكن يظل تنظيم الاخوان المسلمين هو التنظيم الام القادر على احتواء أجنحته ، والقادر على أن يعقد حوارا داخليا بين فرق المسلمين من منطلق واحد وهو الاسلام ونحو هدف واحد وهو اقامة الدولة الاسلامية . ولكن قبل ذلك لابد من حدوث مصالححة رسمية وعلنية بين الثورة والاخوان ، بين الدولة والحركة الاسلامية ، وأن يتم اعتذار رسمي من الدولة عما حدث لكبرى الحركات الاسلامية من اضطهاد وتعذيب دون ذنب اقترفه الابرياء .
وأن تلغى قرار الحل الصادر في ١٩٥٤ ، وأن يعاد اليهم المركز العام الذي اشتره الاخوان بأموالهم ويحلى نسائهم والذي انقلب من مركز للهداية والدعوة الاسلامية ، وقلب نابض للعالم الاسلامي الى قسم الدرب الاحمر يسجن فيه المتسولون والمجرمون والقوادون ! وعلى هذا النحو يمكن أن تمحي الغصة من الحلق والاسى من القلب والحزن من النفس ، والثأر القديم بين الاخوان والثورة . ويبدأ كل منها صفحة جديدة من أجل مصر وصالح الامة ونصرة الاسلام وعزة المسلمين .

٢ — ضرورة عقد حوار مفتوح بين كافة الاتجاهات الوطنية ، والاحزاب السياسية ، والقوى الاجتماعية حول القضايا المصرية

في البلاد وعلى رأسها كيفية مواجهة الاستعمار والصهيونية في الخارج والمقضاء على التسلط والفقير في الداخل ، وأن تكون هذه المحاور الاربعة هي قلب الحياة الوطنية وليس اتحاد الكرة أو أخبار الدوري أو المسلسلات التلفزيونية أو اعلانات البضائع المستوردة . وعلى هذا النحو تواجه الدعوة الاسلامية التحديات الحقيقية ، وتشخذ ذهنها في صياغة برامج اجتماعية وسياسية تستطيع أن تتميز بها عن باقي الاتجاهات السياسية في البلاد ، ولربما يظهر على يديها أن الاسلام هو النظرية الاكثر اتساعا والاقدر على اكمال البرامج الوطنية الاخرى ، وعلى أن يكون بوتقة الوحدة الوطنية كما حدث في الثورة الاسلامية في ايران . فطالما عقد هذا الحوار الوطني على الأعتاب ، وفي سرائر الناس وضمايرهم فلن تتحول الطاقات الى الداخل في تنظيمات سرية ومنشورات مناهضة للحكم . وطالما عبر الناس عن آرائهم بصورة صحيحة ، وظهر الخلاف في الرأي علنا ، وعلى الملأ ، وأمام أعين الجميع ، فلن يحتاج أحد الى أن يدير ظهره للنظام وأن يعمل بطريقته الخاصة ضد النظام ، وأن يجد خير معبر عنه هذه المرة ليس الفكر بل المدفع والقنبلة . وفي هذه الحالة ، لن يرى الآخرين مخالفين له في الرأي يحاورهم وهم أحياء ويحزن على فراقهم وهم أموات بل أعداء ينهى حياتهم ، ويفرح لماتهم . فالعنف أو التطرف انما هو نتيجة طبيعية لغياب الحرية والديمقراطية ، وانعدام الحوار العلني المفتوح بين كافة القوى السياسية ، وتحويل للطاقات المختزنة للشباب ولقواهم النظرية والعلمية من العلن الى السر ، ومن الخارج الى الداخل ، ومن م ٢٢ - الحركات الدينية المعاصرة

مواجهة النظام الى طعنه في الظهر * فالفكر ليس جريمة ، والرأى ليس جنائية ، والاسلام أكثر الاتجاهات شرعية في البلاد ، وأكثرها عمقا وأبعدها تاريخا ، وأوسعها انتشارا ، وأقواها ضمانا ، وأحرصها على هوية الناس * لكل اتجاه لسان حاله ، جريدته اليومية ومجلته الاسبوعية أو الشهرية ، وكتابه السنوى ، ونشراته ومؤلفاته بل ومطابعه ومعاهده وتنظيماته ، وكل ذلك ترعاه الدولة وتؤيده ، وما الدولة الا كيان صوري وفكرة مجردة لا وجود لها الا من خلال الجسم الحى للمواطنين ، دمائهم وعظامهم ولحمهم وحياتهم * فان عادت الدولة قواها واتجاهاتها فانها تقضى على حياتها بيدها وتنتحر دون أن تدري * أن حرية الفكر هي شرط التقدم ، وقد يكون خطأنا الحديث اننا بدأنا بالضباط الاحرار وليس بالمفكرين الاحرار وبالتالي تكون قد وضعنا العربة أمام الحصان (١١) *

٣ — وضع نهاية لكافة مظاهر النفاق الدينى فى أجهزة الاعلام ومؤسسات الدولة واعطاء المؤسسات الدينية استقلالها عن السلطة * والصيام الذى يكلف الدولة مئات الملايين من الجنيهات بالعملة

(١١) انظر مقالنا الضباط الاحرار أم المفكرون الاحرار ؟ قضايا عربية ، سبتمبر ١٩٧٩ وايضا ، الجزء الثانى : الدين والتحرر الثقافى . ولذلك وضع سبتيوزا عنوانا فرعيا لرسالته فى اللاهوت والسياسة « فى أن حرية الفكر ليست خطرا على التقوى ولا على سلامة الدولة بل ان القضاء على حرية الفكر فيه خطر على التقوى ويهدد سلامة الدولة » . انظر ترجمتنا وتقديمنا للرسالة ، الطبعة الثانية ، الانطو المصرية ١٩٧٨ .

الصعبة لتوفير المواد الغذائية واستيراد كماليات رمضان ، والشهادتان اللتان لا تتعديان تمثمة الشفافة ، وتحويل الدور الارضى من عمارات من عشرات الطوابق لاعفائها من العوائد ، وبناء المساجد من الفنانين والفنانات ورجال الاعمال ووجهاء الدولة ، والتكسب من الكتب الدينية والبرامج الاذاعية والاحاديث التلفزيونية والاثراء من قراءة القرآن والمناصب الدينية ، وطبعات القرآن وتغليفه بالقطيفة الحمراء ثم لا تفتح أو تقرأ بل تتبادلها كالهدايا أمام عدسات التصوير تعبيراً عن الايمان ، وجعل الشريعة المصدر الرئيسى للتشريع فى نطاق الحدود والاحوال الشخصية ، وممارسة الانفتاح الاقتصادى وكبت الحريات والتسليم بالصهيونية والتحال مع الاستعمار ، وتكوين لجان لتقنين الشريعة من المهريين وتجار الحشيش والمقاولين والسماسرة والمضاربين ، وتكوين هيكل عظمى يسمى جامعة الشعب العربية والاسلامية لسد فراغ الجامعة العربية ، واصدار « العروة الوثقى » كلسان حال للنظام السياسى ، وتأييد مجاهدى أفغانستان لا حبا فى الاسلام ولكن عداً للاتحاد السوفيتى وتعاوناً مع الاستعمار الذى أصبح بين يوم وليلة مؤيداً للمسلمين وكان شعب فلسطين ليس مسلماً ، ومعاداة الثورة الاسلامية فى ايران باسم المحبة وكراهية للدم ، واستعمال فقهاء السلطان وفقهاء الحيض والنفاس لتعطيل ما يريد الحكم وتحريم ما لا يريده ، فلا يجوز الصلح أو المفاوضة أو الاعتراف باسرائيل باسم الاسلام بعد هزيمة ١٩٦٧ تأييداً للخط السياسى آنذاك ، ويجوز الصلح والاعتراف والتفاوض مع اسرائيل بدليل صلح الحديبية تأييداً للخط السياسى بعدها بعشرة أعوام ، والفتونان من نفس المكان ومن نفس

الرجال وبالاعتماد على نفس النصوص ! فلماذا لا يثور الشباب المسلم
اذن ضد مظاهر النفاق الديني ويحرمون الصلاة في مساجد
الاقواق ويشقون عصا الطاعة على رجال الدين ، ويصلون في مساجدهم
الاهلية ويتقون بانهم الشرفاء (١٢) ؟

٤ - دخول البلاد في مشروع قومي واحد حتى يمكن تجنيد كل
القوى الوطنية حوله ، ويجند الشباب المسلم الطاهر فيه تعبيرا عن
معارك الاسلام ونداء للجهاد وطلبا للشهادة . لم تظهر الجماعات
الاسلامية في الستينات عندما كانت البلاد مجندة في مشروع قومي
واحد ، بناء الاشتراكية في الداخل ومواجهة الصهيونية والاستعمار في
الخارج ، ووجد الشباب كله البديل الوطني الذي لم يوجد في السبعينات
فظهرت الجماعة الاسلامية كبديل واحد وجذبت الشباب نحوها بعيدا
عن الانفتاح والاستهلاك والعملية والتسليم والاستسلام . فالجهاد
فريضة لا شك فيها ، واقامة الدولة الاسلامية مطلب اسلامي يقيني
والشباب مازال طاهرا يود الولاء لقضية عامة . وبالتالي تكون مسئولية
الدولة في غياب مشروع قومي واحد يمكن اطلاق طاقات الشباب فيه ،
وتحويل المشروع الاسلامي الى مشروع مرحلي ، وتحويل المشروع
القومي الى أحد جوانب المشروع الاسلامي . وعلى هذا النحو يمكن
اعادة الجماعات الاسلامية الى الوطنية كدعامة لها ، وثير اصيل فيها ،
كما يمكن للحياة الوطنية أن تجدد جذورها في التراث الاسلامي ، ولا

(١٢) انظر مقالنا : الوثنية الجديدة . الجمهورية ١٦/٧/١٩٧٦ ،
الجزء السابع ، اليمين واليسار في الفكر الديني .

غرابة في أن يكون ذلك هو تراث الحزب الوطني القديم ، وأن يكون
الافغانى رائد الحركة الاسلامية الحديثة هو رافع شعار
« مصر للمصريين » •

فهرس الموضوعات

الحركات الدينية المعاصرة

الصفحة	الموضوع
٣	١ - المسلمون في آسيا في مطلع القرن الخامس عشر الهجرى
٩١	٢ - نشأة الاتجاهات المحافظة في وطننا العربى الراهن
١٢٣	٣ - أثر أبى الاعلى المودودى على الجماعات الدينية المعاصرة
١٦٧	٤ - أثر الامام الشهيد سيد قطب على الحركات الدينية المعاصرة
١٧٠	(أ) المرحلة الادبية
١٩١	(ب) المرحلة الاجتماعية
٢٢٣	(ج) المرحلة الفلسفية
٢٥٥	(د) المرحلة السياسية
٣٠١	٥ - النهضة الاسلامية المعاصرة (خطة بحث)
٣١١	٦ - الحركات الدينية المتطرفة (ورقة موقف)

رقم الإيداع بدار الكتب

٨٨ / ٧٦٤٢

٩٧٧ - ١٣٣ - ١٠٦ - ×

دار النشر للطباعة

الدين والثورة

فكر مصر
١٩٥٢ - ١٩٨١

- ١- الدين والثقافة الوطنية
- ٢- الدين والتحرر الثقافي
- ٣- الدين والنضال الوطني
- ٤- الدين والتنمية القومية
- ٥- الحركات الدينية المعاصرة
- ٦- الأصولية الإسلامية
- ٧- اليمين واليسار في الفكر الديني
- ٨- اليسار الإسلامي والوحدة الوطنية